

وارد بدر السالم

# بنات لالش

(اكتشاف عذراء سنجار)



مكتبة نوميديا



بيت الحاسمين  
للنشر والتوزيع



اسم الكتاب:

بنات لالِش (رواية)

اسم المؤلف: وارد بدر السالم

الناشر:

بيت الياصمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:

2019/ 15733

الترقيم الدولي:

978-977-817-196-9

الطبعة الأولى لبيت الياصمين يناير 2020

المدير التنفيذي: فاطمة الحلواني

مدير التحرير: معتصم عراقي

تصحيح: يوسف مسلم

حقوق الطبع محفوظة بالكامل لبيت

الياصمين.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو

أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة

المعلومات، أو نقله بأي شكل من

الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

الإشراف العام:

زياد إبراهيم

المراسلات:

71 ب حدائق الأهرام - البوابة الأولى

طريق الفيوم - ميدان الرماية - الجيزة

جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني:

Baitelyasmin@gmail.com

ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-

(+202) 0111 00 94 62 5

(+202) 0101 66 85 58 3

رواية

بنات لاليش

وارد بدر السالم

بنا في به زداني باكي د لوفان وميهره بان

باسم الله الطاهر المقدس



قد صنعتُ عمودًا قبالة بوابة المدينة، وسلختُ كلَّ القادةِ العصاة،  
وكسوتُ العمودَ بالجلدِ المسلوخ.. قد أمرتُ بزعماءِ المدنِ المقهورة  
فسلخوا، وكسوتُ جدرانَ المدينةِ بجلودهم، والأسرى قتلتهم بالسيف  
وطرحتهم على كومةِ الروث، والصبيَّةُ والبناتُ أُحرقوا..

آشور ناصربال الثاني



## الجزء الأول





## أميرات المعبد

### 1

قبل بدء مراسم التعميد بوقتٍ قصير، أطلّ الراعي الأعرج راقيار<sup>(1)</sup> بثوب أبيض مزّن بحزامٍ قطني أبيض، وعلى وجهه ابتسامة زهو عريضة، لم يستطع إخفاءها في هذا الكرنفال الأبيض الذي يحيط به، تسترسل تحتها لحية مشدّبة قليلاً، ومنتظمة، كأنه أعدّها للمناسبة، غيّرت من ملامحه المتربة القديمة التي كان عليها في شنغال<sup>(2)</sup>، حينما كان يطرق أزقة المدينة وشوارعها بقناع قطيعه الملوّث بالأطيان والقش، وثيابه الرثة المتراكمة على جسده واكسسواراته الصدفية والعاجية، التي تطوّق رقبتَه كعجري تائه في مدينة مجهولة، ولحيته المتهدلة، وانخفافات

---

1- معناها الصياد. باللغة الكردية

2- هي سنجار باللغة الكردية، وترد في الرواية بصيغتها العربية تاريخياً، والكردية التي يتداولها أيزيدية سنجار.

وجهه التي يجاهد أن لا يجعلها على مرأى من شرطة الجسبة المنتشرين في كل مكان، فبدا أمام الفتيات المتواجدات في باحة المعبد أقل من عمره الستيني كثيراً، وأكثر شباباً مما كان عليه الراعي الذي يجوب شنغال في مواسم معينة، فغاب الوجه القديم الملبّد بالأتربة، والخموض، وأشواك الجبل، وحلّ فيه طيفٌ رجولي آخر أكثر وضوحاً وانفتاحاً وخفة.

تأملته بطلته المهذبة النظيفة، وباختلافه مع الراعي القديم الذي انتشلهنّ من الأسر في أوقاتٍ متفاوتة، فهرعن إليه بطريقة احتفالية كحمامات بيض، وطوقته من كل جانب بشعور الامتنان العظيم للمخلص الوافد من وراء الجبل، أيامها بدا كأنه ملاك هبط في الأوقات الحرجة، أو نبي تركه تعاقب التاريخ ونسائه في تضاريس الجبال حتى موعد ظهوره الغامض في شنغال، وقراها المتباعدة المحتلة، راعياً مسناً يظهر في مواسم الربيع الخاطفة غنّاماً متجولاً لا يثبت في مكان.

رافقه شعور بالخجل وهو يُستدعى من قبل بابا چاويش<sup>3</sup> وسدنة المعبد، لحضور هذا الطقس التعميدي في احتفالية تخليص ست أسيرات بفدىّ مالية متفاوتة، وعلى مراحل ومغامرات مضمّنة استمرت شهوراً صعبة، لن يفهم صعوبتها

---

3- مركز في المجلس الروحاني، من طبقة البير ويكون بمثابة الحامي أو الحارس أو الراعي لمعبد لالّش، فالبابا چاويش ينذر نفسه لخدمة المعبد، ويستغني عن ملذات الحياة، بما فيها الزواج كالراهب عند المسيحيين - حالياً يشغل هذا المنصب بير شرو.

وخطورتها أحدٌ غيره، مثلما هو الآن في لحظة فخر يخالجه،  
ويتجذر في روحه بسعادة مطلقة، ماراً بيده على أكتاف  
الفتيات، ورؤوسهن المغطاة بشالاتٍ بيض، وهو يضم البعض  
منهن إليه، ويزيد من ابتسامته العريضة شاعرًا بفخر اللحظة،  
متمتمًا بأسماء الفتيات كمن يؤكد أنهن باقيات في ذاكرته إلى  
الأبد. شانيا.. ثيان.. شهربان... بيركسان.. سولاف.. چنار.. يا  
بنات لالِش العزيزات، بقيت الكثيرات منكُن هناك.. بقيت..  
هنار.. هلات.. أقين.. رنده.. ناريمان.. شهربان.. ونشتمان<sup>(4)</sup>،  
وكان قد أفرد أصابعه وتوقف في العد السابع).. سيساعدني  
الرب وطاووسي ملك<sup>(5)</sup> على تخليصهن من الأسر.

- أم تخلص نشتمان؟

تساءلت إحدى الفتيات بعفوية. ردّ ببساطة:

- لم يعد لها أثر.

قالت فتاة أخرى كأنما لتؤكد وجود الفتاة الغائبة:

- أظنها في أحد بيوت الأمير الكبير أبي العينين<sup>(6)</sup> هي وهنار

وشهربان وأقين.

---

4- الوطن باللغة الكردية.

5- هو كبير الملائكة الذي اتخذ منه الأيزيديون شعارهم . ويعتقدون أنه الملاك الذي  
لم يسجد لآدم لأنه رفض أن يسجد لغير الله في القصة القرآنية المعروفة.

6- أبو العينين: اسم علم مركّب. مثل أبو ظبي

هز رأسه وقال بثقة:

- سأجدهنّ.. سأقلب شنكال عاليها إلى سافلها.

التفت إلى أكثر من جهة، يقلب نظراته على السفوح المتقاربة المحيطة بالمعبد:

- مسكين والدها كم تعذب من أجلها وغامر بحياته. إنه محبط أشبه بالمجنون.

لم تمنع الفتيات دموعهنّ المترققة في عيونهنّ أمام المخلص الستيني الذي يجوب المدينة المتربة بقطيعه، وبطريقة غامضة يصعب عليهنّ فهمها أول الأمر، ويتوقف كثيراً مع جنود الجسبة، وسيطرات المدينة، ويدخل بيوت الكثيرين منهم ويبقى أوقاتاً طويلة يظهر كأنه أحد أتباع الجماعة، وأحياناً يختفي أياماً طويلة وأسابيع من دون أن يترك أثراً، غير أن رائحة غنمه وخرافه تدلّ عليه في كثير من الأحيان، ماركاً في الدرابين المهجورة ومتطلعاً إلى النوافذ والأبواب المقفلة، تسبقه صلصلة المرياغ<sup>7</sup> ذو القرنين المعقوفين الذي يقود القطيع برنين جرسه الذي يطوّق رقبتَه.

---

7- خروف ذو قرنين معقوفين غزير الصوف. يُفطم عن أمه أثناء ولادته، ويقوم الراعي برضاعته بزجاجة مخصصة لهذا الغرض، كما يقوم بإخصائه، على أن تكون مهمته الأساسية هي قيادة القطيع عبر جرس يوضع على رقبتَه ليكون دليلاً إليها.

عادت البنات إلى حائط المعبد وانتظمنَ بصفين، فيما السحب الراعي يصفح بارتباك شاباً ورجالاً آخرين، تزاحموا في لهار معبد لالش<sup>(9)</sup> الذي اكتظَ بجمهورٍ غير قليل لتحية أسيراته الناجيات، وهو ما توقعه منظمو الحفل من الشباب والناشطين المدنيين والقائمين على خدمة المعبد من الخلمتكارية<sup>(10)</sup> المتطوعين، حتى أن بابا شيخ<sup>(11)</sup> وبابا جاويش وبعض القوالين<sup>(12)</sup> والمجويوين<sup>(13)</sup> حرصوا على أن يكونوا في

8- المعبد الرئيسي لأيزيدية العالم في منطقة شيخان. يضم ضريح الشيخ عدي بن مسافر، ويقع بين ثلاثة جبال هي: عرفات - حزرت - مشيت.

9- مفردها خلمت كاري، تُطلق على مجموعة متطوعين أيزيديين للقيام بمجموعة من الأعمال؛ كالاهتمام بمعبد لالش من تنظيف، وجني الزيتون وعصره لاستخلاص الزيت الذي تُستخدم بذوره في إشعال فتائل قناديل المعبد.

10- المرشد الديني، وهو منصب أو مركز في المجلس الروحاني الأيزيدي، ويأتي بعد الأمير مباشرة على أن يكون من سلالة شيخ فخر الدين الشمساني- وحالياً يشغل هذا المنصب شيخ ختو.

11- فئة من رجال الدين الذين يشتركون في الزيارات السنوية برفقة رمز يمثل طاووس ملك في جميع القرى الأيزيدية، هناك قوالون يتلون التراتيل الدينية، وآخرون يحملون الطاووس على رقابهم ضمن مراسم تجري في أحد المنازل، وعادة ما يكون القوالون من منطقتي «بعشيقه» و«بحزاني» حصرياً.

12- هم السدنة الذين يقومون بترميم المزارات الدينية كل ليلة أربعا، ويقومون بخدمة المزار والإعلان عن أيام الأعياد، كما يقودون جماعات القرية الذين يزورون

مقدمة مستقبلي الأسيرات اللواتي تخلصن من الأسر، بطريقة الزواج الإسلامي الورثي من شخصية غامضة، لا تبارح باب الجامع ولا تنطق كثيراً، بفضل الراعي الأعرج راقيار الذي عقد صلاتٍ غامضة مع رؤوس داعشية مهمة، وقدم لهم رشاوى كبيرة، مثلما يتداول هذا مهجرو سنجار في مخيمات دهوك وباعذرا.

انتظمت الأسيرات بصفين حافيات الأقدام، مجلاتٍ بالبياض، والخجل، والفرح، ورهبة المكان الذي فارقنه منذ وقت طويل، بعد خروجهنّ من الكهف الذي يضم ضريح الشيخ عدي بن مسافر<sup>(3)</sup>، وأداء مراسيم الزيارة بخشوع وبكاء صامت، إلا أن زحمة الرجال والنساء والأطفال المحتشدين الذين قدّموا من المخيمات في دهوك وشاريا وخانك وشيخان وإيسان وباعذرا وجم مشكو وپرسفي وگولان وبردرش، ملأوا الساحة الصغيرة بالفرح وطققات الموبيلات في صور سيلفي متسارعة لتوثيق الحدث، والتركيز على وجوه الناجيات اللواتي ظهرنّ اليوم في احتفالية المعبد؛ مجتمعاتٍ بندااءٍ من شبابٍ ناشطين لتعميدهنّ وتطهيرهنّ من وساخات داعش حينما كنّ أسيرات ومغتصبات،

---

معبد لالش، ويكونون في مقدمة مستقبلهم.. إضافة إلى وظائف دينية أخرى.

13- الرجل المقدس الأول في الديانة الأيزيدية، ويعده الأيزيديون تجلياً للملاك طاووس. وهو مطوّر ديانتهم. ويسمى أيضا شيخادي. ما يزال ضريحه في المعبد الرئيسي لالش يحج إليه الأيزيديون من كافة أنحاء العالم.

فأحدثوا موجات من الحركة والتزاحم والفرح، توطنت في عيون  
أشرقت دامعةً مع شمس الربيع العمودية، وفي صلاة واحدة  
ترتلها القلوب في نبضٍ مشترك، يمكن استشعاره بسهولة.

### 3

قال شاعر سنجاري شاب منفعل بالحدث وهو يدير وجهه  
إلى الجمهور المختلط:

- هؤلاء بنات شنغال وبنات لالِش أخواتنا العائدات من الأسر.  
إنهنَّ أميرات الحياة اللواتي عانينَّ من ظلم وقذارة داعش، لكن  
بقيت روح لالِش في أعماقهنَّ وبقيت الأيزيدية نورًا يشعُّ في  
قلوبهنَّ.

همهم الكثيرون مستحسنين هذا الخطاب الفوري، لكنَّ رجلًا  
خمسينيًا تميزه شوارب متدلّية تحشرج صوته، كما لو غصَّ  
بعصفورٍ صغير لم يستطع ابتلاعه، غير أنه عاد وبدا متحمسًا  
كما لو يوجه خطابه إلى حشد غير هذا:

- نعم. إنهنَّ أميرات شنغال ولالِش وأميرات الأيزيدية كلها.  
لقد أثبتنَّ أنهنَّ بنات الشمس وبنات الشرف الأيزيدياتي الرفيع  
حينما تخلّصنَّ من أقسى وحوش على وجه الأرض، ورفضن  
السبي والعار والذل، ليعدنَّ إلى الحياة أكثر شرفًا وعفةً، ويعدنَّ  
إلى العين البيضاء<sup>(1)</sup> ليتطهرنَّ ويمضينَّ إلى الحياة من جديد.

---

14- بئر ماء يقع ضمن محيط معبد لالِش ويعتمد به كل أيزيدي .



قاطعته امرأة بزغرودة قصيرة كبلبل مختنق، وبادلتها أخرى بزغرودة طويلة كصافرة مرتعشة بعثت النشوة والحماسة في الحاضرين، وطغت على الصخب البشري الذي تختلط أصواته ونداءاته، فيما بقيت وجوه البنات مستكينه في صندوق الفرع العامر من حولهنّ بهدوء بارز، لكنه لا يخلو من الحرج في نسق الانتظار تحت هيمنة الفرع الجماعي، والاستقبال الذي أغرقهن بالزهور والعطور في احتفاء مقدس، أشعرهنّ بهيبة المكان، وأن أرواحهنّ ما تزال بيضاء نقية بالرغم من الدنس الطويل الذي حملنه في شهور الأسر العصبية.

#### 4

أحد الشباب الناشطين بعد أن تقدم أكثر من خطوة ليلفت الأنظار إليه تحدث بحماسة:

- مرحبًا بكنّ أيتها الأخوات الطاهرات في معبدا النوراني لايش. لقد عادت الحياة إليك مرة ثانية بين الأهل والأحباب والأصحاب بفضل من خودا<sup>15</sup> وطاووسي ملك وتحررتنّ من أسر أردل خلق الله.. ولا ننسى هنا المشقات التي تحملها العم رافيار الذي خاطر بروحه لمرات كثيرة من أجل أن يكون وسيطاً بيننا، وبين دواعش دولة الخرافة الإسلامية بطريقته المغامرة من دون أن يتكاسل أو يتعب أو يخاف من موت، في

---

15- الله باللغة الكردية.

سبيل إنقاذ الشرف الأيزيدي بالمال والذهب وكل شيء ثمين..  
ولكن لا يوجد أثمن من شرف أخواتنا الأسيرات.

التفت الشاب الناشط إلى الراعي كأنه يحثه على الكلام،  
ففهم الرجل هذه الإشارة وتقدم خطوات عرجاء مرتبكة إلى  
الأمام، ومسح وجوه الفتيات بنظرات إشفاق فيها الكثير من  
الحب والحنان وطيف الابتسامة لم يفارق وجهه.

وجّه كلامه إلى بابا شيخ الجالس على دكة حجرية، لكن  
عيناه ظلنا تنتقلان إلى كل الوجوه المحيطة به في هذه اللحظة:  
- لم أقم إلا بواجبي تجاه بنات لالش وشنغال. وفي كل مرة  
أقرأ يهاجمني إحساس من أنني لن أعود إلى لالش مرة أخرى.  
فهؤلاء غدارون لا دين لهم ولا أخلاق.

كان صوته يتهدج إلى حد أنه شعر بالارتباك كما لو أن مهمته  
قد انتهت لكنه تدارك قائلاً:

- كل مرة أفهم شيئاً وأنا أنجو منهم بالصدفة.. مثلاً هؤلاء  
دينهم بين أفخاذهم وفي جيوبهم.. يعبدون الجنس والمال  
والدم.. إنهم قتلة.. بلا ضمائر.. وحوش وخنازير.

شعر أنه يتعرق قليلاً، وأن العيون التي تراقبه تحاصر وجوده  
العفوي في هذا المكان المقدس:

- بقيت أسيرات كثيرات في سنجار والرقّة والموصل وحلب.. وخودا  
يساعدنا جميعاً لتخليص بناتنا من هذه الغمّة ويعدنّ إلينا.

ثم وجّه كلامه إلى بابا چاويش:

- نحتاج إلى كنز قارون يا سيدي لشراء بناتنا وفك أسرهن.

انبرى شاب منفعل مقاطعاً الراعي:

- الحكومة صُفرت ميزانيتها بالفساد والسرقة والمشاريع الوهمية، ولم يلتفت أي وزير أو برلماني إلى حال الأيزيديات المسببات.. وين العدل يا سيدي بابا چاويش..؟

هز الرجل الوقور رأسه من دون أن يقول شيئاً لكنه ظل مصغياً إلى راقيار:

- هذه البنات خلصتهن برشاوى وفدى مالية غير قليلة.. الدواعش يفرضون أموالاً بائنة أو مصوغات ذهبية والأهالي لا قدرة لهم على ذلك.. ولولا التبرعات الخارجية والمساعدات البسيطة التي تأتي من هنا وهناك، ومن مقامكم أحياناً، لما فككنا أسر هذه البنات.

وكما لو يستعطف بابا چاويش:

- بقيت الكثير من البنات والنساء في الأسر.. نحتاج إلى مالٍ كثير.. كثير.

الفتيات الحافيات والملكسوات بالبياض يشعرن بالسلام الكبير في باحة المعبد، وهنّ يستقبلن الورود الملونة التي يقدمها شباب ونساء ورجال وصبيان وأطفال في استعراض جليل، حتى امتلأت أيديهنّ بباقات ملونة من أزهار الربيع، وامتلأت أنفاسهنّ بالعطور، مأخوذات بالجموع المتزاحمة التي تحلقت حولهنّ، وبدت كل واحدة كأنها خارجة من خطيبتها كدرة بيضاء بالرغم

من الدموع المتقطعة التي تترقرق في عيونهنّ السعيدة.  
كانت الشمس عمودية في ربيع المعبد، وبدت الجبال الثلاثة  
التي تحيطه مثل مخروط أخضر مقلوب ينفتح إلى الأعلى،  
فيكشف الكثير من الأشجار المتكاثفة الصاعدة والكثير من  
السماء البيضاء المفتوحة على الأمل والكثير من العصفير  
والطيور وغيوم نيسان العابرة.

أمهات يتناولن بين الجموع، ويتمتمنَ بدموع غزيرة وعيون  
كغليظة لآباء يشعرون بمشاعر متناقضة، منقبضي الأرواح في حفل  
الأميرات اللواتي يتساوين في البياض الآن، وقد تحولن إلى حديقة  
صغيرة من باقات الورود التي يضعها المتجمهرون في أيديهن، أو  
تشبكها النساء على مقدمات رؤوسهن المغطاة بشالات بيض  
منحسرة قليلاً، فبدونَ مثل شجيرات بيضاء مزهرة بورود الربيع.

## 5

عاد الشاعر السنجاري الشاب، وألقى قصيدة باللغة الكردية  
متحمساً حتى تصبب العرق من وجهه، واحتقنت عيناه  
بالحماسة، وهو يخاطب بنات لالش اللواتي كنّ مخطوفات  
عند داعش في سنجار:

مهما كان الرصاص كثيفاً

لكنه لا يستطيع أن يحرق تين سنجار

ومهما كانت الغيوم داكنة

فلا بد من شمسٍ تخرج أخيراً  
ولا بد للأوراق أن تعاود اخضرارها  
والغصون تعاود رشاققتها

...

مهما كان سواد البارود خانقاً  
لكن سنجار لا تختنق  
فسماؤها زرقاء وعميقة

...

كل الطيور تعود لأشجارها في نهاية الأمر  
وستنجلي رائحة البارود  
وتنهض البيوت من ركامها  
وينتبه الحطام إلى أضلاعه المتكسرة  
فيقف من جديد يحكي عن موسوعة الألم الشنغالية  
لكنه يقف أخيراً ويدعونا أن نعود  
لنصلي على ما مضى صلاة الغائبين والغائبات  
ابتداءً من حزن لالِش  
ثم نمضي إلى شنغال معكن  
أيتها الأخوات الجميلات المعمدات بالعين البيضاء مرة ثانية  
فهذه مياه الطفولة تتدفق في عروقكن  
وتخلقكن من العدم  
فما مضى قد مضى

وتاريخ الأشجار يبقى أخضر  
وها إنكنّ تولدنّ من جديد في حُضن لالِش  
تحت أنفاس طاووس ملك والجبال المقدسة  
تولدنّ كطفلات البساتين  
رقيقات وجميلات ومعطرات  
إنه عطر خودا العظيم  
إنه جمال شنغال العظيم

أكثر من يد رمت عليه ورودًا صغيرة، وهو يزيد من انفعاله  
بإعادة مقاطع من القصيدة مرة ثانية، محتفياً بطريقته  
الفردية، بين الدموع المنفلتة من عيون الأمهات والنساء  
الأخريات، والرجال المنسجمين بجلال الموقف، ونشيج الفتيات  
المتخافت، وفرح المكان المشتعل بالرقص، وأزهار نيسان الملونة  
المتطافرة من الأيادي.

## 6

سارت الجمهرة المختلطة كزفة عرس بقوس واسع إلى العين  
البيضاء في الجانب الآخر من المعبد إلى مسافة قصيرة، لكنها  
طالت تحت مظلات من الورود المتساقطة على رؤوس البنات  
السعيدات في لحظات المعبد وعين اليقين التي غسلت وجوههن  
بيد امرأة التعميد القديمة؛ مباركة هذه العودة الميمونة  
والخلاص من كابوس السبي، مثلما هي بركات بابا شيخ الأبوية

التي تحيط بهنّ مع الورود المتطايرة على رؤوسهنّ، والذي يقود الأميرات الصغيرات إلى عين النقاء، بثوبه الأبيض الفضفاض المزّنر بحبلٍ صوفي أسود، يلتف على بطنه سبع مرات، ويتدلى على كتفه جبل مفتول آخر من الصوف الأبيض والأحمر، وعلى رأسه عمامة بيضاء، كأنه ملاك هابط من السماء، والذي لم يتوانَ من أن يكون الأب الكبير في طقس التعميد لبنات لالش العائدات من الأسر، وهو ما ترك فيهنّ شعورًا غامرًا بالفرح، وعادت إليهنّ على نحوٍ ما أسطورة الشيوخ العجائبيين الذين يولدون من العدم بقدرة الرب، فيمتلكون سحر الملائكة في بقائهم الأزلي في ربيع الحياة الذي لا تدنسه وحوش الغابات والبراري، ليكونوا شيوخ السلام بأرواحهم النقية العارية من لوثة الأزمان كلها؛ تلك التي مرت على مدار السنوات، وتلك التي ستأتي ما شاء لها الله أن تستمر.

## إنها أجمل أسيرة يا عم

### 1

رجلٌ يتعد عن الجموع المكتظة بطقس الفرح الجماعي،  
ويطلُّ عليها من على دكّة صخرية مثلومة من الجبل المطل  
على أعلى المعبد، متطلِّعًا إلى الوجوه المسالمة في استرخاءاتها  
الواضحة، وهي تستقدم الفرح الغائب منذ شهور سود، ويضع  
بين لحظة وأخرى صورة نشئمان في تلك الوجوه لكنها تفترق  
عنها بقسوة، كمن يركب وجهًا على روح ليست له فينفر منه،  
ليظل الوجه طافيًا بصفائه القديم في مخيلته، ولا يستقر على  
جسد من تلك الأجساد التي كانت مدنّسة في أسرها الطويل.

### 2

صبية من بين الناجيات أطالت النظر إلى تلك الهيئة الغريبة التي  
تراقب الحشد السعيد. قوامٌ طويل ونحيف يتكئ بحرص على عصا  
طويلة، لا لون لها، ولحية عشوائية مسترسلة وشوارب ثخينة نازلة  
كذيل من جهتين، وعينان كأنهما فقدتا زرقتهما، لكنهما تشبهان



عيني صبية كانت معها في مكان ما ذات يوم.. أياكون هو؟  
خطر في بالها أن الرجل أحد السنجاريين الهاربين أو المعذبين  
أو التائهين أو اليائسين في زحمة الهجرة الفوضوية، غير أنها  
تداركت ذلك وهي تخطو مع صويحباتها إلى العين البيضاء  
في احتفالية العودة، وصورة لصبية تلح في رأسها كثيراً لكنها لم  
تستطع إعادة الكثير من أيام البكاء الطويلة المحاصرة في بيوت  
سنجار أو الرقة أو حلب.

وحدها صبية المعبد رصدت الرجل الذي لا يريد أن يحتك  
بالجموع، كأنه لا يريد أن يكتشفه أحد في انزوائه الأعزل.  
ثمة شيء جعلها تتخلص من ارتباكها، وتطيل النظر كلما  
أمكنها ذلك إلى الرجل الوحيد، فتعيد على نحوٍ سريع صورة  
صديقتها نشُثمان التي فارقتها في مكان ما من سنجار محتقنة  
بالبكاء والكآبة والمرض والجفاف والعذاب الذي لا تجيده، ولم  
تعتد عليه، لكنها غابت عنها منذ فترة غير قصيرة في بيت من  
بيوت شيخ مجاهد سُمنته سيئة بين الأسيرات.

### 3

أغمضت عينيها وهي تستسلم ليدي امرأة التعميد، التي تغرف  
من بئر العين البيضاء غرفات ماء، وتمسح وجهها الصغير، وفي  
روحها شعور بالخلاص الأكيد وهي تتحرر من لوثة الأسر ووساخة  
الحمل المجهّض، فبكت بين يدي المرأة التي ضمتها إلى صدرها:.

- خودي يحفظك وطاووسي ملك.. أنت الآن طاهرة كما ولدتك أمك.. لا تبكي يا ابنتي.. الرب يحفظك ويحميك.  
انسحبت من المكان تاركة صبية أخرى بين يدي المرأة المعمدة، وخرجت إلى الفناء المفتوح على السماء، تتنفس بعمق متخلصة من أوساخ جسدها التي كانت تحملها شهوياً طويلاً، كمن نجت الآن من كابوس كان يحاصرها طيلة أشهر الأسر السوداء، خرجت فيها من عنق سنجار بأعجوبة تحمل الموت بين يديها العاريتين مع الراعي وغنمه وعقد الزواج الإسلامي الوهمي مع رجلٍ أعمى، بقي هناك تحت قدر مجهول.

#### 4

تفقدت السماء المطلّة على الجموع في إزهارها الربيعي المتفتح، فلفّتها الرجل ذو العصا التي لا لون لها، يقف على دكة حجرية تطل على فتيات الأسر الناجيات؛ فأدامت النظر إليه تملكها عاطفة وغريزة طفولية، لا تعرف مصدرها كثيراً. غير أن صورة نشْطُمان الجميلة جدّاً وبكاءها الطفولي اليومي كانت تقوِّض قلبها في كل وقت.

هذا الرجل الذي تراه في كل مكان من المعبد كما لو كان ساحراً بوجهه الملتحي. لا تعرف كيف اكتشفته في لحظة الاحتفال حينما رأت قامته الشاخصة، وعصاه الثابتة بيده وعينيه اللتين تشبهان عيني صديقتها الأسيرة التي فارقتها منذ

وقت ليس قصيراً، فغيرت صورة الشحاذ أو المجنون أو الضائع من رأسها حينما ركزت النظر عليه طويلاً. وكالمخدره سعدت سلماً يوصل إلى الدكة مفترقة عن صويحباتها اللواتي يتعمدْنَ بعدها، مبتعدة عن جمهور يحتفل بخلاصهنّ الأخير بين دفوف وشبابات ومزامير وصنوج تعزف موسيقى الفرغ على ديكات سريعة متوازنة يشارك فيها الجميع.

## 5

سبع درجات طالت بين قدميها الحافيتين والرجل يسحبها بعينيه المنفتحتين حتى وقفت مرتبكة أمام الجسد الشاهق وعصاه الثابتة بيمينه كأفعى محنطة؛ تخالجه لحظة ارتباك بأنها تتضاءل أمام قامته الطويلة النحيفة، لكنه استدرك لحظة الصبية الصاعدة إليه، فقصر من طوله عندما جثا على ركبتيه كالبوذي متكئاً على عصاه، فاقترب وجهه منها كثيراً ولاحظت عينيه اللتين فقدتا زرقةً أكيدة وهي تزداد ارتباكاً أمامه وعصاه التي بقيت واقفة فصارت أطول منه.

أشار لها بالجلوس على البلاطة الأخيرة كإلهٍ يأمرها فامتثلت طائعة متربعة على البلاطة الباردة، فارشة أطراف ثوبها الأبيض حولها كقراشة ناعمة.

تهدج صوتها:

- مرحبا يا عم.

ثم تساءلت منقبضة الروح:

- أنت...!

- أنا..!

طقطقت أصابعها المحشورة في حضنها:

- كيفك يا عم؟

- لستُ بخير.

خرج صوته بصدىً فاجأها كأنه يخرج من محارة غارقة.

هزّت رأسها كمن توافقه على الرأي لكنها لم تقل شيئاً  
للحظتها، غير أنها انتبهت لفتاة أخرى خرجت من عين التعميد  
صاعدة الدرجات السبع لتلتحق بها، وتجد مكاناً ملاصقاً لها،  
وهي تتأمل الرجل بدهشة.

قالت الفتاة الأولى كما لو تنبئه بشيء:

- نشئمان تبحث عنك يا عم.

تحرك رأسه قليلاً:

- وأنا أبحث عنها منذ سنتين.

أعدت التأكيد بطريقة أخرى وهي ترتعش نسيباً:

- ما قدرتُ تهرب.

- أعرف.

- لأنها..لأنها..

-... أعرف.

## 6

التحقت فتاة التعميد الثالثة وهي تدبُّ بخطواتها حذرة، صاعدة الدرجات القليلة حتى تمكنت من أن تجلس كالممغنطة بسحر يدبُّ في روحها، فبدت الفتيات الثلاث أمامه كأنهن ثلاث وردات بيضاوات خرجن من بئر التعميد.

تجرات الفتاة الثانية:

- يمتلكها أمير وحش، لأنها حلوة وصغيرة.

قالت الفتاة الأولى:

- لأنها حلوة فعلاً.

عادت الفتاة الأولى لتؤكد:

- إنها أجمل أسيرة يا عم.

هز رأسه وعيناه تتابعان صعود الفتاة الرابعة التي بدت

خفيفة كريشة بيضاء بفستانها الأبيض.

تساءل الرجل وهو يكمش رأسه كما لو أن شيئاً سيخرج

منه:

- هل...؟

سارعت الفتاة الأولى وحدها:

- لا لا.. لا أظن..!

- صارحيني.

- ما تزال طفلة ولا تعرف هذا..!

- لكنهم لا يفرقون الطفلة عن المرأة!

- كنت معها وقتًا و... كنت أعرف.

- الأمير أبو العينين كبير السن لا يهتم بهذا..!

دفعت بعينيها إلى أغصان الأشجار التي تتعالى فوق رأس الرجل، وهو جالس على ركبتيه كتمثال بوذي فارتبك التعبير بين شفتيها واختلج وجهها قليلاً:

- لكن ماذا أنت فاعل...؟

انتظرت الفتاة الخامسة قليلاً تعמיד آخر صديقاتها، وبقيت تنظر إلى صويحباتها الصاعدات إلى الرجل، فسارعت لتلتحق بهن بعد أن اكتمل تعמיד صديقتها السادسة فصعدتا معاً الدرجات الحجرية بخفة وانزوين مع فتيات التعמיד الأربع.

- منذ سنة كان لي أمل أن تهرب نشتمان معكن.

- لم تقدر.. إنها في بيت الأمير الكبير مسجونة هناك.

## 7

تطفل صبيان قليلون وهم ينظرون إلى أعلى الدكة، وإلى الحشد الصغير الذي يبرك فيه الرجل الملتحي مع فتياته الست، لكنهم هدأوا في البلاطة الأخيرة ومشوا على أطراف أصابعهم وجلسوا على الأرض، تبعثهم بعض النساء وبعض المعمدات اللواتي التحقن بالحشد الصامت.

قال الرجل وهو يتأمل المجموعة الصغيرة التي تكاثرت حوله ونشرت الهدوء بتلقائية غريبة:

- سأذهب إليها.

تساءلت الفتاة الأولى بصوت خرج من هدونه إلى حد ما:

- كيف؟ سيقتلونك يا عم.. أنت أيزيدي كافر بنظرهم..!

رد الرجل وهو ينظر إلى الآخرين والأخريات الذين يصعدون الدرجات بصمت وهدوء ومعهم آخر فتيات التعميد بحللهن البيضاء:

- أنا أيزيدي كافر وابنتي أيزيدية كافرة.. لكن سأذهب لأخلصها.. تعبت من الانتظار.. حتى الكفرة يحتاجون إلى سلام.  
قالت إحدى الفتيات:

- إنهم قساة يا عم.

- هكذا هي الحياة.. كبرث كثيرًا يا ابنتي والحياة من دون من نحب تصبح فقيرة وكالحة ولا معنى لها.. إنها القسوة بعينها.

## 8

انضمت نساء أخريات ورجال رفعوا عيونهم إلى الأعلى ينظرون إلى الحشد قبل قليل؛ لكن نداء صامتًا أغراهم بصعود الدرجات السبع وهم يرون قوسًا بشريًا من رجال ونساء وصبيان، يجلسون في المساحة الصغيرة، ويحيطون برجل ربما هو معروف لديهم.

- إذن هناك أمل عندك..؟

تساءلت إحدى فتيات التعميد.

- أمل ضعيف.. لكنني أحاول من أجلها.. إنها وحيدتي  
وصغيرتي.. إنها يتيمة.

## 9

تشكل القوس البشري بشكل تلقائي، وصعد الجميع إلى الأعلى  
وافترضوا البلاط البارد حفاة، عدا بابا شيخ وبابا چاويش اللذين  
ظلا يرقبان المشهد من تحت من دون أن يفهما شيئًا، لا سيما  
والصمت الذي أحاط بالمكان وكان الجميع تحولوا إلى طقس صامت.  
كان الرجل الملتحي ينظر إليهما بخطوط مستقيمة ثابتة،  
وهو ما لفت انتباه الجميع فاستداروا إلى بابا چاويش وبابا  
شيخ وأفسحوا مجالاً لهما ليمرا وسط الحشد، كما لو كانوا  
يحثانها على صعود الدرجات السبع ليقفا أخيرًا أمام الرجل  
الذي يجلس على ركبته كأنه تمثال.

انقسم الحشد إلى نصفين واقفين حين مر بهما الشيخان،  
فأضافا للبياض بياضًا آخر وهما يخترقان الصمت، بحفيف  
ثوبيهما وعطرهما الجبلي الذي أسبغ على المكان وقارًا آخر  
وهيبة أخرى، كملاكين يصعدان سلم المكان بطريقة فيلمية  
فيها الكثير من الهدوء والقداسة؛ إلا الرجل الملتحي فقد ظل  
على هيأته متكئًا على عصاه، ثابت النظرات، حتى استقر  
الشيخان على يمين ويساره، فيما جلس الجميع سوى بعض



الصبيان الذين ضاق المكان بهم، فاعتلوا الأشجار المحيطة  
بالباحة العليا لمكان التعميد، وهم يسجلون للحشد صوراً من  
الأعلى بموبايلاتهم، ويكثرون منها سعيدين بهذا التجمع الذي  
انضم إليه بابا چاويش وبابا شيخ وبقية المجيورين والقوالين،  
وأثوابهم البيض الناصعة تخفق تحت شمس لالِش البيضاء.

## سنمضي الليل على جبل عرفات

تحرّر راقيار من أجواء التعميد والفرح والحفل الشعري والخطابي بهاجس البحث عن صديقه القديم سربست، فصعد الدرجات السبع حاجلاً، في الوقت الذي كانت الفتيات يهبطن الدرجات بخفة مع جموع الأطفال والصبيان والشباب الذين شكلوا حلقة دائرية أسفل السلام، وعلى باحة العين البيضاء، في دبكة جماعية اختلطت فيها ألوان الثياب ببياض ثياب الأسيرات الناجيات.

على الدرجة السابعة توقف راقيار، ونظر إلى الرجل الكئيب الذي بقي وحده بعدما انفصّ عنه جمع الفتيات والنساء، وغادره بابا چاويش وبابا شيخ.

عانقه راقيار وقال له بثقة:

- أعدك بالعثور على ابنتك.. طال الوقت فعلاً وطال الانتظار.

تقدم بضع خطوات إلى الرجل ثم جلس إلى جانبه:

- مالك ما يزال في جيبي.. وسنجدها يوماً ما.

مدّ يده في جيب جانبي، وأخرج رزمة نقدية حمراء ثخينة،

مربوطة بخيوط بلاستيك التفّ أكثر من مرة عليها:

- لم تعد كافية.. الكلاب يزدون من مطالبهم في كل لحظة.  
كانا ينظران إلى جبل عرفات المقابل وأشجاره المتطاولة على  
السفوح:

- الدواعش في وضع صعب.. يبحثون عن المال بأية طريقة،  
ورفعوا من سقف مطالبهم فيما يخص هذا الموضوع.

تمتم الرجل الصامت بشيء فاستدرك الآخر:

- الأهالي باعوا كل شيء مقابل هذا الفرح العظيم.

وكان يشير إلى قوس الفرح مع الصبايا الناجيات.

- كل صبية وفتاة لها قصة مؤلمة.. لعنهم الله.

لم تفارق صبيته عينيه، وكأنه يراها في هذه اللحظة المزدانة بالفرح  
والألوان وشرائط الزينة ورذاذ المطر والأشجار الخضراء المغسولة:

- وماذا عن نشثمان؟

حك راقب رأسه وتطلع إلى وجه صديقه القديم، وقال بلا  
حذر كما لو يقرر حقيقة مهمة:

- الصبايا الحلوات من حصص الأمراء وقادة الجيش وتخليصهن  
من الأسر أمر في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا.

لاحظ عيني صديقه المغرورقتين وأكمل:

- الوصول إليهم ليس سهلًا.. لكنني سأصل.. لديّ علاقات  
ورشاوى وغنم وحيل كثيرة. أنا أدرسهم منذ سنتين.. لكن الأمر  
يحتاج إلى وقت يا صديقي.

قال الرجل الآخر بصوت فيه غصة:

- كنت أنتظر كل هذه الأشهر لعل بارقة أمل ولعل معجزة تحدث.

ثم استدرك:

- أعرف أنك كنت في شنغال شهورًا طويلة.. كيف خرجت؟

تهند الرجل وهو يفرك عتبة بيت يديه:

- خرجت إلى الموصل ثم إلى دهوك بطريقة صعبة بعدما

ينست من العثور على ابنتي.

هرش العتبة بطريقة عصبية حتى تفتت:

- وردتني أخبار بأنها في الموصل، مع السبايا لكنني لم أجدها،

ولم أستطع الرجوع إلى شنغال.

أكمل وعيناه تترققان:

- هربني إلى دهوك سائق مصلاوي شجاع.. وبقيت حتى الآن.

صمت وظل راقيار ينظر إلى عينيه اللامعتين متأسياً، ثم

استدار ناظرًا إلى الأفق المشتبك بالأشجار، وقال كمن يريد أن

يبعث أملاً صغيراً فيه:

- هناك نفوس ضعيفة بين الدواعش.. يبحثون عن المال. أكاد

أقول إن الكثيرين منهم عبارة عن تافهين ومفلسين وشقاوات

في بلدانهم ومخدرون بالخيال والدم والقتل.

كان ينظر إلى عيني صديقه القديم:

- خلّصت هذه البنات الأسيرات على مراحل بالرشاوى المالية،

والعلاقات المختلفة معهم بطريقة زواج إسلامي وَرْقِي، قد

تعرفها فيما بعد.

توقف كأنما يتذكر شيئًا:

- تصدق! بعضهم يريد أن يهرب من جحيم الحرب!

نظر الرجل إليه مستفهمًا:

- كلمني اثنان أو ثلاثة من إنهم خائفون. عرفوا أن أمريكا

زجت بطائراتها، وخططها لتساهم بتحرير شنغال وبعشيقه

وتلعفر والموصل.

وازن جسده وهو يتربّع مستديرًا قليلًا إلى الرجل:

- يعرفون أنهم سيموتون ولا مجال للنجاة لذلك يفكر البعض

منهم بالهرب قبل فوات الأوان.

نظر الرجل إليه واستمر راقيار:

- لا أنكر أنهم قساة فعلاً، وكلاب وخنازير بشرية، ولديهم

عقيدة بايخة.. لكن البعض منهم أدرك بعد أن جمع المال

اللازم بكل الطرق، أن يخلص بجلده من المحرقة القادمة.

مطّ الرجل الآخر شفتيه، وأكثر من علامة استفهام ترتسم

على وجهه، فبقي ينظر إلى راقيار:

- حدثني أحدهم بصراحة، بعد أن وثق بي كثيرًا عن طريق

للخلاص عبر كردستان، ومن ثم إلى تركيا.

سكت فجأةً كمن وشى سرًا فلت من لسانه لكنه استدرك:

- عمومًا أنا لا أحفل بمثل هذه المخاوف فيهم، وأخشى من

أمزجتهم الدموية بصراحة.

ثم قال:

- أحدهم فلسطيني من حماس اسمه أبو العربي، تافه، لديه أكداش من الدنانير العراقية والليرات السورية. يبدو أنه جربني ذات مرة حينما اتفقت معه على تخليص إحدى الأسيرات بأن أحول بعضًا من مبالغه المالية إلى دفاتر دولارية. ملايين كثيرة لا أعرف كيف جمعها.. وثق بي كثيرًا بعد أن عدت له خلال شهرين حاملاً له سبعة دفاتر من الدولار الأمريكي، وساعدني لاحقًا بتخليص بنتين أسيرتين، وسهّل لي طريق الهرب معهنّ لكن أخذ عمولة ليست قليلة.

صمت قليلاً وعيناه لا تستقران وأضاف:

- مستعد أن يساعدي مقابل المال وهذا فرصة كبيرة عليّ أن استغلّها.

ثم أكمل كما لو تذكر:

- كائن داعشي آخر من تونس يسمونه أبا الخير، لديه نفس الرغبة في الهرب لكن الجغرافية ضيّعت عليه كل ملامح الحياة، جُرح مرتين، يقول أنه في المرة الثالثة لن ينجو لهذا يريد الهرب بأي ثمن. هذا عكس الآخر فهو مستعد أن يدفع مالا مقابل تهريبه إلى تركيا.

تساءل سربست بياس:

- هل أنت واثق منهم؟

- لا.. لا يمكن أن أثق بهؤلاء الأنجاس لكننا نتعامل بمصالح

مشتركة. همي الأسيرات وهمهم المال والهرب لهذا دخلت عليهم من هذا الباب.

صمت قليلاً وأضاف:

- ما يهمنا الآن هو ابنتك نشتمان.

أخرج الرجل ذو العصا الواقفة صرّةً متوسطة الحجم من زيقه فخرخشت قطع معدنية فيها:

- هذه الصرّة من الذهب، أرسلها لي خودا في يوم ممطر عبر شلال صغير فدية لابنتي، فأودعتها في مكان أمين عند امرأة حامل لا تريد أن تلد وقتها يوم كنت في شنغال، ولا أعرف مصيرها حتى الآن، غير أن صرّة الذهب عادت لي بطريقة لا أفهمها.. ثلاثة كيلوغرامات من الذهب أو أكثر. إنها فدية لابنتي إن لم يقتلوها بعد.

نظر الراعي إلى الصرّة وأطلق تنهيدة طويلة:

- إنه فدية كبيرة. نشتمان عند أميرهم. لأنها...

- .. لأنها صبيّة حلوة.

نهض الرجل وأشار لسربست بالنهوض:

- سنقضي الليل على جبل عرفات، لدي ما أقوله، لدي أفكار

كثيرة حول نشتمان.

كان الغروب يضي ظلالاً كثيرة متشابكة على المعبد فغرق في غيمة برد نيسانية، وكان الكثيرون من الشباب الناشطين خرجوا من المعبد، وانفضّ طقس التعميد واحتفالية الأهالي بينات

لايش المعمدات في العين البيضاء.  
كان مطرٌ خفيف ينقط على الأشجار العالية، فيغسل أوراقها  
العريضة فيما كان المساء يتقاطر بهدوء وصمت.



## الراضوع / ١

### 1

قبل حلول المساء أخرج أمير الأمراء الشيخ المجاهد السبعيني أبو العينين، بهزاله الواضح الذي حوله إلى كائن رفيع ومشوّه؛ بشعر منفوش من كل جانب ولحية متطايرة وأنف طويل مائل كمنقار مكسور؛ بعد ثلاثة أشهر من مكوثه بردهة أميرية في مستشفى المدينة، عانى فيها من حمى متصاعدة وهذيان مصحوب بحشرجات، ونبضات قلب غير مستقرة، وخدر في أطرافه اليسرى، وهلوسات مستمرة ورؤى غريبة يناجي بها السقف الحلبي الأملس على مدار يومه، حتى همس طبيبه الحلبي لنفسه خائفاً: إما هذا مجنون وإما نبي جاء بالغلط إلى هنا! وخشي الحلبي على نفسه حتى من هذا الهمس الباطني الذي قد يقوده إلى الموت في لحظة لا يستطيع الإفلات منها. معاونوه من الممرضين ينقلون له رؤى أبي العينين، وهلوساته وحديثه مع سقف الغرفة بصوت عالٍ، لكن من دون أن يفهموا ما يقوله، كما لو يكلم أشباحاً متخفين، أو ملائكة لا

يرونها، وحظي الطبيب الحلبي به مرة واحدة حينما وجده يتمم مع السقف، ويرفع أصابعه العليّة إليه وينادي كائناتٍ غير منظورة، كمن يطلب المساعدة منها لإنجاز شيء ما. وقتها جمد الحلبي في مكانه ليشهد حادثة السقف، وملائكته غير المنظورين، أو أشباحه المتخفّين في زوايا لا يعرفها في المكان.

كان الطبيب الحلبي- الذي أُجبرَ على مرافقة المجاهدين في غزوة الجزيرة، واحتلال سنجار- قد حقنه بالمغذيات وبعض المقويات والفيتامينات وأقرص تخفيف الحمى المذابة بالماء، وسهر كثيراً على صحته وقتاً طويلاً؛ فالتوصيات المترددة التي لم تنقطع يوماً من أعلى الهرم في الموصل والرقّة أنهكت الحلبي، وصدّعت رأسه عن هذا المجاهد المشهود له بالولاء المطلق لتنظيم دولة الخلافة الإسلامية، وشارك في كل معاركها في حلب والرقّة والموصل وسنجار والفلوجة وتكريت وبيجي، وتدرج في مناصب كثيرة حتى عُرف بأنه ذبّاح نادر، يقطف رؤوس أسراه بلمح البصر، حتى لو كان بأصابعه، وله الجرأة من أن يملص رؤوس الأطفال كما يملص رؤوس العصفير بيديه، من دون الحاجة إلى سكين، لذلك شكّل الحلبي؛ متردداً وخائفاً؛ فريقاً صغيراً من مساعديه القليلين لمراقبة وضعه الصحي طيلة الأيام الماضية، ومراقبة الهزال غير الطبيعي له، في محاولة تغذيته المستمرة، وفحصه العام بين ساعة وساعة، وأخذ عينات من دمه وبوله وخرائه للمختبر الوحيد في المستشفى.

تمت العجوز مجزبًا صوته القرآني بعد غيبوبة أيام لا يعرف عددها:

- المرصّ امتحانٌ منَ الله عزَّ وجلَّ لصبرنا على المكاره،  
وتحملي أوجاعها.

طمأنه الحلبي إلى حد ما بعودة صحته إلى سابق وضعها، لكنه شدّد عليه أن يكون طعامه نباتيًا بلا لحوم ولا دهون ولا رز، وأن لا يمارس الجنس خلال فترة النقاهة فيعرض قلبه للإجهاد، كما أوصاه بالمشي الصباحي والرياضة الخفيفة، ويتجنب أكل الحلوى ما أمكنه ذلك، ويقنن شهيته للفاكهة بأن تكون حبة يرتقال واحدة في اليوم أو تفاحة أو غير ذلك، وأن يخفف من عصبيته، فعمره يحتاج إلى هدوء وراحة بال.

تدور عيناه الصغيرتان حوله بضيق، ونفّسه لا ينتظم كما لو عاد قبل قليل من جري طويل، لكنه كان مصرًا على الخروج من المستشفى، شاعرًا بتحسّن كما كان يردد للطبيب الحلبي الذي ظل يُعيد عليه التوصيات الغذائية، وهو يقرأ بالتقارير المختلفة المعروضة أمامه.

- الأمانُ والصحةُ والسلامةُ منَ الله عزَّ وجلَّ.. أشعرُ بتحسّن..

أخرجني إلى بيتي ونسائي.

أنهى الطبيب الحلبي قراءة كل الملاحظات المتوفرة على طبلته المرضية فعاد بوصيه:

- أوصيك يا شيخ أن تكثر مي وثرَب عصير، ما فيو سكر  
زيادة، يعني شاي بلا سكر ولا تقرب عالكاوزو أبداً. وتكون  
منيح ع طول وتاخذ رياضة.

لاح شبح ابتسامة على وجهه:

- لا عَصائِرَ ولا هُمَّ يَحْزَنُونَ.. اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى أهداني إلى  
حليبِ العَذاري مِنَ الصبايا الجَواري ما يُغني عَن كُلِّ سوائِلِكُمْ.  
عاد الطيب الحليبي يقول كما لو أنه اقتنص فرصة ما في  
رأسه:

- أنا بعرفُ أنك تطعم حالكَم بحليب العذاري الفترة الماضية.

ردد العجوز بخفوت:

- إنه شفاءٌ ودواءٌ وغذاءٌ من اللهِ سُبْحانَهُ وتعالى.

حك الحليبي رأسه وقال متسائلاً بحذر:

- عجب بتحسو أنو حليب البنات بشبع بطنكُن؟

كان أبو العينين يهز رأسه ويشيع ابتسامة خافتة على وجهه،  
فأكد على نحوٍ واضح أن حليب العذاري هو الذي جعله  
صامداً طيلة الأشهر الثلاثة الماضية، بعدما فقد شهية الطعام،  
وأن رضاعته من حُلُمات الصبايا جاءت إثر حلم حضر فيه  
الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وأوصاه بحليب العذاري..  
أني أوصيك يا مجاهد بحليبِ العذاري فهو الدواء وهو الشفاء.  
زَمَ الطيب الحليبي شفتيه وأحنى رأسه قليلاً متممًا: اللهم صل  
على محمد وآل محمد ناظرًا إلى المجاهد المريض بعين الشفقة:

- وبتحس أنو هالحليب إلو طعم خاص؟  
فتح أبو العينين عينيه قليلاً، وطيف ابتسامة مريضة على  
وجهه الممصوح:

- إنه طعمُ الجنةِ يا حكيم.

فوجئ الطبيب الحلبي بجواب مريضه لكنه استدرك يتساءل:

- واش هو طعم الجنة.. شوقتني يا مجاهد؟

وسَّع أبو العينين من عينيه فبدأ وجهه النحيف يعلوه شعر  
منفوش كأنه فزاعة طيور:

- عندما يَصِفُ لَكَ رسولُنا المُصطفى دواءً لا يخطرُ على بالك،  
فهذا يَعْنِي أَنَّهُ يَبْشُرُكَ بِالْجَنَّةِ.

وجد الحلبي أنه في خانق ضيق لا يستطيع تفسيره:

- عجب شقد درست يا شيخ ما سمعت عن حليب العذارى!

- أنتَ درستَ في الغربِ الكافرِ يا حلبي وهذا مِن الطبِّ  
النَّبويِّ الذي يتحاشاهُ الغربُ الكافر.

رد الحلبي بتسليم:

- تتهنا بالجنة يا شيخ وتتهنا بهالحليب.

قال العجوز وأنفاسه تتصاعد كما لو يشم رائحة معينة وهو  
في حلم:

- ياااه.. ما أطيبَ حليبهن.. يكفيك أن ترضعَ ثدياً صغيراً  
في الصباح، لتبقى إلى المساءِ لن تجوعَ وتعطشَ، فتشكرُ اللهَ  
ورسولَهُ على هذهِ النعمةِ الفضيلة.

تساءل الطبيب بمكر وهو يرفع عن ساعده إبرة قنينة  
المغذي الذي يكاد ينتهي:

- والله هيدي أول مرة بسمع إنو بزاز البنات فيون حليب!!  
- هههههه

ضحك أبو العينين بصعوبة، وهو يميل برأسه ليرى وجه  
الحلبي فبان ما تبقى من أسنانه الصفراء، كما لو رُكبت على  
جمجمة:

- خُلْ إيمانك قويا بالله سبحانه وتعالى ورسوله المصطفى  
صلى الله عليه وسلم، فكلما قوي إيمانك بالله ورسوله الكريم  
وجاهدت في سبيلهما؛ ستجد عجائب الخالق في كل مكان وكل  
وقت من حيث لا تدري ولا تحسب.  
- آمنت بالله ورسوله المصطفى الأمين.

تمت الحلبي واستعجل بكتابة تقريره الأخير عن حالة المجاهد  
أبي العينين، ومنحه عشرين يوماً كإجازة مرضية، لا يمارس فيها  
نشاطاته اليومية التي لا يعرفها. وحاول الحلبي أن لا تظهر نبرة  
التهمك في صوته وهو يقول:

- عجب إذا شفت حالك منيح مع بزاز الصبايا لا تحتاج  
للمراجعة يا شيخ.. ميني السلامة.

أشار إلى موضع في الورقة الأخير وقربها إلى وجه العجوز، ووضع  
قلم بين أصابعه ليوقع عليها بخروجه على مسؤوليته الشخصية.  
ابتسم الحلبي في وجه الجمجمة وساعده على النهوض.

### 3

مرافقو أبو العينين كانوا قد سهروا على راحتته الأشهر الفاتئة من دون نوم، وكان بعضهم يتلقى اتصالات الخليفة أبو بكر البغدادي بنفسه، وينقل له الوضع الصحي للمجاهد العجوز أولاً بأول، لهذا كانت غرفته البيضاء معبأة بالمضامين المتطوعين، ومتطوعات النكاح الإسلامي من صبايا تونس والسعودية وسوريا وفلسطين والشيشان وبريطانيا وأفريقيا والأطباء المناوبين والمجاهدين الزائرين ومحبيه من الخط الأول للمقاتلين في سرايا الحماية المدافعة عن المجاهد أمير الأمراء، وحاشيته، وزوجاته الكثيرات من الأسيرات السنجاريات والمسيحيات وبعض الشيعيات اللواتي تخلفن عن الهرب يوم عاصفة داعش بدخولها المدينة.

### 4

استقبله حشد غير قليل من المجاهدين وهو يمشي مترنحاً، بجسده الذي كشف عن هيكل عظمي مغطى بسروال فضفاض، تتقدم وجهه الممصوص لحية بيضاء طويلة تخالطها بقع سوداء زعفران كأنها آثار تدخين مزمن، متوزعة بعشوائية وقد طالت أكثر مما يجب، وبدا شعره المنفوش كما لو قد خرج قبل قليل من عراقٍ مع آخرين، فيما برز منقار أنفه طويلاً ومعقوفاً أكثر مما يجب. وكانت جمجمته تحت غطاء

شعره الطويل بارزة بوجهٍ ضعيف ومفكك، فهرع إليه الكثيرون وعانقوه وقبّلوا يده النحيلة؛ وشبح ابتسامة متخاذلة حاول أن يحافظ عليها وهو يتلقى التهاني المتتالية من المستقبليين، مستعينًا بمرافقيه الذين يسندانه من اليمين واليسار، ليستقيم قليلاً ويصافح مستقبليه الذين تلقوا التعليمات الفورية من مكتب الخليفة في الموصل، أن يكونوا في استقبال المجاهد أبي العينين عند عتبة داره ذات الطابقين.



## لست حيوانًا ولا إنسانًا

من أعلى الجبل الغاطس بالظلام النيساني البارد، يبدو المعبد  
كثريا مضاءة وسط ظلام من الشجر والمطر، وتحددت مساحته  
بسلسلة أنوار بيضاء ثلجية لامعة يتناوب وميضها، كما لو  
يتحرك كلما كانت الأغصان الكثيفة تميل بفعل الهواء وندف  
المطر المتفرقة، لتحجب الرؤية بين لحظة وأخرى عن الرجلين  
الذين جلسا تحت شجرة في الهواء البارد.

قال راقئار:

- ربما تتذكرني يوم كنتُ طالبًا في جامعة بغداد.

فرك الرجل رأسه:

- إنه زمن بعيد.. لكنني أتذكرك بشكل واضح.

- نعم بعيد. لكن الحياة كما يبدو أصغر من أن نتصورها.

مرّت علينا وسحقتنا بوحشية نحن الأيزيديين.

هز رأسه وعيناة ساهمتان على أضواء المعبد الذي بدا أكثر  
إشعاعًا بعد تقاطر الظلام، وهو يستمع محاولاً أن يستذكر مع

الراعي ما مضى:

- أكملتُ البكالوريوس في كلية الحقوق في جامعة بغداد،

وكنتُ مهياً للماجستير، فمعدلي كان جيداً، لكنني هربت من التجنيد الإلزامي وقتها، وبقيت في الجبل سنوات طويلة هارباً من الرفاق الحزبيين من دون أن يعرف أحد مصيري سوى والدي ووالدي رحمهما خودا.

قال الرجل كما لو يتذكر حقيقة قديمة:

-.. شاع وقتها بأنهم أعدموك!..

تحرك رأسه وهو يحاول التقاط تلك الذكرى البعيدة:

- ربّنا خبر إعدامي ليكفوا عن مطاردي في المدينة، لكنني

بقيت مختفياً حتى انتهت الحرب.. و..

ضحك قليلاً كما لو يهين الرجل لمفاجأة:

- و.. وعدت في نهاية الأمر من إعدامي حيناً أرزق ههههه

وحتى يقطع خيال الرجل أضاف:

- ادّعيثُ أنني كنت مسجوناً في استخبارات بغداد، وبقرار

إعدام مع وقف التنفيذ كمكرمة من الرئيس، وحينما انتهت

الحرب واصل الرئيس مكرمته على العبد الفقير رافيار فأفرج

عنه.

قال سرّبت وهو يستعيد شيئاً من ذاكرته:

- كنتُ وقتها أعمل مهندساً في دهوك لكن أتذكر أنني

سمعت بهذا.. وكنت أفتقدك بالفعل.

- آويت إلى الجبل لسنواتٍ طويلة، ذقت فيها المرارات والآلام

التي لا أنساها، حتى تحولت إلى كائن غريب تقريباً، آكل

الأعشاب والثمار والأوراق في المواسم كلها حينما ينقطع عني  
والدي والرعاة والمهربون، تحملت كل هذا كي لا أموت بلا  
سبب ولا معنى.

هففت أوراق الأشجار بتساقط نثيث من المطر، وكان الرجل  
يسترسل كما لو وجد أن به حاجة لأن يفرغ ما ب صدره من  
ذكرى مريرة:

- تلك سنوات قاسية ومرعبة فعلاً، ضاع فيها مستقبلي  
وضاعت حياتي، لا يكالوريوس ولا حلم بالمماجستير. ثماني سنوات  
وأنا أعيش مع الذئاب والكلاب والمهربين والرعاة ولصوص  
الحدود.

بقي يديم النظر إلى أفق مظلم مرقش بأضواء المصابيح:

- كنت أنتقل من مكان إلى مكان، ومن كهف إلى كهف، ومن  
مغارة إلى مغارة، ومن حفرة إلى حفرة، حتى لا يلقي الرفاق  
القبض عليّ فتحولت إلى كائن آخر.

أوضح بطريقة الدفاع عن نفسه:

- لستُ حيواناً ولكنني لست إنساناً وقتها.

طقق أصابعه ومضى يتحدث بهدوء:

- عرفت الجبل وطرقه ونياسمه وممراته وكهوفه ونوره  
وظلامه وشروقه وغروبه وأشجاره وأعشابه وعيون الماء فيه  
وشلالاته ووحوشه وطيوره وعصافيره وفراشاته.

صمت قليلاً كما لو يريد استدراج ذاكرته:

- حفظت ممرات وأوجار الذئاب والضباع والدببة والسباع،  
تعابشت مع أصوات الليل فعرفت معنى الخطر في الظلام  
ووحشته.

انتبه الرجل إليه أكثر:

- أكلت أوراق الشجر والتمر والأغصان الخضراء الطرية، وحتى  
الحجر، وبقيت كل سنوات الحرب متخفيًا مثل كلب مطارد.  
قاطعته الرجل ربما ليقطع عليه ذكريات موحشة بدأ  
يستحضرها بطريقة غير مقصودة:

- وكيف احتملت كل تلك العزلة.. كيف واصلت الحياة؟

- تعرفت على كل صغيرة وكبيرة في الجبل، وحفظت سفوحه  
وانحداراته وصخوره ووديانه، وقادتني خطاي إلى كل مأوى  
ومغارة وكهف فيه، شأني شأن الدببة والذئاب والضباع وبنات  
آوى والأفاعي والطيور الجارحة، وتآلفت مع فصوله القاسية لا  
سيما شتاؤه الفظيع وثلوجه التي حفرت بجسدي آثارًا كبيرة  
باقية حتى اليوم جامدة توخزني كنصال تجرحني في أي وقت.  
تمت الرجل بأسى:

- الحاضر أكثر قساوة ورعبًا وألمًا.

سرح الراعي نظره في الظلام والتقط أضواء المعبد السفلية  
تحت الجبل وواصل كلامه بهدوء:

- نعم هذا صحيح. لكن الرعب الذي لاحقني إلى اليوم سببه  
الرفاق، وسببته الحرب والعزلة الطويلة التي فقدت فيها أهلي

ومستقبلي وشبابي. فتحولت من إنسان إلى حيوان أرعى مثل الأغنام والتيوس والكلاب والذئاب صيفًا وشتاء.

التفت إلى صديقه:

- حينما تعيش في غابة، ولا ترى إنسانًا تتحدث معه تتحول تلقائيًا إلى حيوان، وتستشري فيك الروح الحيوانية بشكل لا إرادي وهذا يعني أنك في قتال وصراع مع كل شيء وعليك أن لا تُفاجأ بأي شيء لأنها سريعة وسُنَّة.. غابة قاسية لا يمكن أن تتصورها.

بدا التأثر النسبي على الرجل وهو يصغي:

- تعرضتُ إلى كل شيء يخطر ولا يخطر على بالك، وكدت أموت عشرات المرات، لكن كنت أخلص نفسي بأعجوبة أو مصادفة وأحيانًا قليلة بحكمة؛ فحياة الغابة لا تستوجب حكمة كبيرة، لكن تستوجب فطنة وفطرة في الدفاع عن النفس بما يتاح لك من سلاح، حتى لو كان غصن شجرة يمكن أن تنقذك من محنة كبيرة.

تساءل الآخر كما لو يستكشف صديقه القديم:

- أما ندمت وقتها، وأنت تتعرض لهذه المخاطر في غابة جبلية، أقل ما يقال عنها مخيفة بوحوشها؟

بدا راقيار كأنه مستعد لأن يفيض بالحديث:

- اعتراني مثل هذا بين فترة وأخرى لكنني كلما أتذكر الحرب والموت والإعدام أتردد وأخاف بشكل جدي، أنا إنسان حر

فلماذا أموت من أجل قضية لا علاقة لي بها، بل قل من أجل  
لا قضية برأيي، فلماذا يذبحوننا من أجل صراعاتهم الشخصية  
والمذهبية؟

تطشر المطر الناعم على سقوف الأشجار بعدما حركته رياح  
خفيفة، جعلت الرجلين يلصقان جسديهما في جذع شجرة  
متوارية في الظلام البارد، بينما كانت أصوات غامضة تنبعث  
من سقف الجبل لطيور وحيوانات صغيرة:

- قد تكون البداية صعبة فعلاً، لكنها كانت كافية لأن تجعلني  
أتقبّل واقع الجبل وغاباته وحيواناته التي أعرفها، والتي لا  
أعرفها من الكواسر إلى الطيور الأليفة وحيوانات الخيال التي  
كنا نخافها في طفولتنا كالهرجي<sup>(6)</sup> وسواها. كنت على يقين  
داخلي بأني سأنجو، ولن أكون جندياً في الحرب، ولن أموت في  
الجبل وأنني سأحيا.

تنهّد وأكمل:

- لكن لم يدُر بحسابي بأنني سأحيا لأشهد حيوانات بشرية  
تحتل مدينتي وتفترس نساءها وأطفالها ورجالها.  
أطلق تنهيدة قوية في وجه الرجل:  
- بصراحة هذا كان بعيداً حتى عن أكثر الخيالات سوءاً.  
لكنه انتبه. وغلالة ماء تترقق في عينيه:

- راح الماضي كأى شيءٍ قذرٍ في حياتي، لا عليك، لنكن شجعانًا في آخر الأمر فالشجاعة هي أن لا نسمح للماضي أن يتكرر للسبب نفسه .

تفتحت عينا سربست وهو يرى صديقه المثقل بالهموم القديمة وملى وجهه العريض وقامته المتكومة العضلة، ف شعر بنوع من الألفة تجتاحه.

- لا عليك.. ابنتك ليست نهاية المطاف لكنها تلخص بشكل من الأشكال الظلم العظيم الذي وقع على بناتنا الأيزيديات. تدرجت دمعة من عيني سربست لم يستطع كتمانها في محجره الذابل، لكن الآخر لم يكن يراها.

- سنفعل المستحيل، و عليك أن تكون معي في رحلة حرجة وخطرة قد لا نعود بعدها، أو نخلص نشثمان، وبعض البنات الأسيرات معها.

اكتفى سربست بأن هز رأسه وحاول أن يمك دموعه لكنه لم يستطع.

- تهيأ لرحلة الأيام السبعة وعبور الجبال السبعة لإنقاذ الشرف الأيزيدي من أعداء الله والإنسانية.

تعانق الاثنان ونشجا بصمت، وكان الليل النيسانى بارداً، ومعبد لاليش ما يزال يشع بالأضواء التي تشبه ثريات بيضا صغيرة بعيدة.

## قطعة أرض في الجنة / مقطع عرضي

كما تنتظم الغربان السود على أسلاك الكهرباء، انتظم طابور شباب بزّي أسود يرفرف على أجسادهم تحت هواء حار في الباحة الخارجية لمكتب المفتي الحاج وعد الله، ومع الوقت البطيء كانت بعض السيارات المكشوفة تقف وتلقي بضعة أنفاسٍ منهم، ليزداد طول الطابور كلما أوغل الوقت في الظهيرة، خارجًا من باحة المكتب إلى الفضاء، ثم ينحني تلقائيًا وينكسر خط الغربان تحت فيء الحائط، ويميل حد الالتصاق به كلما زاد عدد المتقدمين، وطالبي قطعة أرض في الجنة من الحاج وعد الله، بعد تقديم أوراقهم المطلوبة من شهادات قتالية جهادية حقيقية، وتزكيات أمرانهم وقادتهم.

في آخر الطابور تأفف أبو أنس السعودي وهو يقول لصاحبه بأسى:

- فشلتُ مرتين في الحصولِ على فرصةٍ لقاءِ المفتي وتسجيلِ اسمي، جنت متأخرًا.
- رد الآخر بالأسى ذاته:
- وأنا للمرة الثانية. يبدو علينا أن نُبكر في المرة المقبلة.



- لنتظر عسى الله أن يهبنا من عطفه شيئاً يسيراً.

في مقدمة الطابور المتشابه بالسواد والداخل في عمق البناية تقدم أحد الفتیان بوجهه الأسمر، ولم يستطع إخفاء ارتعاشاته، مثلما لم يستطع إخفاء فرح محتمل على وجهه، وهو يسلم على المفتي ملفوف الرأس بعمامة سوداء انسجمت مع سرواله الأسود وقميصه الأسود.

وقف الفتى ووجهه الفأري يتسم ويختلج، وما يزال جسده الصغير يرتعش، حاملاً بيده ورقة مغطاة بغلاف نايلون، وهو يرتجل سيرة سريعة كما هو مطلوب منه:

- اسمي عثمان نواف.. والدي أوصلني إلى حلب عن طريق تركيا ثم إلى الموصل، وشجعني على أن أكون مجاهداً في سبيل الله ورسوله، وأنا في إمرة دولة الخلافة الإسلامية مجاهداً ضد الروافض والنواصب والكفرة الأيزيديين، وهذا الملف مزكى من القائد جهادي المتواضع في سبيل الله، والمعارك التي اشترك فيها، وعدد الذين ذبحتهم لنصرة دولة الخلافة الراشدية.

نظر المفتي إليه بوجه مفتوح يتسم لكن الفتى استعجله:

- عسى الله سبحانه وتعالى أن يهبني من خلالكم، ولو قطعة أرض صغيرة في الجنة.

وسّع المفتي من ابتسامته:

- الجنة لكم يا شباب الله.

ارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه الفتى السعودي، وهو

ينظر بفرح طغى على وجهه إلى المفتي الذي أخذ يقلب بأوراق أخرجها من ملف النايلون، وبدأ يقرأ فيها ويهز رأسه مستحسنًا فيما الفتى يشدُّ على أطراف أصابعه منتظرًا.  
- لك الجنة يا عثمان.

هب الفتى متخرج الوجه وهرع يقبل رأس المفتي:

- أنت من المُبشِّرين فيها يا ولد.

- الحمد لله.. الحمد لله كثيرًا

- سارفع أوراقك إلى القاضي الشرعي، وهو يقرر المساحة التي سيمنحها لك الله سبحانه وتعالى في الجنة.

دمعت عينا الفتى، وهو يتشبث برأس المفتي ويكثر من تقبيله، ويردد الحمد لله الحمد لله اللهم صلِّ على محمد وآل محمد.. الجنة.. الجنة..

خرج راکضًا بهستيريا كغراب مفزوع، فلحقه البعض، وتشبثوا بأذيال سرواله وطرحوه أرضًا يباركونه ويقبلونه ويشمّون به ريح الجنة المقبلة.

بكى البعض الآخر متأثرًا بهذه النتيجة العظيمة التي مُنحت للشاب وهو يستعيد جسده من رفاقه بوجه اختلطت فيه الألوان، يرد على مباركة أصحابه، ويتمنى لهم قطعة أرض في الجنة تشابه قطعه التي سيقضي بمساحتها القاضي الشرعي قريبًا.

- لو أحصل على متر واحد في جنة الله.. نياك يا عثمان.

لم يستطع الفتى ضبط فرائضه المرتعدة بالفرح بين الجموع التي تركت الطابور وأحاطته من كل جانب، لكنه كان يسمع أصواتًا كثيرة تهنئه، وتتمنى لها أمتارًا وأشبارًا في جنة الله الواسعة.

صاح المنادي بالهدوء والانتظام بالطابور ليدخل رجل جديد إلى المفتي، وهو رجل نحيل ذو لحية مسترسلة في ساقه عرجٌ واضح، معصوب الرأس بيشماع حالّ لونه كثيرًا فبدأ بلون التراب.

قدم الأوزبكي أوراقه إلى المفتي، ولم يستطع إخفاء ارتعاشة جسده النحيل، فقلّب الأخير أوراقه وانهمك يقرأ بدقة ويقلّب الواحدة تلو الأخرى والأوزبكي جامد كما لو ينتظر أن يكلمه الله نفسه بعد قليل.

- بارك الله بك أيها المجاهد المهاجر.

ثم نظر إليه بعينين ثابتتين:

- كل شيء في أوراقك مقبول يا مجاهد.. لكن في الفقرة الثالثة..

قلّب المفتي ورقتين وأخرج الثالثة وقال:

- لم تذبح كثيرين.. عشرة لا يكفي يا أخ الإسلام.. ولم يسجل

في أوراقك أنك ذبحت أيزيديين كفره، وأنت بينهم في سنجار..

هذه نقطة تُحسب عليك.

تبلد وجه الأوزبكي قليلًا، وحين همّ بالتبرير سبقه المفتي

وهو يعيد الأوراق إليه:

- كتبتُ ملاحظة إلى قائدك، وعليك بتطبيقها كما هي، ثم

يكتب قالدك بأنك أنجزتها وستكون قطعة الجنة بانتظارك..  
بارك الله بك.

خرج الأوزبكي يجبر ساقيه جرًا، ملبد الوجه وقد تبدلت  
ملامحه كثيرًا كمعارب منهزم، وهو ما انعكس على طابور  
المنتظرين الذين انتقلت الكأبة إليهم حينما رأوا الأوزبكي  
كالتالي، وهو يخرج من غرفة المفتي، لكنهم طيبوا خواطره  
واحتضنوه بينما انبرى أحدهم شائطًا:

- عشرة مذبحين لا تكفي يا أوزبكي.. سبق وقلت لك هذا.

ثم وكأنه يوجّه الخطاب لغيره:

- يا أخوة الإسلام! الحصول على قطعة أرض في الجنة تقتضي  
ذبح ما لا يقل عن عشرين كافرًا أو مرتدًا من النواصب  
والروافض، لا تؤخروا أنفسكم عن هذا العطاء الرباني والكفرة  
حولكم من كل مكان.

عاد الهدوء النسبي إلى الطابور بعد انتصاف النهار بشمس  
عمودية، فيما انسحب عدد غير قليل من طالبي قطعة أرض  
في الجنة عندما راجعوا الأوراق بين أيديهم، لا سيما الفقرة  
الثالثة، وكان أحدهم يتمتم بصوت مسموع:

- بقي لي اثنان.. يا رب.. الجنة.

وهمس آخر:

- مَنْ سعيد الحظ الذي سيحصل على شبر واحد في جنة  
الله تعالى.

هدأ الجميع وهم يتشاورون بعد خروج الأوزبكي منكسراً، وعادت السعادة طافحة بينهم، وأخذوا يحيون بعضهم بلهجات ولغات مختلفة، ويتقاربون متحدثين عن السماء والجهاد والأعداء والكفرة والحوريات اللواتي سيستقبلن المجاهدين بأجسادهن الناعمة، وعطورهن السماوية، وشهوتهن التي لا نظير لها على الأرض.

قطع اللغظ الخفيف السائد بين المحشورين في الطابور صوت «أبو هاجر» مجهول النسب والهوية ومسؤول التجنيد إلى الجنة، حينما خرج بسمرته القاحلة ولحيته المتسافلة كثيراً:  
- أيها المجاهدون؛ لا تَضْجروا من الانتظار، تذكروا أنكم ستقفون بين يدي الله سبحانه وتعالى وقتاً سيطول عليكم كأنه الدهر الأسود قبل أن يحاسبكم رب العزة والجلالة..  
ران صمّت مهيب على الوجوه المتطلعة إليه:

- سنوزع قطع الجنة للمجاهدين في سبيل الله بالتدرج الجنة واسعة كسعة السموات والأرض ولكل منكم نصيب فيها، اضربوا علينا يا أهل الإيمان، فإن هذا امتحان الدنيا قبل الآخرة.

صاح الجميع: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

تورد وجهه وزادت سمرته وهو يتطلع إلى وجوه الفتية والشباب التي يعتمرها الحماس الصادق:

- يا أبناء الله الواحد الأحد الصمد.. الجنة كبيرة وكبيرة

ولكمو فيها أجرُكم إن شاء الله تعالى.. أنتم جنودُ الجنةِ  
وفتيانها وشبابها ولكمو هناك فيها قصورٌ وجواري وحوورٌ عين،  
ولا يعلمُ إلا الله جلَّت قدرته ما هي الفضائلُ الربانية التي  
ستكونونَ عليها من عزٍّ وجاهٍ وتقدير بينَ أهارِ العسلِ واللبنِ  
والخمرةِ الإلهية اللذيذة.

شملت عيناه الطابور إلى آخره:

- الانتظارُ جزءٌ من جهادِكم في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ الحق في  
دولتنا الإسلامية، فلا تياسوا، لكنْ عليكمو أنْ تُدققوا بأوراقكم  
قبلِ المشولِ بينَ يدي الحاجِ وعد الله، فقطعهُ الجنةُ تبدأ من  
عشرينَ ذبيحًا رافضيًا وناصبيًا وكافرًا ومرتدًا لكلِّ مجاهدٍ، وكلما  
زادَ عددُ المذبوحينَ زادتْ سعةُ الأرضِ في الجنةِ للمجاهدِ البطل.  
صاح الجميع صيحة واحدة هزت المكان هزةً عظيمة:

- الله اكبر.. الله أكبر.. الله أكبر

## من دعاء السفر الأيزيدي

### دوعايا ثوغري

طريق الحق بعهدة حامي الطرق	رييا حه قىي قه نديلا تزي خيرو
إذا كان جبلاً أم صحراء	هه كه جييايه وهه كه به ريبه
التماسنا ورجاؤنا هو الشيخ آدي	ده ستي مه لدانكو دامانا شيخادي
والمملك الشيخ حسن الآدياني	ومه لك شيخ سنى ئاديه
أن نذهب بالسلامة من هذه الأماكن	ئه م بسلفى
ونأتي بالسلامة من تلك الأماكن	وسلامه ت يزفان جييا
لتلك الأماكن	بجين هزا جييا
ونأتي بالسلامة من تلك الأماكن إلى	ئه م ب ساغى وسلامه تي زوان جييا
هذه الأماكن	بينه فان جييا

## جبل الغزلان / ١ الأربعاء الأحمر<sup>(١٧)</sup>

### 1

تكدست الأغنام والخراف المشطبة باللون الأحمر على الضفة القريبة من نهر فيشخابور، بعد مشوار غير قصير اختاره راقبان بعيداً عن مرصد البيشمرجة ودورياتها المحتملة، فشكّل القطيع ظهيراً صوفياً تتقاسمه الشطبة الحمراء بخطوط مجرورة وغير مستوية، يتقدمه المرياع الضخم بقرنه المكورين وصلصلة جرسه المعلق على رقبتة، وكان الرجلان يحيطان بالقطيع من

---

17- الأربعاء الأحمر أو سرسال؛ عيد رأس السنة، يسميه الأيزيديون «الأربعاء الأحمر» و يصادف أول يوم من شهر نيسان الشرقي الذي يتأخر عن التاريخ الميلادي الغربي ثلاثة عشر يوماً ويعدّ أقدم وأقدس عيد بالنسبة إلى الأيزيديين. ويرجع الباحثون أن بتسمية «الأربعاء الأحمر» تعود إلى زمن إمبراطورية ميديا، حيث يقال إن معركة كبيرة نشبت في مثل هذا اليوم وأريقّت دماء كثيرة، وبعد أن انصر الكرد، وانهمز العدو، سادت البهجة على الشعب الميدي آنذاك، وأضيفت كلمة أحمر نسبة إلى الدماء الكثيرة المهدورة في المعركة.



طرفيه محاولين تقليص المسافة في أقل مساحة وتيسير عبوره إلى الضفة الأخرى، ومتابعة الرحلة الطويلة عبر القمم الضبابية المتصاعدة والقرى المنعزلة الضائعة في بطون الجبال، ليرسما قوسًا طويلًا وبعيدًا ستكلفهما سبعة أيام وسبع قمم كما خَمَنَ الراعي حتى يلتحقا بالجانب الشرقي لسنجار.

تطوع بعض الشبان الكلدانيين المتسكعين بين أشجار البلوط والجوز، وطاردوا بعض الأغنام السائبة وحشروها ضمن القافلة المتجمعة، وأشاروا إلى الجسر الخشبي الذي تعبر منه الشاحنات التركية بعد كتلة الأشجار العالية المطلة على النهر. وهو ما يعرفه الراعي المثقل بأحماله حينما سار بالقطيع بخط طوي على الساحل الطيني، متجاوزًا كنيسة قديمة بلحيته الكثة وحاجبيه الغليظين وشعره المسترسل المفتول كالجداول، وهو معبأ بالثياب المتداخلة، وحقية القماش متدلية على كتفه مع صُرر أصغر تملأ زيقه، تطوق عنقه قلائد خززية وصدفية وعاجية، تتدلى على صدره مع الشراشال<sup>(١١)</sup> الطويل الذي لا يتخلى عنه، حتى بدا وكأنه كاهن أسطوري، خرج من إحدى الكنائس ليؤدي دورًا ما في مكان غامض، وينشر الفضيلة حيثما كان هناك. وهو ما يقوله شبّان نهر فيشخابور سرًا ويتضحكون كلما يمرّ الراعي الموسمي بأغنامه من هذا المكان، ويعبر

سلسلة الجبال الطويلة، التي يغلفها الضباب في هذا الصباح.. يا  
عم كالك الحمزة في فلم الرسالة هههههه

يتبعه في آخر القطيع سربست بطوله النحيف كأنه رجل  
مريض، تتدلى شواربه الفوضوية الثخينة غير المنظمة على  
وجهه كتيب، وقد شد رأسه بيثماخ أحمر حتى حدود حاجبيه  
اللتين يخالطهما بياض كشخبطات الطباشير، رابطاً وسطه بحزام  
عريض وهو يدفع النعاج المتأخرة بعصاه التاريخية؛ عصا  
الشهيد عيدو<sup>19</sup>؛ لتنضم إلى القطيع المتعثر بين أطيان الجرف  
والأغصان المقطوعة العالقة، فيما بقي الشبان يساعدون الرجلين  
للوصول إلى الجسر الخشبي، وهم يهشون على القطيع لحثه  
على الجري السريع، ومحاولة إبعاده عن أن يطمس في الطين  
والغرين على الجرف المتعرج.

تساءل أحد الشبان وهو يقترب من الراعي الأسطوري:

- منذ فترة طويلة لم نمر من هنا يا عم.

- مشاغل الحياة كثيرة يا ابني.

---

19- عيدو المجنون؛ شخصية أساسية في روايتي السابقة «عذراء سنجار»، وهو عيدو  
المجنون الذي تم حرقه حيناً في باحة جامع سنجار، تظهر عصاه على نحو ما في  
هذه الرواية عند الشخصية المركزية سربست، وهي العصا الغامضة التي دون عليها  
عيدو سحريات وطلاسم ورسومات غير مفهومة بثلاث لغات هي: العربية والكردية  
والتركمانية. وتظهر عصا عيدو بشكل رمزي وليس أساسياً في هذه الرواية.

- قطيعك كان أكثر عددًا من هذا.

- نبيع ونشتري والرزق على خودا.

تساءل شاب آخر بمكر:

- أنت تبيع الأغنام على أهل الأغنام في قرى الجبل يا عم..

ماذا تجد في الجبال؟

تدخل شاب أشقر وقال بخجل:

- تذكّرني هياتك يا عم بأنبياء الجبل الذين يغيبون زمناً

طويلاً ثم يظهرون فجأة هههههه.

ربت على كتفه وأشاع في وجهه ابتسامة ولم يقل شيئاً، سوى

أنه امتثل لهذا الوصف مختلط المشاعر، متابعاً انتظام القطيع

على رأس الجسر الذي اصطفت رؤوسه كأنها لجسد طويل

واحد يتقدمه المرياع بصلصلة جرسه الذي لا يهدأ، وفي آخر

القطيع كان الرجل الآخر يلوح بعصاه، وهو يحث الماشية

على تجاوز الجسر الخشبي المتحرك إلى السفح الجبلي المقابل،

والابتعاد عن الشارع العام والقرى المتفرقة التي تقع عليه.

## 2

كان راقيار يراقب صديقه المثقل بالحزن، ويرى رأسه الملفوف

باليشماغ الأحمر كجمرة متوقدة لا تخفت، لكنه يجد في داخله

انتصاراً أولياً لكبح الفجيعة المزمنة فيه لدخول المسالك الوعرة

غير الآمنة كثيراً وصعود القمم باتجاه سنجار عبر مساحة

ماهولة بالجبال والهضاب العميقة، والطرق المتروكة والقرى المدفونة في الوديان والسهول، بعيدًا عن دوريات البيشمركة، واحتمالات وجود قطعات عسكرية راصدة لهذا المكان المكتظ بالأشجار والمنحدرات النازلة إلى جوف الأرض.

صاح راقيار بعد أن حرر القطيع من النهر والجسر وتجاوز بعض القرى الصغيرة حتى ابتعد به إلى السفح القريب:  
- لدينا الوقت الكافي.. سبعة أيام تكفي للوصول إلى شنغال.

تردد الصدى ممطوطًا بعطيرٍ أخضر شعر به سربست، وهو يهيم بصعود السفح الدائري ويطارد نعجة انزلقت عن خط القطيع، وقلبه يخفق منذ الفجر ولم يكف عن النبض المتسارع حينما يتخيل صورة نشثمان البعيدة في غيابها الطويل، غير أنه كان يتذرع بأمل ضعيف مع هذا الصديق القديم المغامر المحكوم بالإعدام سابقًا، والغامض إلى حد كبير.

يقول لنفسه بكثير من الاطمئنان وهو يتطلع إلى الفضاء الجبلي الملون:

- يجعل الرب سره في أكثر مخلوقاته فوضى وغموضًا.

يناديه الراعي:

- ما إن نصعد الجبل حتى يعرف القطيع طريقه بلا تعب.

يظهر الجبل كلوحة مفروشة واقفة على اضلاع غير منظورة، تتكى على خلفية أشجار خضراء متكدة بطريقة متداخلة، يسندها جدار عملاق من الضباب، وبدا القطيع منتظماً بالصعود مثل دمي تحركها قوى سرية في الممرات المتعرجة الصاعدة، متفاديًا الصخور الناثثة والمسننات الجانبية التي تعترضه، والأشجار المائلة كثيراً والجذوع الساقطة، وكانت تبدو لعيني سربست كما لو أنها انعتقت من أسرها وطاشت في صعودها السريع، فحاول أن يلحق بها رافعاً عصاه على كتفه، بينما امتصت الأشجار الصاعدة هيئة راقيار الذي اندفع إلى الأعلى، يتقدم القطيع كجني جبلي مثقل بأحمال وصرر متجاوزاً عمره الستيني، داخلاً مع القطيع بين الأشجار الكثيفة الممتدة صعوداً ويغطس في الظلال الباردة.

- عند الشلال الأول نتوقف ونسقي النعاج.. سربست سربست سربست

تدرج الصدى صافياً وتواترت سينات اسمه متتابعة، وهو يرى القمة شاخصة تحت شمس الصباح بعد انزياح الضباب التدريجي، بوفرة خضرتها المائلة إلى السواد التي ملأت عينيه، فشعر بقدمين مخدرتين، وجسد غير مهياً كثيراً للصعود الشاق حينما تطلع إلى الأعلى، لكنه كان يشعر بأنه عبر جزءاً إلى الجانب الآخر من الغموض، مع الراعي الغائص بين الأشجار سوى من صوته الغريب الذي يناغي به أغنامه السارحة

أمامه، متعثرة بالصخور والمسننات المفاجئة والأشجار الساقطة والشلالات الصغيرة التي تجري سريعة من مصبات عالية ليست قريبة منه؛ بينما كان يأتيه صوت الشراشال بين فترات متباعدة ناعماً وحزيناً يملأ الفضاء الأخضر بروح تتمرأى حية في كل شجرة مقبلة وكل زهرة تفتتح في الصعود الشاق، لحظتها يشعر أن صديقه المغامر يزيد من في المكان شجناً وسراً من أسراره الكثيرة؛ فتنتابه رغبة في البكاء وتحاصره كثيراً، غير أنه يرى أن الوقت مبكر على البكاء والألم؛ وحينما نظر إلى الأسفل رأى كل شيء صغيراً ومتوارياً، ولم يعد نهر فيشخابور سوى خيطٍ ضعيف ضائع ومعه المدينة التي بدت تتصاغر كعلبة، فغمره إحساس مخيف بأن البعد يصغّر الأشياء ويبعدها عن الذاكرة إلى حد كبير، لكنه تمرد على هذه الفكرة منقاداً إلى موجات الشراشال المترددة بحزن وشجن، كأنما تحول راقباً إلى سخابة بيضاء تمر عليه، ثم تتركه، ثم تعود إليه مع القمة القريبة من السماء، حتى الفسحة العشبية المفتوحة التي قاده إليها الصوت الصادر الذي امتصته مياه شلال أبيض نازلة بهدير واضح، فهناك الراعي المبتسم الذي حولته القمة العليا إلى كائن أكثر وضوحاً، كمن تخلص من أعباء كثيرة ومزماره في يده، كما لو هو قدر جميل يصاحبه أينما يكن.

طمانه راقيار بان النزول اللاحق سوف لا يكلف وقتًا ولا جهدًا، وأن الصعود والنزول سيجعل من لحم الأغنام طيغًا في الطبخ، وعظامها تصبح كعظام الدجاج تحت النار.

- هههههه لا تتعب يا رجل فالطريق الطويل يحتاج إلى مثابرة وجدية وأمانا أيام ليست قصيرة وبلاوي متوقعة وغير متوقعة حتى نصل شنغال.

- وماذا عن لحمي يا رجل؟

- ستفتكك عضلاتك المتشنجة أولاً، ثم تصبح كعضلات الطفل رخوة وطيعة، لكنها ستكون مشدودة كرافع الأثقال في نهاية الأمر ههههه.

ترك راقيار القطيع في القمة المفتوحة المعشبة يرعى قريبًا من عين ماء تجري بخير خفيف، ومن جانبه أشجار حور طويلة، وشجيرات ملكة الجبل تتراص معها أشجار عين البلبل الناعمة بسياج لا نهاية له، حتى تهبط مع أشجار السَّماق والتفاح وأزهار البرقوق وعصفورة الوادي إلى السهل الذي يشهد رواحه ومجيئه في مثل هذا الموسم، بعيدًا عن نقاط الحدود، كمحطة استراحة قبل الانتقال إلى القرية التالية المنحدرة مع السفوح والتي بقيت أكوأها الصخرية مهجورة منذ سنتين.

- سنصل إلى القمة ثم نأخذ السفح التالي، هذا يسمونه جبل الغزلان، وهو قليل الضواري.

شمس ما بعد الصباح كافية لنشر بعض الدفء النيسانى  
 فى أوصال سربست الذى أراح جسده، ممدداً تحت عريشة  
 كروم تتدلى منها أغصان متفتحة الأوراق، بينما انشغل الآخر  
 بنزع أحماله الكثيرة المعلقة على جسده، واتجه إلى المرياع  
 كثير الصلصلة وبرك أمامه وفكّ الجرس المعلق على رقبتة:  
 ستفضحنا يا كبش. لا حاجة للجرس بعد الآن.

فك صرة صغيرة وأخرج منها بعض التين المجفف، وثمر  
 العجم المخمر، وقطع خبز وقنينة عسل داكنة اللون، وكان  
 الاثنان ينظران إلى سماء عميقة ابتعدت عنها غيوم نيسان،  
 وجلبت شبحي طائرتين بعيدتين تشقان الزرقة يتبعهما  
 خرطومان أبيضان طويلان.

قال راقيار:

- يبدو أن المعارك ستندلع قريباً.

- أعتقد هذا.. الحكومة فى وضع حرج والبشمرگة لن يتنازلوا

عن شنغال.

- يعتبروننا جزءاً منهم.

- والحكومة تعتبرنا جزءاً منها.

مضغ سربست لقمته:

- ضاع دمنا بينهم وكلهم سينفضحون بعد الحرب.

تأفف الراعي وهو يلوك قطعة خبز:



- نحن مجتمع صغير وضعيف.
- على الفور قال سربست وهو يعصر رأسه:
- قَتَلْنَا الدين. كان الأديان مبرمجة على الحروب والفتوحات والسبي والقتل.
- قال الآخر كأنه في لحظة استسلام:
- ديننا الأيزيدي مسالم، وبسيط لا يدعو إلى الحروب والقتل وانتهاك حرمان الناس.
- رد سربست وكان شيئًا مكبوتًا اندلع في أعماقه:
- إنه دين لا معنى له بصراحة!
- صمت رافيار وهو يعدّ مائدة الفطور بشكل سريع بينما واصل سربست:
- إنه دين قديم أكله الزمن يا رجل.
- كان سربست يتحدث ورافيار يتحرك بين الصرة وحقيبة القماش التي علقها على شجرة قريبة.
- لو تنظر إلى الحياة ستجدها أوسع من دين صغير ثبت أنه غير صالح الآن.
- أكمل إعداد المائدة الصغيرة على العشب وقال:
- أتفق معك ولا أتفق! لا أتفق بأن ديننا لا يصلح الآن، وأتفق بأن تطبيق أي دين بطريقة تعسفية هو معرقل للحياة.
- وماذا في ديننا يا أخي؟
- ديننا اجتماعي أكثر من كونه فقهيًا أو تشريعيًا، وأنت ترى

ان الحياة هي مجتمعات، وأي خلل فيها يعني إحداث خلل في تركيباتها النفسية، وبالتالي سيكون هناك خرق فظيع لمنظومتها اليومية.

كان سربست يجيل نظره إلى الوادي العميق:

- سبب مطاولة الدين الأيزيدي عبر الزمن هو وجود آلية اخلاقية اجتماعية تمسك الجميع بها حتى اليوم، وهذا ما أريد أن أصل إليه.

أضاف وهو يمضغ لقمة خبز مغمسة بالعسل:

- هذا العسل في فمي الآن مر.. أتدري لماذا؟

صمت الآخر وفي عينيه استفهام:

- لأن الدين في وادٍ والحياة في وادٍ آخر، أنا ضد أي دين يجعل فمك مرًا على مدار اليوم بالرغم من العسل الوفير الذي تأكله على مدار اليوم.

ضحك الراعي وهو يبعد نعجة كانت قريبة منهما:

- أنت في أزمة وأنا أقدرها ولك الحق أن تقول ما تشاء.

اعترض سربست:

- لا أقول ما أشاء.. أنا أستنتج وأفكر وأتأمل بعيدًا عن أزمتي

الشخصية.

- لكنك قبل داعش ما كنت ترى في الدين عيبًا أو نقصانًا!

تنشق هواءً باردًا استطابه وهو ينظر في عيني راقئار:

- كنت أرى كل شيء. أنا متنور من زمن بعيد. لكنني كنت

ضمن قطيع؛ مثل قطيعك هذا؛ يأكل العلف ويقضي الليل بالضرط، لذا من الصعب أن تقول لهم هذا العلف ذابل أو غير ملائم ولا يصلح للهضم.

ضحك راقيار ضحكة طويلة وقال بوضوح:

- أنت قاسٍ يا رجل.

- أرى الحقيقة بهذا الشكل منذ زمن طويل.

- وغيرك لا يراها هكذا، ما من دين على وجه الأرض يُرضي كل معتنقيه، لأننا ببساطة ولدنا أيزيديين، ولا نملك أن نكون في دين آخر.

## 6

انشغلا بالطعام وهما يتنسمان هواء القمة البارد، غير أن سربست كان يشعر أن به كلامًا محتبًا:

- يقول رجال ديننا بأن الدين الأيزيدي دين مكتوم حتى لا يفسد بالتداول ههههه بربك هل سمعت مثل هذه المهزلة؟  
- هذا ما فهمناه منذ زمنٍ طويل.

أشاح بنظره إلى أفق يغطيه بعض الضباب:

- بالكتمان أفسدوا الدين لمصالحهم.. كانت مهمتهم تجهيلنا وغلق عيوننا عن الحياة حتى لا نرى غيرهم.. ونجحوا..!  
ناكده راقيار بهرح:

- لو قُيض لك أن تولد من جديد؛ هل تكون أيزيديًا؟



وقتها عن أب يبحث عن ابنته، وصار مسلماً يصلي معهم في الجامع وكان يتنقل في بيوت كثيرة.

تأفف سربست وهو يلهث:

- منذ أشهر طويلة تركتُ شنغال بعدما يثست من العثور على ابنتي، ولا أعرف ماذا حصل.

أكد الراعي:

- تسوء الحياة فيها يوماً بعد يوم، والدواعش يعتبرونها محطة استراحة خلفية لهم.

- عشت أياماً عصيبة فيها، والشنغاليون القلائل فيها كانوا يقاومون ببداية وبساطة، وكانوا يدفعون حياتهم ثمناً لهذا.

- يا أخي حتى الحيوانات تدافع عن جحورها وأوكارها في لحظات الخطر.

قال سربست كما لو يؤكد حقيقة غابت عن صديقه:

- في لحظات الخطر هربنا كلنا، انهزمنا ثم بدأنا نبرر الهزيمة ونجد لها أوصافاً وظروفاً وخياناتٍ من الداخل.

أوقد رافيار ناراً كان قد هباً حطبها من أغصان متناثرة، ووضع قوري الشاي الصغير على مثلث من ثلاث صخرات ناتئات:

- كانت عجائب شنغال تلك الفترة كبيرة، لو حسبناها بالقياس إلى ناسها القليلين المتبقين تحت الاحتلال.

- ما مضى كان هزيمة بالفعل، لكنّ للانتصار ثمناً آخر ربما

سيكون أقسى من الهزيمة.

- وحدنا لا ننتصر، الحكومة ومن يساندها من القوى الكبرى،  
أمريكا، لعنة الله عليها.

كان رافيار يعرج قليلاً، وهو يحمل قدحين صغيرين من  
الشاي:

- الحكومة ستواجه الأحزاب الكردية والتركية ومطامعها التي  
تكشفت الآن.

- نحن المجتمع الضعيف الذي لا يحقق التوازن وحده.

- يبدو أننا سنحتاج لأي مخلص.

- وهذه مصيبتنا، سيخلصوننا ويتقاسموننا في لعبة طويلة.

- صح.. هذا متوقع.. بل أكيد.

## 7

هبت نسائم كثيرة متتالية تحمل عبق الجبال والوديان وبردًا  
خفيفًا، وكان سربست يسترخي، وهو ينظر إلى صديقه الذي  
يراه راعيًا حقيقيًا بهياته المربعة العِضلة كدب جبلي، وشارب  
غليظ بملامح حنطية قريبة إلى الشقرة، واكسسواراته وقلاند  
الأصداف والخرز الملون الذي يضعه على عنقه تضي عليه  
شخصية ساحر يجوب الأمكنة ويخترع المراهم للمرضى، ويأتي  
بعجائب الشفاء والحيل والمواقف.

قال رافيار وهو ينتشله من التفكير:

- حينما سنصل إلى شنغال بعد سبعة أيام تقريبًا ستكون قد تمرست على الرعي. يعني ستكون راعيًا يعرف كيف يقود القطيع، ويستدرك المفاجآت غير المحسوبة.

سحب نظره من الوادي:

- أنت أخي وأؤمن لك هذه الجهود والمغامرات من أجل بنات لالش المعذبات في السجون.

كما لو يريد تأكيد بعض الحقائق أمامه:

- لا تغضب كثيرًا ولا تستغرب ولا تتنرفز. ستجد أشياء عجيبة في شنغال.. شنغال تغيرت مع داعش وصارت ولاية إسلامية مخيفة.

قال بتأكيد آخر كأنه يطمئنه:

- نحن رعاة أغنام، ولدينا ترخيصات من ديوان الجسبة في ولاية الجزيرة، وبعض المجاهدين المهمين في شنغال. ولا تنس مهمتنا من أننا نخلص الأسيرات بفدى مالية، ولعل الرب سيساعدنا ونجد نشئمان.

قال مرة أخرى لمزيد من الاطمئنان:

- بالنسبة لك اطمئن فستمر من خلالي إلى شنغال. مسؤول الحدود التونسي يعرفني.

صمت قليلًا وهو يراقب انفعالات صديقه المتغيرة:

- لا تحزن كثيرًا. خودا بعثنا لتخليص صبيتك ولن يتركنا لوحدنا.

وأضاف كمن يريد أن ينهي الحديث:

- هناك أمور لم أقلها لك، لكن مع أيام الجبل ستعرفها بعد.  
الحلقات التي اعتمد عليها هناك، حتى هنا في الجبل الذي  
وسائل تدلل الكثير من المصاعب.

## 8

حمل على ظهره الحقيبة الجلدية، وبعض الأكياس التي ربطها  
على أمكنة متفرقة من جسده، ونادى القطيع بصوت غريب  
يتميز به الرعاة، ثم قال لصديقه الذي تهيأ وحمل عصاه:

- لا تنس إننا مسلمان سنيان كرديان، وشهادتنا أن لا إله إلا  
الله محمد رسول الله. انس طاووسي ملك وشيخادي ولالش.  
علينا أن نعبر إلى جبل الذئاب، فما تبقى من النهار يكفي  
للوصول إلى سفحه، وسنبيت في إحدى المغارات في الوادي حتى  
الصباح لنعبر الجبل.. نحن في مهمة صعبة وخطرة. ليحفظنا  
خودا العظيم.

جمعا النعاج المتباعدة، وظل صوت راقيار الغريب يحفزها  
للالتحاق بالقطيع. ثم أخرج من عبء كيساً صغيراً من النايلون  
بحجم قبضة اليد ومد أصابعه، وانتشل منه بعض البذور الناعمة:  
- هذه بذور شقائق النعمان، أطلقها كلما أصل إلى هذا  
المكان، حتى آخر قمة تطل على شنغال.



كانت عينا سربست تستفهمان فأكمل الراعي:

- لا تنس أن نيسان هو عروس الأشهر وبداية السنة الجديدة  
وعيدنا السرسال<sup>(20)</sup> قد بدأ في هذا اليوم الأربعاء الأحمر ونحن  
وجدنا هنا لكن في عودتنا سنجد هذه البذور قد صارت وروداً  
حمراء نزين بها طريق عودتنا.

رمى حفنة عشوائية على المساحات الصغيرة المتروكة بين  
الأعشاب المخضرة ومدّ يده أبعد من ذلك وهو يسير يخطو  
بيطاء وشفته تمتمان:

- هكذا أحيي عيد السرسال بطريقتي وربما أنت لا تقتنع،  
إنه عيد طاووسي ملك الذي ينزل مرة واحدة في كل سنة  
ويمثل هذا الوقت، أم أنك نسيت؟  
شعر سربست بشيء من التعاطف والإحراج فاحتضن صديقه  
الذي كان يبتسم:

- نحن أيزيديون شئنا أم أبينا وهذا عيدنا.

- لا يجوز حفر الأرض في مثل هذا العيد، وهذا اليوم لذلك انثر  
البذور وهي تتلحح ببركة شيخادي وخودا وتصبح أزهاراً من دم.  
دحس الكيس الصغير في زيقه وقال لصديقه وهو يشرع  
بالنزول مع المرياع:

- علينا أن نجتاز سبعة جبال وسبع قمم.. ساغني كثيراً.. لا تقلق.

## إله النار الغريب

### 1

رمى أبو العينين ورقة نقدية كانت مدعوكة في جيب سرواله الجانبي إلى الكتلة البشرية المتكورة على الدكة، وهو يدخل الجامع مترنحًا قليلًا كالدائخ، لكنه مُسندٌ بمساعدته من كل جانب. وبدا بهيئته المثيرة مثل نبي سيوجه البشرية، إلى الحياة الصحيحة من على منبر الخطابة العالي كثيرًا كما يعرف المصلّون الذين يحرسون على سماع خطبه النارية في نهارات الجمعة، ليكتنزوا الحماسة الأكثر بعدما تكون قد خفتت خلال أسبوع بسبب وتيرية الأيام التي تمر على سنجار.

كان يستغفر الله كثيرًا بطريقته المسموعة المعتادة، ليضفي عليه هالة من الورع ويهوّم بيديه دائمًا، ويرفع رأسه كثيرًا إلى الأعلى كأنه يكلم أشباحًا لا يراها غيره. ينصت لهم كمن يتلقى أوامر معينة، أو يكلمهم بلغة غير معروفة، وهو يشق طريقه بجمع من المصلين الذين كانوا ينتظرون طلته بعد غيبته الطويلة في المستشفى، فبدا لهم كائنًا رفيعًا كخياراة

ذابلة، لكنّ ملامحه القاسية بقيت كما هي، كنبى غاضب على كل شيء بجمجمة بارزة وأسنان صفراء، ولاحظ المقربون منه أن طريقته في مخاطبة الأشباح غير المرئية زادت كثيراً بعد خروجه من المستشفى، فتناوب كثيرون بتقبيل يديه ورأسه وكتفيه وهو يمضي إلى خطبة الجمعة على منبره العالي، فكان مثل طائر أسود معلق حين اعتلى المنبر؛ ينتظر أن يطير بجناحين سينبتان له بعد قليل، وهو يطيل النظر إلى السقف، والعيون محدّقه به تارة وبالسقف تارةً أخرى.

## 2

نهض الأعمى الخمسيني نور الدين، وهو يللمم الأوراق النقدية المختلطة التي كانت في طاسةٍ أمامه، ودخل الصحن متلمساً طريقه بين الأكتاف المترابطة، فقاده رجل وأجلسه في آخر خط مسنداً ظهره إلى الحائط، لكنه بقي يتلمس الأوراق الناعمة والخشنة في جيب جانبي، وكشف عن وجهه المغمض حينما خلع نظارته السوداء، وأخذ يمسح وجهه المتعرق قليلاً، وبانت آثار حروق في وجهه المجعد، مسّها بلطف وهو يمرر منديله عليها كما لو يراها؛ متداركاً لحظته بالإنصات إلى الخطبة الحماسية التي عاد لها أبو العينين متوعداً ومهدداً الجالسين بنار جهنم، كإله ناري يتجدد في كل جمعة منبرية، لا يعرف غير اللهب والقسوة والتخويف والترهيب، حتى أنه يرتعش وتتداخل

الكلمات بين زبد فمه وتهتز لحيته كثيراً، ويصفر لونه وتزداد جمجمته حجماً؛ كان ملاكاً واقفاً بين لحيته وشفثيه سيأخذ روحه، ويلقيها في نيران عارمة، لهذا يتحاشى الملاك الغامض بطريقة مذعورة ويوجهه إلى الجالسين الأثمين الصامتين على آثامهم، فيتسلل الرعب الإلهي بطريقة سريعة إلى الجميع، وتشتعل القاعة الكبيرة برائحة دخان وأنفاس محمومة، وتسقط قطرات نار من السقف يحاول الكثيرون أن يحموا من لسعاتها القوية بالتوسل والتضرع، والدخول في صيحات أبي العينين المتتالية التي تنذر بالوعيد والعذاب، فيطلبون المزيد من الاسترحام، والتوبة على ذنوبٍ لم يرتكبوها بعد.

لا ينشغل الأعمى كثيراً بصيحات الأمير، ولا يطلب الشفاعة من إله غريب لا يعرف غير الحرق والقتل وتذويب الأجساد في مصاهر من حجر وحديد؛ فيهرب رأسه إلى أكثر من مكان، وينسى الصوت المهيم على الجماعة؛ معيداً صور زوجاته السعيدات اللواتي هربنَ منه إلى المخيمات البعيدة؛ وهذه عادة يفضلها ويقضي خيالاً طويلاً معها بدلاً عن الإنصات إلى لغة النار المرعبة، فيشعر بأن الله الآخر الذي يخافه حقاً هو الذي منحه الجراءة أن يكون الزوج المخلص في لعبة الفصول التي يقودها الراعي بأسماله المتربة التي لا تتغير، واكسسواراته المعلقة على رقبتة كساحر يجوب القرى والقصبات. لكن أبو العينين لم يهدأ ولا لحظة واحدة؛ يجول بين النار والكافرين والمذنبين، ويصول في

عذاب شبحي يرسمه بخيالٍ نادر لجماعة صامته، يتمكن منها في كل لحظة، ويدس فيها الكثير من الشعور بالذنب والفجيرة، كأنما ستشتعل النار بعد قليل في أروقة الجامع، ويتحول المصلون إلى رماد في لحظة غضب إلهي لا نظير لها.

### 3

تتجول صبايا كثيرات في رأس الخمسيني الأعمى بالرغم من وقود أبي العينين المشتعل ودخانهِ الساخن الذي ملأ القاعة وعيون المصلين المذنبين؛ زوجاتٍ صغيرات تخلصن من عبودية الأسر وحملنَ معهنَّ آلامًا وخطايا لا تحصى، لكنهنَّ الآن هاربات سعيدات إلى مخيمات يتخيلها بسببته وهاذثة، تتعاقب فيها الحياة بطينة وإن كان فيها غياب كبير؛ لكنه يُطمئن نفسه أن زواجاته من الصبايا هي مفاتيح ورسائل للداخل الغامض المهجور لا بد وأن يعرفها أهل سنجار فيما بعد. وحتى عندما يزيد أبو العينين من صراخه الوحشي ويشعل جهنم في رؤوس الجالسين الخائفين من العقاب الإلهي الغامض، فإن نور الدين يُبقي على الصور في رأسه المكتظ ويعيدها بمهل، ويرى بينها الراعي بأسماله ولحيته المغبرة يتعاقب بالمجيء مع الفصول مع أغنامه فيملاً الأمكنة برائحة الغنم والصوف.

## جبل الذئاب/٢

### مرارة النسر

#### 1

تجمع القطيع في كهف منزوٍ بين الأشجار يشق عمقه بين الصخور، وبدا لسربست كمعبد مهجور حينما ظل يتأمل أقواسه الحجرية الصخرية القديمة، وقد نُحتت عليها كتابات بلغة يجهلها وأيقونات صغيرة لم يستطع أن يفسرها لا سيما والغروب ألقى ظلال الجبال على المكان فحشره في عتمة قَدِمت متسارعة. خرج رافيار من الكهف بعد أن تأكد من حشر الأغنام في الداخل العميق، وكعادته أوقد نارًا من أغصان متساقطة جمعها وجلس يمد يديه للدفع، يطيل النظر إلى جهات متعددة مع انسداد الظلام، وعلى ضوء اللهب المتعالي شرع يقرأ بورقة خرجت معه من الكهف، ثم هزَّ رأسه ونهض يتطلع إلى أقصى الشمال، كما لو يبحث عن شيء موجود يراه لكنَّ انسداد الغروب جعل العتمة حاجزاً أمامه.

- ما بك..؟

تساءل سربست.

- مهرب كان هنا منذ يومين وترك رسالة تحذير من وجود نشاط داعشي قريب من المكان.. و..

ثم أكمل للتوضيح:

- في العادة نتبادل الأسرار في أي كهف أو مغارة نكون فيها. عاد مرة ثانية يتطلع إلى جهة الشمال من الجبل كما لو سيأتي أحد ما.

- أشعر بأن في الرسالة غير هذا!..

قال سربست بصيغة القلق لكن راقيار تدارك:

- لا لا.. الغريب أن المهرب يلفت نظري إلى أن دوريات من البيشمركة ربما تتواجد في المكان أيضًا!  
مط الرجل الآخر شفتيه:

- كل شيء ممكن في مثل هذه الأماكن الملتبسة.

عاد إلى الجلوس قبل أن تغرب الشمس كليًا ومدّ يده إلى النار المتخافتة.

تساءل سربست:

- أتعرفون بعضكم؟

اقتربا من النار ورائحة الأغنام تنبعث من داخل الكهف:

- ليس مهمًا أن نعرف بعضنا. عادة ما نترك رسائل ووصايا وتطمينات أو تحذيرات لمن يأتي بعدنا، وأحيانًا نترك بعض الأسلحة الخفيفة كالجراب والسكاكين، ويحق لمن يأتي من

المهربين أو اللصوص أن يستعملها دفاعًا عن النفس فقط، لكنه يتركها حينما ينتهي من مهمته. هذه أخلاقيات المهنة. تكاثف الغروب كثيرًا، وطالت ظلال الجبال والأشجار، وكان سربست يجيل النظر إلى واجهة الكهف، فأوضح راقيار:  
- هذا الكهف لا يعرفه سوى المهربين ولصوص الجبال.  
- شكله غريب.. أظنه كان معبدًا.  
- في الصباح تستطيع أن ترى رسومات كثيرة على جدرانها الداخلية.

خَمَن سربست:

- ربما كان ديرًا مسيحيًا أو كلدانيًا.  
- أظن ذلك.. المسيحيون والكلدانيون والآشوريون كانوا هنا منذ زمنٍ قديم.

## 2

دلف راقيار إلى الكهف حينما بدأت السماء تمطر قليلًا، وأخذ الجو يميل إلى البرودة بموجات هواء تتخلل الأغصان المشتبكة؛ بعد إن أشعل مصباحًا صغيرًا فتقافز ظله أمامه واستطال وهو يخطو، وتبعه سربست مثقل الخطوات منحنياً تحت سقف الكهف الواطئ، وفي رأسه فوضى أسئلة وارتباكات لم يشأ أن يقولها. لكنه اقتعد مكانًا بين نتوءين بارزين شكلاً سريراً صخريًا وترك عينيه مغمضتين ونسي نفسه في دفء المكان.



- المهربون كثيرون بين الجبال واللصوص أيضًا.

- هذه أمكنة لا تستطيع الحكومة أن تصلها.

- سترى قرى صغيرة متناثرة، وأغلبية سكانها يشتغلون مهربين

من جهاتٍ متعددة بين كردستان وسوريا وتركيا وإيران.. لكننا سنتحاشاها قدر الإمكان.

صمت سربست منصتًا إلى عزف الهواه البارد بين الغصون،  
وأخذ راقيار يتفقد الأغنام في عمق الكهف بواسطة مصباح  
صغير، ثم عاد إلى باب الكهف وطلب من سربست مساعدته  
في سحب جذع شجرة ساقطة لتغلق الباب.

- تقلقني ذناب الليل وهي تشم رائحة الأغنام.

أخرج من الحقيبة التي علقها بنتوء صخري حربة متوسطة  
وضعها إلى جانبه. ثم علبة زجاجية صغيرة فتح غطاءها ودس  
إبهامه فيها وسحب معه مرهمًا ومرر إصبعه على عينيه أكثر  
من مرة.

- مرارة النسر حتى لا أنام!

- أنت متعب.

- الليل طويل.

كان ضوء المصباح ما يزال ينير جزءًا من الكهف بينهما.

- قليل من الخمر ينعش القلب صديقي سربست ههههه

مدّ يده في الحقيبة المعلقة وأخرج قنينة نبيذ ووضعها بينهما.

- هذا تخميري منذ أكثر من سنتين.

اعتدل سربست المثلقل بالنعاس وعب جرعة صغيرة من فم  
القنينة وأراح جسده من جديد فيما عبّ هو جرعة ثانية  
طويلة.

اطمئن سربست وهو يستسلم لثقل جسده المتعب، وأخذه  
شخير خفيف، ولم يسمع أصوات الذناب الكثيرة في الليل حتى  
تلك التي كانت تقترب من باب الكهف، تجذبها رائحة الأغنام  
المحشورة في عمق الكهف، وكانت مرارة النسر في عيني راڤيار  
تكفي لأن يظل يقظًا وحربته الملساء قريبة من يده، وهو  
يعبّ المزيد من جرعات النبيذ المعتق، ويدندن بأكثر من  
أغنية عن ذناب الليل والنهار وروح الجبل الشامخ فيه.

## ٢- الكبد النبوي/ مقطع عرضي

### 1

لم يكن المنادي الحاج أبو هلال على قدر من الحماسة مثل كل مرة يدعو فيها السنجاريين القليلين المتخلفين عن الهروب، والمجاهدين الذين يحفظون أمن المدينة من الداخل لنداء أو توجيه أو بلاغ، كما في مثل هذه المرة حين علا صوته عبر الميكرفون في السوق الوحيدة، محمولاً على سيارة بيك آب مكشوفة الحوض، وبجملة مرتبطة تقطعت فيها أنفاسه: الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر. إنه بلاغٌ من الله سبحانه وتعالى للمجاهدين والأنصار والمهاجرين والداخلين في دين الله ورسوله، وإلى أهالي ولاية سنجار الإسلامية. ندعوكم على الفور لتروا آيةً من آيات الله عز وجل في جسد أحد مجاهدينا الحاج الشهيد أبو عمر الأنصاري، الذي فتح الله في جسده معجزة من معجزاته العظيمة.. هلموا يا أنصار الله وشهداءه. سير خلف البيك آب وإلى جانبيها بعض جنود الحسبة شاهرين بنادقهم نصف الأخمص؛ يرافقهم بعض الصبية

مشدودي الرؤوس بقطع سود كأنهم بطاريق، يحثون الناس على الذهاب إلى مستشفى سنجار الإسلامي، لرؤية المعجزة التي أحاطها الغموض في صوت الحاج مبسوح الصوت على مدار أكثر من ساعة، جائبًا المنطقة في كل أزقتها، يدعو الأهالي إلى الخروج من بيوتهم وترك أعمالهم، ليتيقنوا من معجزة الله في الجسد الشهيد. وكان جنود الحسبة يهشون بالعصي على أصحاب المحال، ويرغمونهم على ترك محالهم للالتحاق بالمستشفى الوحيد، حيث المعجزة الربانية التي لا تتكرر.

تقاطرت النساء المنقبات القليلات، وخرجن مسرعات من البيوت يتبعهن صبيان وصبيات صغيرات ملفعات بالنقاب أيضًا، وهنّ رجال كثيرون مسرعين نحو المعجزة التي ينادي بها الحاج أبو هلال ابن قرية كوجو الذي يعرفونه تمام المعرفة، بالرغم من أنه أطال لحيته وتزيّن بالسواد، وصبغ غترته البيضاء بسوادٍ حالك ولفّها مثلهم. لكنه بقي معروفًا للسنجارين القليلين الذين ينظرون إليه بحقد وضغينة.

- هذا أبو هلال صاحبنا.

سكتت المرأة الأخرى وهي تتلفت.

ومن بين لغط تزمير سيارات الإسعاف المتناوبة في المدينة قالت المرأة الملفعة بالسواد بتشفّ:

- أعتقد هناك هزيمة لهم.

همست المرأة إلى جارتها الساعية إلى جانبها، لكن الأخرى

ظلت تتلفت وتجبر صاحبها على السكوت، فلا لغة يمكن بها أن تستكملها معها، وهي تعرف في حالة مشددة كهذه التي ينادي بها الحاج أبو هلال، أن هزيمة لحقت بهم في إحدى جبهات القتال، فتخاطف سيارات الإسعاف في الشارع العام، والتوجه إلى المستشفى يعني كثرة الجرحى والقتلى في جبهة ثرفدين<sup>21</sup> وهي الأقرب لسنجار وجبلها الكبير، غير أنهم تداولوا لاحقاً أن هزيمة فظيعة لحقت بهم في تكريت، وهو أمر يتيح الكثير من الأمل حتى للأسيرات المحاصرات في البيوت ومقرات القادة وبيوتهم المخفية.

## 2

الزحام الذي جلبه ميكرفون الحاج هلال جعل الدخول للمستشفى فيه صعوبة كثيرة، غير أن الذين خرجوا مندهشين منه كانت على وجوههم علامات استغراب ودهشة ممزوجة بخوف، يمكن للمراتين وغيرهما مشاهدته بسهولة.

قالوا أن المجاهد الشهيد أبو عمر الأنصاري الذي ضربته قاذفة RBG 7 بشكل مباشر وأحالتة إلى نثار بشري عُثر على كبده سالمًا، وقد حُفر عليه بطريقة إلهية وبشكل واضح

---

21- مزار ثرفدين يعد من أبرز المزارات الأيزيدية بعد معبد لالش، وهذا المكان دافع عنه الأيزيديون ببراوة أمام هجمات داعش ولم يسقط بل بقي في حمايتهم حتى النهاية.

(محمد رسول الله) كمعجزة، وبأن الشهيد التحق بالجنة مع الأنبياء والصديقين والشهداء.

- لم أرَ كبدًا بشريًا بحياتي.. بس شايفة كبد طليان!

- وراح تشوفي عليه اسم الرسول هههه

اندست المرأتان بين جموع النساء من باب خاص، ودخلتا محشورتين بين العباءات بصعوبة، إذ لم يشهد المستشفى الوحيد زحامًا كالذي جمعه الحاج أبو هلال بصوته الرنان عبر الميكرفون منذ الصباح، وكان التدافع على بوابة المستشفى أكثر مما توقعه عناصر الشرطة الذين لم يستطيعوا السيطرة على الجموع الوافدة من المدينة، وأطرافها القريبة.

كان حشرًا بشريًا له رائحة زنخة جدًا.. رائحة أكثر من كبد محروق.

### ٣ - جبل الضباع عندما تزوجت دبة بيضاء

عاشق ومه عشووق مفتا بده سته      المفاتيح بيد العشاق والمعشوقين  
مه مرازا خو ز وان دخو سته      نحن طلبنا مرادنا منهم  
ئه وان مرازا خو ز هه قي دخو سته      وهم طلبوا بدورهم مرادهم من الله  
( من دعاء الفجر عند الأيزيدية )

#### 1

أيقظه رفيف المطر المشتت في فجر الجبل، وخفقان الهواء  
البارد على أطراف الأشجار التي تظلل الكهف، فتلمس طريقه  
إلى الباب المفتوح بلا جذع الليل المطروح، شاعرًا بأنه استغرق  
في النوم من دون أحلام وكوابيس ورؤى.  
وجد راقيار يشعل نازًا في موقد صخري إلى جانب باب  
الكهف مع ضوء الصباح الأول الغارق بالغيوم، ورائحة أعشاب  
طرية وأشجار وزهور تفتح، وصدى أصوات متناوبة لطيور  
موسمية وعصافير جبلية كثيرة التصويت.

جمع بعض الندى العالق على أوراق الأشجار ومسح وجهه البارد:  
أهو بقايا مطر أم ندى؟ لكنه تجاوز السؤال عندما ازدحمت حوله  
الأغنام متحررة من عتمة الكهف، وخرجت ثاغية، تاركة وراءها  
رائحة صوف رطبة، وغباراً ناعماً، منتشرة في المكان، ترعى بعد إن  
أحاطها رافيار بذراعين وهميين استطلا كثيراً، وهو يتحدث بلغة  
صعبة ويصوت لها بلسانه وشفثيه فتخرج منه كلمات وأصوات  
غير مفهومة، حتى هدأت واكتفت بمساحتها القليلة المحصورة بين  
أشجار الجوز والكروم وزهور البرق الملونة الزاحفة على الأعشاب.  
أشار إلى صديقه بأن يجلب له طاسة من الحقيبة الجلدية،  
ثم أمسك بنعجة سمينة وربت على ظهرها وكلمها فامتثلت  
له، عندها أقعى ومدّ أصابعه يحلب ضرعها فتساقطت.  
نافورات الحليب الناعمة حتى ملأت الطاسة، فحملها سربست  
إلى مائدة وهمية من العشب وُضع عليها تين جاف وقنينة  
عسل وبعض أقراص خبز ال كه شك والنعناع الجاف، وكان  
الموقد يبعث الدفء قريباً من وجهيهما.

- سنصعد إلى القمة التالية، ولو بقي لدينا وقت سنحاول  
النزول إلى مغارة الضباع والمبيت فيها.

كان يشير إلى قمة لا تبدو قريبة مثل غيمة خضراء مجللة  
بضباب كدخان راكد عليه.

- سنتحاشى القرى القليلة ودائماً لا نأخذ طريق الشلالات، بل  
نزوغ عنها حتى لو تأخرنا قليلاً.



كان الموقد يتخافت وأخذت ناره تضحل حتى تضاءلت، لكن الصباح انتشر على نحو واضح، وانسحبت الكثير من ظلال الأشجار والقمم القريبة، لتكشف فضاءً أخضر بلوحة واسعة مترامية الأطراف يخالطها ضباب وغيوم نازلة كثيراً، فأخذ راقيار يتطلع إلى أكثر من جهة، كما لو يستكشف مساراته الجديدة في رحلة عكسية إلى هناك، بعيداً عن السيطرات الرسمية، وربايا المراقبة التي تغلق عليه منافذ الرحلة، وهي مسافة متعرجة بين الجبال والوديان والقرى والسفوح الصاعدة والمنحدرة.

## 2

منذ الليل، ومنذ أن غرق صاحبه بنوم مفاجئ عميق، أعاد ترتيب حقيبته القماشية المملأى ببخز السوني، والتين الجاف، وقنينة عسل، وأشرطة دوائية، وقبضة من الملح الخشن، وعصير الليمون، وشرائح صنوبر، والحبة السوداء، وحبوب مختلطة من الرشاد والفجل ضد سموم العقارب والأفاعي، وبعض الكبسولات الصفراء والزرقاء، والعلب الصغيرة لسوائل لم يسأل عن أهميتها، حينما اشتراها من أربيل ودهوك لبعض المجاهدين المرابطين على الحدود بين القرى والقصبات والأقضية، فظل إلى وقت متأخر؛ مع مرارة النسر؛ يسمع صفير الجبل، وحركة الليل، واصطدام الأغصان، وأصوات الكائنات المتحركة، لا سيما الذئاب

المخاتلة التي يشعر بمناخيرها المتشعبة في باب الكهف، ليحدد مواقع كثيرة بديلة يمكنه أن يسلكها في رحلة العودة الربيعية، مصغيًا بحاسة استثنائية إلى خيال آخر يقربه من سنجار وجبلها الواسع بأقل الأيام ثقلاً، هو خيال الراعي الأخير الذي توزع في هذه المساحات العريضة أربعة مواسم كاملة، بنعاج وكباش كانت تقل في كل رحلة كهديبا اضطرارية، ورشاوى للمجاهدين الذين يمسكون رؤوس القرى في كل أطراف سنجار البعيدة، حتى ملأ رأس صديقه بجغرافية السفر الصعبة إلى عرين خانق تشكّل كقدر أسود، لا بد من الخوض فيه ما دامت نشتمان على قيد سنجار البعيدة.

### 3

صاح على القطيع صيحاته المعهودة، ولف على ظهره حقيبتيه، وشك في ثوبه صرة صغيرة وتأكد من مزماره مدفوناً في زيقه.  
- سأنحدر أمامك ولا تترك النعاج تحيد عن طريق النزول، فالسفح نازل كثيرا كما ترى.

هز الرجل الآخر رأسه شاعراً برغبة كبيرة أن ينزل إلى الوادي، ثم يصعد الجبل البعيد، وأي جبل وراءه ليكون على مقربة من أنفاس نشتمان، متحسباً ثيابه الثقيلة، وواضعاً عصاه تحت إبطه، وفي رأسه أكثر من خريطة معقدة، وهو يرى نشتمان بتبعد كثيراً عن رأسه بين ضباب أسود، ودخانٍ وحرانقٍ ولغابٍ

وسراويل سود ولحي مسترسلة ونيران عالية، لكنها تقترب من زاوية في روحه، وتستكين ولا تغادرها. تلك هي روح البقاء الأعزل في ظروف لا تساعد على البقاء السليم.  
- سأكون في آخر القطيع.

أشهر عصاه وتلمس الصخور بيد باردة، وهو ينحدر مع آخر نعجة سمينة متعثرة بين الصخور الناتئة، فاضطر أن يحجل ورائها ليعيدها إلى مسار القطيع في المر العشبي الذي بدأ يهبط بهم جميعاً، بين أشجار كثيفة وأغصان تميل بها الريح الباردة.

صاح به راقيار:

- لا تشغل بالك بها. كل نعجة تعرف طريقها إلى الوادي مثلما تعرف طريقها إلى المسلخ هههههه

#### 4

بخط متعرج وغير منتظم، انحدر القطيع مع الضباب، وبدا لعيني الرجل في المؤخرة أن الطريق سيطول وستصعب السيطرة على القطيع المتدفق في نياسم الجبال ومنحدرات السفوح والهضاب، تحت هذا الجو الضبابي الذي تشكل سريعاً، وحجب دفا الشمس.

أعاد سربست وجوه صبايا المعبد، ويوم التعميد، ورقصة الحياة السعيدة في لالش، وحشر وجه ابنته بينهن بقامتها

النخيفة، ورشاققتها، وعينيها الزرقاوين، وضحكتها الطفولية، فطاف على حلم أزرق، وهو ينحدر مع النعاج متعثراً كأنها هو نائم؛ وين انت؟

لأول مرة يشعر بهذا الحلم المتموج في طواف الصباح الضبابي، ماخوذاً بجمرة العودة إلى شنغال ونشتمان التي تنتظره، وهو يتموج في هبوط سريع، متكئاً على عصا غليظة إئتمنها عنده الشرطي دلشاد، قبل أن يُحرق في باحة الجامع بتهمة الجاسوسية على دولة الخلافة الإسلامية في سنجار؛ وهي عصا المجنون عيدو التي أخفاها دلشاد عن عيون شرطة الجسبة قبل أن يُحرق وقبل أن ينتشله صقر سنجاري هبط فجأة وسحبه من النيران المشتعلة.

- عيدو.. دلشاد.. أنتما معي.

## 5

كان الضباب يتكاثف في الهبوط، لكن الشمس تشرق في مكان آخر من الجبال، ولم يتوقف راقيار وهو يسارع بالهبوط متسابقاً مع قطيعه والمرياح الدليل الذي يشمخ بقرنيه المعقوفين بلا صلصلة جرس، لكنه اطمأن حين زحفت أمامه حية مرقطة في الممر العشبي الذي يسلكه، واندست بين الأعشاب، وكان الضوء كافياً لأن يرى هذا الفأل الحسن، فظل يديم النظر إلى مكان تسللها، مستعجلاً الوصول إلى مغارة الدببة الغامضة في رأس

صديقه الذي قضى النهار معه في النزول الشاق، بين أغنام تتزحلق وتشد عن الممرات الكثيرة المتعاقبة، وكانت عصاه تطاردها، لكن صوت راقيار الغريب يعيدها إلى مكانها كما لو تفهمه.

لم يكن الوادي عميقا كما كان يتصوره سربست، بسبب الصخور العملاقة الطالعة من عمقه التي رفعت معها غابة كثيرة الأشجار، تحاشاها راقيار وهو يلتف حول الجبل، ويلتقي معه القطيع، ويأخذ سربست أنفاسه قليلاً شاعراً بالتعب، غير أنه يعاند نفسه في مشواره الطويل بمغامرة صديقه الراعي المخلص الاستثنائي البارع. حتى تباطأ القطيع متجمعاً على مسرب صخري منحوت رابض بتلقائية لا شكل له، عندها تقابل الرجلان وكان سربست بوجهه المضرب متسائلاً.

قال راقيار:

- الوادي صخري كما تراه والغابات فيه مخيفة فعلاً، لذلك نؤجل وجبة الغداء ونواصل السير بين الصخور حتى سفح القمة الثالثة.

ثم أضاف:

- أنا غير مرتاح لهذا المكان بصراحة ودائماً أتجنبه.

هز سربست رأسه، فواصل الراعي للتوضيح:

- أسمع كثيراً عن هذه الغابة بأن من يدخلها لا يخرج!

واصل سربست هز رأسه وهو يتطلع إلى الغابة العملاقة

القريبة، بينما كان الراعي يواصل:

- لذلك نسلك الممرات بين هذه الصخور حتى نهبط من جهة أخرى، ونتسلق سفح القمة الثالثة في جبل الضباع، فهناك أكثر من مغارة يمكن أن تأوينا حتى الصباح، وهناك ضباع أيضاً، لكن ممي شفان<sup>(1)</sup> سيحرسنا ببركاته.

## 6

تسلل الظلام سريعاً كأنه غيمة ثقيلة، ومدّ معه ظلال الجبال التي أغلقت منافذ الضوء، فأضفت عتمة على قعر الوادي، وهو أمر يدركه راقيار بفطرتة، ويعرف أن الشمس لما تنزل في الأفق، غير أن الجبال المتطاولة تحجبها، فتقصر من النهار وقتاً ليس قليلاً، لذا حثّ رفيقه باللجوء إلى مغارة قريبة تنزل كثيراً في القعر المظلم، لكنه بحساسية القروي الذي يعرف مكانها، ويعرف أن ما تركه فيها في المرة الماضية سيجده بلا شك.

تكدست الأغنام في باب المغارة، لكن راقيار أضاء المصباح اليدوي، ودخل قبلها متفحصاً المكان بهدوء، وكان سر بست مع الأغنام يلسعه البرد النيسانى الخفيف، فيما تلفح قعر الوادي بظلام حالك حتى انسلت الأغنام من باب المغارة الضيق، ودخل وراءها سر بست الذي كان يشعر بالتعب بعدما انطفأ النهار في عينيه.

---

22- إله الماشية والرعي

حشَّ بعض النباتات الشوكية، وساعده الرجل بتجميعها أمام مدخل المغارة، ثم انسلأ إلى داخلها وهما يصفان النباتات ويكدسانها فوق بعضها، ويسحبانها إلى الداخل.

أخرج راقيار شمعة صغيرة من ثنانيا سرواله العريض، وأشعلها في عمق الغار فاهتزت ظلالهما على الجدران الصخرية المجوفة، وتبددت العتمة قليلاً وتقابل الرجلان مستندين إلى حائط صخري بارد:

- سنقضي الليل هنا.

كما لو يريد أن يحيط الرجل علمًا، ويبدد عليه الوقت الطويل الذي عليهما أن يقضياه معًا.

- كل مغارة لها قصة يا أخي.

قال ذلك وهو يتحسس طريقه إلى عمقٍ آخر مغمور بالظلام، لا يراه الرجل غير أنه سمعه يتمتم، وهو يغور بخطوات أبعد، كأنما المغارة مفتوحة إلى نفق طويل:

- كلها موجودة.

عاد وسحب الشمعة المثبتة في فجوة صغيرة من الحائط، فارتعشت الظلال بينهما وعليهما، ثم تراجع بضع خطوات، رآه الرجل يمد كامل يده في تجويف جانبي، ويسحب منه كيس جنفاص ملفوفًا، وجاء به مختلطًا مع ظلال المغارة غير المستقرة.

- من هذه المغارة حتى جبل سنجار سيكون الطريق وعراً وغير آمن.

فهم أن صديقه لم يفهم شيئاً لكنه قال وهو يفل الكيس  
الملفوف:

- من هنا إلى هناك طريق وطرق لم يسلكه بشر حتى رعاة  
الأغنام، وقد نكون أمام مفاجآت لا تخطر على بال.  
فتح الكيس عن آخره، وأدنى منه ضوء الشمعة التي كشفت  
مسدساً صغيراً، وساطوراً متوسط الطول، وحرية ملساء.  
- لا بد للمرء أن يحتاط لكل الطوارئ والمفاجآت.  
- معك حق.

- يقال في الطرق التي سنسلكها أن هناك ضباعاً قاتلة وأسوداً  
وغموراً ودببة.  
سأله الرجل:

- هل صادفتك مثل هذه الحيوانات يوماً ما؟  
رفع المسدس وتأكد من خزان الرصاص فيه:  
- لا.. سوى الذئاب البيضاء والدببة وحيوانات لا أعرفها خاصة  
في الليل.

تساءل الرجل:

- وهل ستبقى معك هذه الأسلحة إلى شنغال؟  
- سأخبئها في مغارة أخرى نصلها بعد يومين، وحينما نعود  
مع ابنتك إن شاء الرب سنأخذها وندفنها هنا في هذه المغارة.  
ثم أضاف:

- أعرف خطورة المسالك هنا.



وتابع حينما وجد صديقه صامتاً:

- كل الطرق التي يسلكها المهربون وطرق داعش ورباياهم  
ومخافهم.

قال وهو يعيد تلميع الحربة والساطور بخرقه نظيفة أخرجنا  
من جيبه الداخلي:

- من الصباح سندخل الخطر الجدي صديقي، لكن لا تقلق،  
أحمل أموالاً كثيرة ومعنا أغنام معقولة العدد.  
نظر إليه وهو يتسم:

- حتى كبسولات ومخدرات ههههه

مرّ طيف ابتسامة على وجه الرجل، لم يلمحه راقيار المنهمك  
بلف الكيس على أسلحته الصغيرة حينما تأكد من سلامتها.

- أظن أنك لم تجرب أن تتحدث في جو مظلم!

أطفأ راقيار المصباح فعمّ ظلام قوي داخل المغارة، وكانت  
رائحة الأصواف كبيرة حينما هدأت الأغنام واستكانت في مكانها  
محشورة إلى الداخل.

- كنت أخاف الظلام. لا شيء يخيفني أكثر منه، لكن هربي  
من النظام سابقاً ولجوي إلى المغارات والكهوف مذعوراً من  
تلك السلطة؛ كيفني إلى أن أواجه الظلام والعمّة والعزلة.

قال سريست كأنه يخاطب كائنًا غير مرئي:

- هناك الكثير مما لا أعرفه عنك راقيار.

ضحك الآخر وقال:

- في الظلام قد تمر أمور كثيرة لا نشعر بها يا صديقي، وما لا تعرفه عني ستعرفه، لكن هذا أنا: كائن كنت أعيش في الظلام أجمل سنوات شبابي حتى أفقت على ظلام أكثر منه قسوةً ووحشية.

وأكمل بعد لحظة صمت:

- لا أستطيع مفارقة الجبل. صرت راعياً أجوب القرى بين السفوح والقمم والوديان، حتى صارت هذه المصيبة التي أزهدت أرواحنا، وما حلّ بنساتنا وبناتنا.

تدخل سربست وتساءل بهدوء:

- لم تخبرني إن كنتَ متزوجاً أم لا..؟

عاد راقيار يضحك من جديد:

- تعرف. ربما لا تصدق، إنني تزوجت أيضاً وأنجبت ثلاث صبيات طيلة سنوات الحرب..!

- ههههه هل تزوجت دبة؟

- ههههه نعم تزوجت دبة بيضاء حلوة.

استغرق في الضحك طويلاً وهو يواصل:

-.. ولكن لهذا حكاية سأرويها لك حينما نعود بسلام وبركة خودا وشيخادي.

تساءل سربست مندهشاً:

- تتكلم بجدية؟

- نعم بجدية، لكن قبل هذا أخبرك إنني تزوجت امرأة كنت

أعرفها سابقًا، وبعثت بمن يخطبها لي وتم الأمر بطريقة سرية،  
لم أنقطع عن الاتصال بأهلي ثماني سنوات.  
عاد الآخر يتساءل:

- وأين زوجتك وصبياتك الثلاث الآن؟

- كبرنا كلنا يا أخي.. ما بقيت صبيّة عندي.. كلهن أصبحن  
أمهات ببركة خودا وطاووسي ملك.

- أقصد هل هم معك؟ أين هنّ..؟

- هاجرن مع أزواجهن وأطفالهن إلى تركيا وألمانيا والنرويج.  
خلصن من هذا الوضع الكسيف. حتى زوجتي هاجرت مع  
بنتها الصغرى.

رانت لحظة صمت قطعها راقيار وقد تغير مرجه قليلاً:

- الآن وحدي. كل الأسيرات هنّ بناتي. هذا دوري يا أخي. أنا ابن  
الجبل ولن أتخلى عن دوري، لذلك وجدت شغلة الراعي هي التي  
تقربني منهم، ومن شنغال ومن بناتنا المخطوفات. وأنت..

سكت قليلاً وكان يتكلم من بين كثافة الظلام:

- أنت.. ستدخل بمثابة راعي معي وسنوزع أغنامي بيننا.  
سنحقق هذا الأمر لأن الجماعة الدواعش صاروا جماعتي،  
بخاصة أولئك الذين على نقاط الحدود، لا تقلق، سأعرفك  
عليهم، لا تنس أنك مسلم، راعي غنم آخر يشد من أزر راعي  
غنم، سنبحث عن ابنتك في كل مكان، سندفع المال والذهب  
والمخدرات حتى نجدها.

### ٣- مقشّر الجلود / مقطع عرضي

#### 1

لم يكن المنادي هذه المرة المهاجر الشيشاني، ولا أبو عُبيدة الفلسطيني ولا الحاج أبو هلال، لكنه أبو فرات العراقي ذو اللحية الصفراء المتراخية على صدره، بعدما وصلت أخبار من أن أبا العينين عاوده المرض، ولم يستطع حضور هذه الجمعة المباركة. تمت نور الدين لنفسه وهو يحاول أن يُبقي ظهره ملصقًا على حائط فناء الجامع في الصف الأخير بعد خطبة الجمعة المملة والمكررة:

- سبحان الله مغير القلوب والنفوس.

لم يعانِ نور الدين من تذُكر أبو فرات المسلم، لكنه بقي يرسم له صورة اللحية الصفراء التي أخبره بها راقبها في الربيع الماضي، فالرجل التحى وخرجت له أنياب جارحة، وأظافر حادة يقشّر بها جلود السنجاريين، كقائد محلي له خبرة بالمكان والناس. لذلك لم يسمع الكثير من خطبة القائد الفراتي، لكنه عرف أن وراءها عقوبة لرجل جُلب من قرية بعيدة بتهمة

التواطؤ مع البيشمركة، ونقل المعلومات إليهم، فكانت تهمة التجسس التي قضت بإعدامه سلخاً أمام العامة، بعد صلاة الجمعة، ولن يقوم بهذا الفعل المثير غير هذا الأصفر الفراقي.

- سنصلب اليوم خائناً كردياً أبى على نفسه إلا أن يكون جاسوساً على دولة الخلافة الإسلامية. وكان ينقل معلومات إلى استخبارات البيشمركة الملحدين عن تحريك قوات مجاهديننا في سفوح الجبل، وكان قرار القاضي الشرعي أن تكون عقوبته صارمة واستثنائية، ليكون عبرةً لغيره ممن تُسأل له نفسه أن يخون الله ورسوله الأمين، ويصبح عنصراً ضاراً؛ وذلك بسلخ جلده سلخاً، وهو حيّ أمام العامة وبمشاركتهم بعد صلاة الجمعة.

فز نور الدين على صيحات جبارة اخترقت المكان بطريقة هستيرية: الله أكبر الله أكبر الله أكبر. فتحول الصدى إلى طنين ملأ رأسه، وهو يهتز منخلع القلب حتى اضطرب في مكانه كأنما بدأت حفلة العذاب والسلخ الإلهي المحموم.

وعندما أعاد الفراقي ذو اللحية الصفراء قرار القاضي، اهتزت القاعة ثانية بصيحات الله أكبر، فانتشر الصدى الحديدي من جديد في رأسه، واختض كثيراً وحاول أن يتماسك كما لو زحف الجدار من ورائه وتحركت قاعة الصلاة باتجاه آخر، وشعر أن المصلين عبارة عن وحوش بشرية تنتظر إيعازات الجمعة بصبر لا يُحتمل.

استغفر الله في سره، وهو يطرد الطنين العاصف من رأسه، كما تحاشى الرجلين المصطفين إلى جانبيه من الشمال واليمين،

لكنه أحس بجسديهما يرتعشان وسمع الرجل الشمالي يهمس  
لنفسه بالكردية: هذا كفر.. وبين الله؟

## 2

لم يفهم من الصلاة شيئًا كأنه نسي الآيات القصيرة التي  
يستغرق فيها كثيرًا، وكان نبضه يطرق في صدره بقوة، متخيلًا  
شكل الكردي الذي سيسلخون جلده كالذجاجة، فاقشعرَ بدنه  
وجفَّ ريقه، ونسي ماذا يقول في صلاته، لكنه اكتفى بالسلم  
على الملكين كما انتهى الآخرون إليه، وبقي سمعه منفتحًا،  
بعدما انفضَّ المصلون ونهضوا إلى الباحة، فحمل جسده متلمسًا  
طريقه مثلهم، بمساعدة رجل قاده إلى فضاء الجامع الذي اكتنز  
باللغظ والثثرة والتشفي بالسن فصيحة وبدوية فجأة، لكنه  
خرج من زحمة الأجساد وأخذ مكانه المعتاد على دكةٍ في باب  
الجامع، مجردًا قدميه، ومنصتًا بحواس استثنائية لفجیعة  
هذه الجمعة التي ينتظرها الجميع بفرح كما بدا له.

## 3

أهابَ رجلٌ خرج من بطن القاعة بالجميع أن يتراجعوا قليلًا،  
وكان يهشُّ بيديه كأنه يطرد شيئًا كريهًا أمامه. ثم ناوله أحد  
شرطة الجامع منشازًا مسننًا، أطول من المناشير المعتادة وكان  
سطحه المعدني يلمع تحت وهج الشمس، وأسنانه باشطة  
وصغيرة لا توجد بينها فراغات ملموسة، سوى رؤوس ناعمة

مدببة متتالية، وتجمع الأسنان كلابتان مدببتا الرأسين، طويلتان  
كسهمين يشيران إلى قبضته الخشبية الضيقة.

تأمله أبو الفرات وفمه مفتوح بابتسامة غير معبرة وعيناه  
محتقتان ثم قال بصوتٍ غليظ:

- بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا  
مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ.. أما الآن فقد جاء دوركم يا مجاهدي  
خلافتنا أن تقتضوا من هذا الخائن بسليخٍ جلده حتى الموت..  
فليشارك الجميع في الاقتصاص من عدو الله.

التفت إلى ورائه وصاح بصوت أغلظ:

- هاتوا المجرم الكافر.

سبقته خشبة طويلة تقاطعت عليها خشبة أخرى، يحملها  
ثلاثة أشخاص من الشباب المتحمسين فتشكل صليب كبير،  
سبق أن رآه المصلون في عقوبات ماضية على أشخاص آخرين.  
وبعد أن ثبت الثلاثة قاعدة الصليب بين حجرٍ كبير أعد  
لهذه اللحظة، أدخل آخرون رجلاً مقيد اليدين إلى الوراء. على  
جسده قميص ممزق ويسجل أسفل قدميه شروال ظهرت عليه  
بقع دماء متوزعة، متورم الوجه، مفزوعاً، أصفر مثل البرتقالة  
الذابلة، عيناه تتخاطفان ولا تستقران كأنهما ستنتقلعان من  
محجريهما. لكنهما توقفتا على المنشار المسنن حينما خطف  
بريقه على عينيه كمرآة تتحرك وتعكس الشمس.

جمدت عينا الرجل على المنشار بهلع وتوقفنا ببياضٍ غريب،

وإمكن بعد لحظةٍ مشاهدة خريطة مائية بللت سرواله المتدلي إلى أسفله، وما تزال عيناه ثابتتين على المنشار المعدني الذي يلوح به أبو الفرات، لا سيما حين تقدم وشرخ القميص بلمح البصر وشقّه إلى نصفين، كذلك سرواله المبلل الذي انفلق عن جزأين تلقفه رجاله الذين يحيطون بالمصلوب، كما نزعوا نصفي قميصه، فبان جسد مرتعش بسروالٍ أخير غطى جزاءه الأسفل.

#### 4

تقدم أبو الفرات ووضع المنشار بشكل عرضي على صدر الرجل الذي بقي ذاهلاً بعينيه البيضاوين، وضغط عليه ضغطة كانت كافية لفتح جرح طويل، نَزَّ منه دم أسود وظل يسيل على صدره من دون أن تبدو من الكردي صرخة متوقعة، لكنه جفل فجأة مع صيحات الله أكبر التي اهتز لها المكان ثلاث مرات مخيفات، فتحركت عيناه وقد ازدادت بياضاً؛ تتابعان الوجوه التي تبدلت سحناتها، واكتسبت طبيعة أخرى كانت كافية لأن تخنقه في اللحظة التي بدأ فيها أبو الفرات يمد سبّابتيه في الجرح الذي شرخ صدره بغرض تعميقه قليلاً، ومن ثم جر الجلد إلى الأسفل كمن ينزع عنه قميصاً اختفى تحت جلده، أو يشق بطن سمكة.



كانت صرخة الرجل الهائلة أجفلت نور الدين المتوتر، فزادت من توتره وهو يقف بلا إرادة منه، غير أن حركة الأقدام المتسارعة نبهته إلى أن الكردي المتهم بالخيانة والجاسوسية، قد ضاع صراخه وسط فوضى المتحمسين لتنفيذ هذه العقوبة المخيفة، لكنه لم يرَ تطاير الدماء بنثيئها أو غزارتها وجلد الرجل يتهدل أكثر، كما أنه لم يرَ المجموعة التي فتحت جلده من الخلف بسكاكين صغيرة وتعاونت على نزع جلده، ومن اليقين أنه لم يسمع صوت الجلد المنزوع كأنه بقبقة فقاعات صغيرة محصورة بين اسفنجة وخشبة.

## ٤- جبل الدببة

### الأخر الذي فينا

تزاحمت الأغنام في مدخل المغارة مثيرة بعض الغبار الذي تكاثف على شكل غيمة خفيفة أخذت تنتشر بهدوء في الفضاء النيساني الساكن. سبقها رافيار إلى الدخول وهو يستعين بضوء مصباح صغير يحمله في جيبه، وبقي سربست مع آخر القطيع يهش على بعض الأغنام المنفردة لكي يدخلها إلى المغارة التي يجهل عمقها. لكن روائح مختلطة من روح الكهف من الصوف والهواء الرطب تسارعت إلى أنفه وهو يدفع بآخر القطيع. ثم رائحة أشواك متعفنة داهمته، وهو يدخل فوهة المغارة غير أنه حاول أن يتفادى الرائحة بغلق أنفه باليشماغ عندما انحنى إلى الداخل.

- كيف عثرت على هذه المغارة هههه أنت شجاع فعلاً.

- هذه قمة الدببة وحولها حكايات وخرافات كثيرة.

انفتح الكهف المتداخل عن ضوء مترجرج تسببت به شمعة غير مستقرة في شق صغير لمسها رافيار بقداحته، غير أنه أعادها إلى عمق الثقب وترك قامتها الرفيعة تبث ضوءاً ساكناً.

فيما أخذت الأغنام في عمق المغارة تهدأ بعد أن أطفأ الراعي المصباح الصغير وأعادته إلى جيبه، فخيل للرجل أن القطيع ابتلعه نفق طويل لا قرار له.

- أحياناً لا يحتاج المرء إلى نورٍ كثير ليرى الأشياء من حوله.  
همهم الرجل وهو يمدد ساقيه بعد أن خلع حذاء الجلد السميك عنه.

- دائماً نبالغ في البحث عن النور من أجل أن نرى كل شيء.  
ظل الرجل صامتاً وهو يشعر بالتعب، لكنه بقي يتأمل النور الشحيح، فوجده يفيض في مساحة الكهف إلى حد جيد.

- ليس مهمّاً أن نرى كل شيء.. أحياناً لا نحتاج أن نرى الكثير من الأمور بيننا.

جلس راقباً يقابل الرجل الممدد أمامه:

- الحياة واسعة وكبيرة وعلينا أن نحدد ما يجب أن نراه.. تمام؟  
هز الرجل رأسه صامتاً لكنه استدرك:

- صح. ربما في بعض الأحيان يكون النور هو الخديعة.

في الخارج هبط الظلام بشكل أخير، وتدفقت نسائم باردة إلى المغارة، وتقادمت أصوات غامضة كثيرة مع أول الليل.

- في سنوات هروبي من الإعدام وجدت الكثير من الكهوف والمغارات والأنفاق المنحوتة في الجبال.

قال راقباً وهو يوضّح للرجل المستلقي أمامه:

- وعثرت على أشياء ثمينة في بعض المرات.. اعتقد أنها ثمينة

لكنها راحت للأسف.

فتح الرجل عينيه فترقرق موج الشمعة الصغير فيهما:

- حثالات من الدواعش يسكنون بيتي.

قال بشكل مفاجئ وزفر نفسًا عميقًا واستطرد:

- كلما أدخل شنغال تقودني الأغنام إلى بيتي فأراهم فيه.

يتبدلون دائمًا لكن بنفس اللحى والقذارة.

قال الرجل الآخر بصوت منخفض كما لو يخاطب شخصًا

غير راقيار:

- كيف حدث هذا...!

ذهب راقيار إلى عمق الكهف وأنزل كيسًا معلقًا وجاء به

إلى بقعة الضوء:

- نأكل شيئًا.

لكن الرجل أعاد تساؤله إلى شيء غير مرئي:

- لماذا حصل كل الذي حصل، ولماذا حدث كل شيء سريعًا..!

فتح الكيس وأخرج من داخله خبز السوني المغمس بالدبس

وتينًا مجففًا وشيشة عسل صغيرة وحبّات خيار وطماطم

وفصوص زيتون:

- الذي حصل مأساة يا صديقي ولكن لهذا تفسير وقصص

محزنة.

اعتدل الرجل حينما رفع نفسه بكسل ومدّ يده إلى قطعة خبز.

- في لحظة الخطر لم نتصرف نحن الأيزديين بشكل صحيح.

قال رافيار وهو يلوك لقمة طعمها بالعسل:

- كل إنسان هو واحد بمفرده.

ابتلع اللقمة الصغيرة وكانت المغارة ساكنة وصوت حفيف

أشجار من خارجها يُسمع بوضوح:

- لا يوجد إنسان وحده في داخله يا أخ.. دعني أتفلسف قليلاً

فالليل طويل.

- وماذا حدث..؟

- الذي حدث أن الإنسان الآخر فينا انهزم بفعل الفوضى

والدعاية والخيانة والغدر.

تقادت أصوات ضعيفة من الخارج لطيور ليلية ليست

بعيدة عن المغارة:

- في لحظة الخطر كان يجب أن يستيقظ الآخر في داخل

الأيديدين ويتحرك بسرعة، والآخر لا علاقة له بنا كأفراد أو

جماعات. إنه الآخر الذي يعي فداحة الخطر وجسامته.

لفّ الرجل قطعة خبز وغمسها بشيشة العسل:

- كان المفروض أن لا نقمع الشخص الآخر الذي فينا ونهرب

كالجرذان. كان علينا أن نترك له الخيار الأخير.

تحركت بعض الأغنام فحُركت رائحة الصوف الرطبة:

- لو تحرك فينا الأشخاص المخفيون في لحظة الخطر لصار

الواحد منا أكثر من واحد بمواجهة الخطر.

التقت نظراتهما على ضوء يتخافت قليلاً:

- في الحقيقة أن الذين ماتوا في دواخل الأيديدين هم الأشخاص

المخفيون الشجعان، وبقي الجبناء الذين لم يتمرسوا في الحياة  
وخدعتها، وداعش تعرف هذا جيداً، لذا استثمرت الفرصة  
الحرجة وهاجمتنا بلا رحمة حتى لا ينهض الآخر فينا.  
شعر سربست أن صديقه الراعي يتصبب عرقاً وهو يلوك  
بالكلمات كما لو أنها تخرج بصعوبة منه. فتساءل كأنه أمام  
حكيم:

- والدين...!

- الدين ضحية تاريخية. في الحروب تضحل مثل هذه الأمور  
أمام المنهزمين، بل تتلاشى ولا يفكر الإنسان إلا بخلص نفسه.  
وخزته العبارة الأخيرة فتحرك من مكانه، وزحف إلى مدخل  
المغارة كأن به حاجة إلى الهواء النقي الذي يطوف على الجبال.  
شعر راقيار باختناق صديقه، ولكي يقطع عليه أفكاراً ورؤى  
كثيرة ويغلق عليه منافذ الذكريات الحرجة قال:

- أمامنا مشوار صعب صديقي وعلينا ببعض الوصايا التي  
تعلمناها يوم كنا هاربين من النظام السابق.

تأمل صديقه الذي يتنفس بصعوبة كما لاح له:

- للمهربين والهاربين من القانون إلى الجبل جِمْم ووصايا  
علينا أن نتبعها لنكسب الوقت ونقلل من الجهود.

انتبه سربست وهو يعيد النظر إليه كالتميذ:

- لا تصعد الجبل باستقامة، إنما بميلان دائم، حتى لا تشعر  
أن المسافة بعيدة مهما كانت بعيدة، وخذ طريقك مع ممرات



## نور الدين

كانت عصا نور الدين تطرق الرصيف بهدوء لتفادي المطبات الكثيرة قبل أن يصل إلى المسجد الكبير، فذاكرته القديمة مشوشة تكاثر فيها الدخان والضباب والبارود، ولم يكن باستطاعته أن يتفادي مفرزة شرطة الحسبة التي تقف في مدخل السوق كقدر يومي عليه أن يستوعبه، لكنه يستطيع مثل كل يوم أن يلقي التحية ويجمال البعض على مضض، ويمضي عابراً الشارع بمساعدة أحدهم، أو من دون مساعدة، حيث يقابله المسجد بمنارته المثلومة التي نالتها القذائف ذات يوم صيفي لا تُنسى سخونته؛ مثلما باحته الخارجية التي ما يزال يتنفس فيها رائحة دم كثير، لا يستطيع أن يمحوها من ذاكرته، حينما يؤدي الصلاة أو يجلس على دكة باب المسجد ويده ممدودة إلى الفراغ.

شم الكثير من هواء نيسان قبل أن تصل عصاه مع آخر حفرة، حينما يتحول الضباب في عينيه إلى أشباح لا تستقر كشاشة منمّشة فقدت لمعانها، فيعرف أن عناصر المفرزة يتواجدون ويرطنون بلغاتهم الكثيرة التي لا يفهم أكثرها سوى الكردية التي كان يتداولها في المدينة.



- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ككل صباح يلقي التحية، وتمضي عصاه تقوده بعد الحفرة الأخيرة لعبور الشارع، منشغلاً بأمور كثيرة يجد دائماً أن كل شيء مات بداخله، وتحول إلى رجل أعمى يبحث عن الصدقات، ويتسقط أخباراً متفرقة يأتيه بها عابرون، ومن بقي من القرويين، وبعض الأوصاب الذين صاروا مسلمين، يترددون على المسجد كل ظهيرة على مضض كما يحسب، وقد تأتيه أخبار من راقيار الذي يغيب كثيراً لبضعة أشهر، ويعود بأغنامه مع الربيع يملأ المدينة الصغيرة برائحة الصوف الرطب، والبعرور، ولا يتكلم كثيراً إلا بحذر حينما يزوره في خرابته التي تأويه، والتي يغيرها بين حينٍ وآخر، ويتخذ من البيوت السنجارية المهجورة أكثر من مأوى كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

لم ينتظر أحداً يقوده لعبور الشارع الوحيد إلى المسجد، غير أن شرطياً استماله لحظة بسؤال مفاجئ لم يعتده، وبلغة عربية فصيحة بانث فيها لكنة غير عراقية:

- يا نورَ الدين.. بالله عليك حدّثني عن حياتك السابقة بين هؤلاء الكفار؟

كان السوق فارغاً إلا من بعض المتسوقين، وعناصر شرطة الجسبة، وثمة سيارة إسعاف يعلو صوتها كثيراً وهي تقترب إلى مستشفى المدينة، كما لو شغلته عن سؤال الشرطي.

حاول نور الدين أن يصغي من جديد وعيناه ترمشان على

الفرأغ؁ ورأسه مغطى ببشماغ مرقط لكنه قال بصوت متلجلج:  
- الحمد لله على كل حال.

عاد شرطى الحسبة يسأل بضجر:

- كيف قبلتم أن تعيشوا بين الكفار كل أعماركم؟

- هكذا قدر القدر لنا أن نعيش في هذا المكان أبًا عن جد.

قال الشرطى بإلحاح:

- الذى يعيش في هذا الوسط الكافر لن يكون أفضل منه.

استجمعت عينا نور الدين الكثير من الشعاع؁ أراد أن يحدد

به مساحة الشرطى اللجوج الذى يتحدث معه؁ فتخيله طويلًا

نسيبًا بلحية منسدلة؁ وسروال عريض؁ ورائحة غير مستحبة.

قال بهدوء:

- الله سبحانه وتعالى يحاسب على النوايا؁ ويعرف ما في

القلوب إنه هو الخبير العليم.

عاد الشرطى يسأل بمزيد من الضجر:

- أتعلمني حكمة الله يا نور الدين؟

- نتعلم كلنا يا رجل؁ فأنا مسلم مثلك أتقى الله وأخافه.

عاد الشرطى بلهجة فيها تهكم وعنف:

- وماذا تظنني يا أعمى!

- العمى ليس عارًا.. إنه اختبار الله لعبده يا أخ.

وحينما صمت الشرطى تمسك نور الدين بالعصا؁ وثبت يده

المرتعشة متممًا:

- استغفرُ اللهُ وأتوبُ إليه.

همُ بالانصراف متحسِّسًا الرصيْف بعصاه اليابسة، متلافياً  
المزيد من الحديث مع شرطي الحسبة العجوز مجهول  
الجنسية بالنسبة له، فاستدار متنبِّهاً إلى حفيف الصمت الذي  
يملاً المكان بعدما سكت صوت سيارة الإسعاف.

لكن الشرطي تابعه بصوته الغليظ، كما لو يريد تبرير صمته  
الطويل:

- هذهِ خَوَاتِيمُهَا لَكُمْ يَا مَنْ تُعَاشِرُونَ الكفرةَ. عميانٌ وعرجانٌ  
ومقتولونٌ وسبايا.. لعنكم الله.

خفَّ الأعمى قدميه من دون حذر، وهو يعبر الشارع تسبقه  
عصاه وصوت الشرطي يتابعه مثل لعنة، محاولاً أن يوسع من  
البصيص الضئيل الذي يسعفه في النهار، وهو يرى الحياة عبارة  
عن ضباب يتحرك بلا ملامح واضحة، لكنه يستطيع تخمين  
بعض الأشياء حينما يعيد الحياة إلى ما قبل سنة ونصف، قبل  
أن يصبح أعمى، وقبل أن يحترق نصف جسمه ذات ليلة كانت  
شديدة السخونة، فقد فيها كل شيء فخرج إلى سنجار لا يرى  
شيئاً سوى الضباب والدخان والظلام الكثير.

## هـ- جبل السباع

### عجائز استحوذوا على الدين

الطريق الصاعد في الجبل متعرج بعرض قدمين، تقطعه صخور ونتوءات وبروزات شجرية قديمة وطين يتحرك مع مجرى المياه النازلة، مظلل بأشجار السرو المتصاعدة على السفح، وهي تتكاتف حتى تصير غابة معتمة كلما صعدت إلى أعلى، وبدت مغسولة بأمطار غزيرة ما تزال تنسكب بلا توقف منذ أكثر من ساعة، فيما كان راقيار المتقدم على رأس القطيع ينادي سربست: - لا تجهد نفسك. تعرف طريقها إلى الكهف.

كانت شلالات صغيرة تتدفق في طريق الصعود، بخطوط متعرجة بين الأعشاب الخضراء المتكاثفة حول سيقان شجيرات الذئب الأخضر، وكان سربست يرى رأس صديقه قد دخل في الغيوم والمطر الذي اندلق كثيراً على رأس الجبل « كيف عرفت كل هذه الطرق يا رجل! » لكنه غالب تعب حائماً بعصاه بقايا الأغنام الصاعدة الملتكنة، محاولاً ألا ينزلق، بينما كانت ظلال الغيوم ورؤوس الجبال تتدفق بطريقة جلبت معها المساء المبكر، والكثير من أوراد ملكة الجبل الزرقاء الصغيرة التي

تھاوت مع السواقي الصغيرة التي زادت فيها كميات الأمطار. دخل راقيار بين الغيوم حتى كاد يضيع، ومعه القطيع الذي استقام على خط متعرج زلق صاعد إلى السماء، وبقي سربست يغالب ارتباك الصعود مع النعجة الأخيرة التي ظل يرفعها من إلتها ويدفعها دفعًا متطلعًا إلى الغيوم التي كان راقيار يأكل قطعًا منها.

ازداد تدفق المطر كما ازداد التحام الغيوم، حتى شكلت طبقة رمادية كثيفة أسبغت على الفضاء عتمة مبكرة.

صاح راقيار الذي خرج من بين الغيوم فيما كان القطيع يختفي في شق طولي غائر في خاصرة من خواصر الجبل:  
- أسرع فالمغارة دافئة.

لحق به محاذرًا الانزلاق، حاملاً النعجة الأخيرة على صدره التي تلقفها منه راقيار وألقاها بين القطيع المتزاحم في مدخل المغارة. فدخل سربست وراءها، وهو ينكث شعره الطويل، ويمسح لحيته الخشنة، شاعرًا بالجهد الذي بذله في مطر ظل يزداد تدفقًا على الجبل.

- كيف توصلت إلى هنا.. أين وجدت هذا المغارة؟

- لا تسأل مهزبًا وهاربًا قديمًا عن هذا هههه، هذه قمة السباع التي يحكون عنها كثيرًا.  
أكمل بطريقة بسيطة:

- يحكون في قديم الزمان أن هذا الجبل هو جبل السباع،

ومن الصعب اجتيازه، وكثير من المهربين واللصوص الذين مروا من هنا لم يعودوا.. أكلتهم السباع.

تزاحمت الأغنام في نفق داخل إلى عمق الجبل، وبدأ لعيني سربست أن هناك أنفاقاً متعاقبة تبعا لطريقة حشر القطيع في أكثر من زاوية، فيما كانت رائحة مختلطة من رطوبة ونثار أعشاب ذابلة، وأخرى غامضة، يتشممها سربست كما في كل غارٍ أو كهف يدخله في هذه الرحلة الغامضة؛ وظل صوت المطر المتساقط على الأشجار العالية يُسمع بوضوح، واصطفاق الرعد يهز المكان بوميض مترادف، ينير بين لحظة وأخرى شيئاً من جوف الغار بطريقة شبحية استطاع من خلالها سربست أن يحدّد سعة المكان المتبقي لهما.

خرج راقيار من الفوهة المحشورة بين صخور ناتئة وجلب أغصاناً مقطوعة ومبللة، وضعها في مدخل الغار بعد أن انحنى ودخل؛ كستار بسيط يمنع دخول الحيوانات الليلية المتوقعة الهاربة من المطر.

- هذا عرين قديم للسباع.

جلس مقابل صديقه وهو يضع كيس الطعام على الأرض بينهما:

- الباقي يومان لنصل إلى أولى نقاط داعش، وعلينا أن نسلك الطريق إليهم مباشرة من دون التفافات، فقد تصادفنا كمائن مفاجئة، ولا نستطيع التصرف بحكمة.

- هذه الأمور تقع على عاتقك سيد رافيار.  
وقال بضعف أحسه من ضعف روحه المرتابة بكل شيء:  
- أنا تحت أمرتك صديقي، لا يهمني غير ابنتي فهي خلاصي  
ونجاتي.

- سيهون كل شيء، بعظمة خودا سنجدها هذه المرة وستعود  
إلى لالِش بيضاء مثل ماء زمزم.

ران صمت قصير سُمع فيه عواء ذئاب بعيدة، وأصوات ليلة  
متنافرة، وحركة أغصان متواليّة، وهبوب رياح تتخلل الأشجار  
فتصدر صريرًا متنوعًا كأنه نواح.

- أثق بك لأنك إنسان، لا لأنك أيزيدي مثلي، فالأيزيدية فكرة  
من أفكار كثيرة موجودة على الأرض.

التفت إليه رافيار لكن سرّبت أكمل:

- حصل الكثير خلال الفترة الماضية، وربما سيحصل الأكثر  
ونحن في ضياع مطلق.

- التاريخ يعيد نفسه بطريقة أكثر بشاعة، أو لنقل بالبشاعة  
ذاتها، لكن بوسائل أكثر قسوة ووحشية.

- نحن ظلمنا أنفسنا كثيرًا صديقي، تاريخنا سري وغامض، ولا  
معنى له.

- لحاجات في نفوس رجال الدين حينما عمدوا إلى تجهيل  
أجيال كثيرة حتى يبقون في صدارة الدين.  
- يبدو أن معظم الأديان تعاني من هذه المشكلة.

. لا سيما حين صار الدين وسيلة من وسائل السلطة  
والسياسة.

- التجهيل يضمن لهم البقاء والاستمرارية.
- قضم راقيار تفاحة صغيرة أخرجها من الكيس المتكوم أمامه:
- أظنك كنتَ يوماً في شنغال بعد الهزيمة.
- كنتُ..
- لكنك كنت مهزوماً أكثر من الذين فروا إلى الجبل.
- صح.. كنت هكذا.
- غياب ابنتك هزمك أكثر من مرة.
- وما زالت الهزيمة بي حتى أجد نشُثمان.
- إذا وجدت ابنتك هل ستنتصر؟
- لا.. أبقى مهزوماً للمرة 74
- تكررت الهزائم والتاريخ واحد لا يتغير كلما تقدم.
- وستعود.. لأننا لا نتعلم من التاريخ.
- وما الذي يجب أن نتعلمه؟
- الكثير والكثير والكثير.
- لكن الـ 74 غزواً لم تعلمنا شيئاً!
- لأننا لا نريد أن نتعلم.
- وهل ننتظر 74 غزواً آخر حتى نتعلم؟
- مشكلتنا في السلف الصالح الذي أغلق على الأجيال منافذ  
المعرفة، فلم تكن له بصيرة إلى المستقبل. كهنة عجائز استحوذوا



على الدين وخذعونا على مر التاريخ بضروراته السرية، ونَسَب  
الدم، ونحن أبناء قابيل، وأرواحنا تتناسخ، إلى آخر هذه  
الخرافات. لهذا كانت الغزوات بلا رحمة.  
- معك حق.. كل شيء أصبح مكشوفاً في هذا العصر، وأولها  
الأديان.. الأديان صارت لعنة البشرية حينما تحولت إلى دفاتر  
سياسية وشعارات مذهبية وطائفية.

## الراضوع / ٢

### 1

. - هاتوا عائشة.

بدا أمير الأمراء الشيخ أبو العينين متذمرًا، وظل وجهه الأصفر النحيف يشي بمرض غير معروف، يغالبه الجفاف في أكثر الوقت، وقد قلَّ وزنه كثيرًا، فتفرقت الصبايا السبع على الفور، وزررنَ قمصانهن النظيفة على أئدانهن الصغيرة وهنَّ صامتات، منعتهات قليلًا من وقت العجوز الذي لم يكف عن رضاعتهنَّ منذ ساعتين بالتناوب.

يغفو ويصحو على أئدانهنَّ الناعمة، ويبلع ريقه، ويهذي ويردد الكثير من الجمل الطويلة غير المفهومة حينما يرفع فمه من هذا الثدي أو ذاك، ثم يعود يرضع كأنه طفل حتى يغفو على ثدي صبية، لم تجد مفرًا سوى أن تبقى مفتوحة الصدر، وإحدى حلمتيها في فم العجوز المريض الذي لم يلمح التقزز في وجهها، ولم يشعر بتنمل جسدها البكر وقشعريرته الخائفة، حتى يطلب أخرى غيرها من الصبايا السبع المرابطات قرب

سريره على مضض، ليرضع بشراهة ثديها الناشئ، ثم يعاوده  
النعاس أو مفعول المرض الذي داهمه منذ أشهر قريبة. ثم  
يتكلم مع أشباح في السقف، ويبتسم ويهز رأسه موحياً بأنه  
يتلقى كلاماً من ملائكة أو أشباح غير مرئيين، أو ما شابه ذلك.

## 2

خرجت الصبايا السبع بالتتابع، وأطلت امرأة رشيقة منثورة  
الشعر كالغجيرة- تصطحب الصغيرة التي أسموها عائشة،  
فبدت كأنها عشبة منزوعة من سنديانة أصغر منها. مترددة  
وعيناها الزرقاوان غارقتان بالدموع كما في كل يوم، عندها فتح  
العجوز عينيه متشماً عطر الصبية التي اقتربت منه حذرة،  
ببيجامة وقميص شفاف بلا حمالة صدر، كما درجت العادة  
في هذه الغرفة.

خرجت المرأة منثورة الشعر وأغلقت وراءها الباب، ولم  
تستطع عائشة أن تمنع دموعها من الانزلاق على خديها.  
- ما زلتِ تبكين؟ ألم تخلص دموعك يا عائشة.. تعالي.

تقدمت الصبية مرتعشة كورقة، وهي تنظر إلى وحش ضامر،  
لم تستطع منذ أشهر أن تنظر إليه إلا بهذه الصورة، فتهتز  
روحها، وتندلق دموعها بغزارة، حتى وبختها إحدى الصبايا  
ذات ليلة: سيقنتك هذا الوحش.. انتبهي لنفسك.. يتخيل  
نفسه نبياً هذا المجنون.

كانت تنظر إلى الكتلة البشرية بعينين من ضباب، وكانت الكتلة تبتسم بأسنان مبرومة صفراء فوق لحية مبعثرة كما لو أنها نبتت على جسد معزلة، كما يمكن للصبية أن تتخيل ذلك في لحظة صدرها الذي فتحته المرافقة منثورة الشعر في باب الغرفة العريضة، وهي تدفعها بهل إلى سرير العجوز.

- تعالي.

كان النداء ضعيفاً كأنه خرج من عينين ميتين، وحينما تقدمت الصبية الباكية كان الوجه الأصفر يناديها بالشهوة المعروفة، وهي تتعثر بخطواتها حتى صعدت السرير ونهدها الصغير يقرصها.

- ألم تشبعي من البكاء؟

كانت عيناها الزرقاوان ممتلئتين بالضباب الرطب، وهي تغرزهما في عينيه الضعيفتين، ويدها اليمنى تمسك ثديها الأيسر.

- ما سرك يا صبية؟

طققت بأصابعها النحيلة وأدامت النظر إليه بعين الاستعطاف المتكرر.

- أتألم.

خرجت الكلمة منها من دون أن تدري.

- وكيف تتألمين؟

تساءل بصوت ضعيف. ثم أشار بيده إلى صدرها.

- تعالي.. اقتربي.

زحفت على السرير مرتعشة وجسدها يختض، وبركت أمامه وهو لائم وما تزال يدها تمسك ثديها العاري من تحت قميص البيجامة. وكالت عيناه تنفرسان بزاوية القميص التي أغلقتها يدها الممدودة على الجهة اليسرى.

- تتحايلين دائماً بالبكاء.

- أتالم يا شيخ.

أزاح يدها وفتح قميصها على وسعه، ومدّ ذراعه لتنام عليها بصورة مائلة.

- ما زلت متعطشاً لحليبكنّ يا بنات.

- ما عندي حليب يا أمير.

- أنتِ الوحيدة التي لا أشبع من ثديك يا عائشة.

- أنا لسه صغيرة يا أمير.

لمس ثديها الناعم وعصره بخفة:

- حليبُ العذارى شفاءٌ للمؤمنين يا عائشة.

- أنا ما عندي حليب، لسه صغيرة يا أمير.

- صار أكثر من سنة ونصف وأنتِ معي، تدرين حليبكِ حتى

شفيئُ في أوقات عصيبة.

أعادت الالزمة عليه:

- لكن ما عندي حليب يا أمير، صدري يؤلمني، تعبت.

- هذه وصفةٌ نبويةٌ جاءت من السماء.

نظرت بعينين اختلطت زرقاة الماء فيهما، وهو يتحدث نائمًا  
وذراعه ممدودة تحت رأسها.

- في الرؤيا قال لي سيّد المرسلين رسولنا المصطفى الأمين مُحَمَّد  
عليه أفضل الصلاة والسلام؛ أن في حليبِ العذاري شفاءً وغذاءً  
ودواءً، وتكررت الرؤيا عليّ أكثر من مرة.

نشجت وحاولت أن تضبط ارتعاشات جسدها، ونهدها الصغير  
منقبض بين أصابعه، ثم مال عليها وسألها فجأة:

- أتحنّين إلى اسمكِ القديم؟

كانت عيناها تبرقان من تحت الزرقاة المضطربة فيهما، واسمها  
القديم يطوف فجأة أمامها كما وردة تفتحت للحظتها، لكنها  
وجدت في عينيه وميضًا غريبًا فأحنت رأسها على ذراعه تتفادى  
ذلك الوميض المرعب الذي تعرفه.

- ارضع يا أمير.

أخرجت نهدها المرتعش من زيقها.

- خلصتك من اسمِ نجس، ومنحتكِ اسمَ أشرفِ النساء يا  
بنت.

ردت بقلق:

- ارضع يا أمير.

همس وعيناه تتوجهان صوب سقف الغرفة:

- عائشة.. أحبُّ الأسماء إلى قلبي، إنها رؤيا تراودني دائمًا. أنا  
عبدُ صالحٍ ووليكَ وسيدكِ يا بنت.

حاولت أن ترفع من صدرها وتضع حلمتها الناعمة بين  
شفتيه، لكنه كمن كان يتحدث مع السقف:

- سأكون يومًا نبيًا، ويمشي العالم على حدّ سيفي وساطوري.

فزّت الصبية قليلاً، وبقيت منصّة وخائفة:

- عائشة.. أيتها الوحي الصغير الجميل، والملاك الأزرق الذي

يسكن روحي وقلبي وجسدي.

حاولت أن ترفع رأسها لكن الخوف شلّها، وبقيت تنظر إلى

السقف مثله:

- حليبيك طاهرٌ وأنتِ طاهرةٌ في الدنيا والآخرة. فيك الشفاءُ

ومنك الدواء وأنتِ الغذاء يا بهجة السّكران في محبتك والضالع

في عشقك. أنا نبيك ووحيك وملاكك أيتها الغائبة الحاضرة في

مساربِ روحي والذائبة في محبتي. أنتِ الليلُ والنهارُ والفجرُ

والضحى والغروبُ والشروقُ والغسقُ والشفق، يا بهجة

المبتهجين عائشتي الكبيرة.

ران صمت مريب وخشيت الصبية أن يسمع العجوز اختلاجات

قلبها، وما يزال نهداها عاريًا لكنه انكمش كثيرا، وانسحب إلى

داخل ثوبها كفأرة مذعورة.

- عائشة.

كانه صدى فخم هدر في الغرفة الميئة، يحمل الاسم في لغته

فخامة لا تدرکها بسهولة، لكنها تعي غيبوبة هذا الكائن

المخيف. حينما يتجلى ويتوهم ويسوّق نفسه إلى كائنات لا

تراها قبل أن يغفو ويشخر ويممص شفثيه ثم يستفيق فجأذ:

- هل صليتي العشاء يا عائشة؟

فزت وارتعدت مفاصلها فتلعثمت:

- لا.. ط.. ط.. طلبتني وأنا أتوضأ.

قال وهو مغمض العينين:

- كوني عائشة، وتخلصي من اسمك النجس القديم، عندها

ساقبلُ صلاتك قبل أن أكونَ نبيًا أيتها الأيزيدية الكافرة!



## ٦- جبل الخفافيش

### كانها رياح خضراء

أياها الحق أنت الملك	هه قو تو بادشاهي
أنت خالق الشمس والقمر	خوداني مه هرو ماهي
أنت رازق الإنس والجن	رهزاقى جن وئىنسى
أنت رب العالم القدسي	خودايى عاليه ما قودسى
أنت خالق الجن والإنس	خالقى جن وئىنس

«دعاء ما بعد الصلاة الأيزيدية»

- على بركة خودا نخرج.

كان رافيار قد جمع محتويات الصرة من العسل والتين المجفف والخبز وبعض العلب الصغيرة، وعلقها على ظهره متمسًا طريقه بعصاه إلى باب الكهف، وهو يردد الدعاء أكثر من مرة بهمس يسمعه صديقه:

أزاح الأغصان التي وضعها عائقًا في باب الكهف، فوجد الفجر رصاصيًا باردًا، وكفت الأمطار عن الهطول فبدأ الجبل أخضر مغسولًا كله، وبصوت متكرر منه لم يستطع سربست، أن يفهمه

أو يستوعبه بالرغم من أنه يسمعه يوميًا، هبت الأغنام من  
ممرات الكهف، وتدفقت من حلقه المفتوح إلى الخارج، عاملة  
فوضى ومثيرة رائحة صوف وغبارًا ناعمًا، وبقي سربست ينتظر  
خروج آخر نعجة، فتبع القطيع الذي سار بخط متعرج، وهو  
يهبط إلى الوادي تحت غلالة الفجر الوليد متأبطًا عصاه، وقد  
وضع قبعةً على رأسه وعيناه تمسحان المكان، حيث الشمس  
تبكر وتنشر ضوءها الأول المتفرق بين القمم السوداء.  
- يا خودا العظيم.

لا يعرف لماذا قال ذلك، لكنه بهاجس لا يعرف مصدره  
أكمل الدعاء مرتين في سريرته، وهبط محاذراً الانزلاق في الممر  
العشبي المبلل الذي سلكته الأغنام في انحدارها السريع، بينما  
اختفى راقيار في مقدمة القطيع مع بقعة ضباب غمرته فيها  
مع أشجار السرزو المصطفة على المنحدر الوعر.

كان الصباح مشمسًا ونثار غيوم مازة على رؤوس الجبال فتمر  
ظلالها سريعة، وتنسحب معها، تاركة فيوض الشمس تطل  
على الجبال والسفوح والأودية العميقة التي يتبدد فيها ضباب  
شفاف، فيكشف عمق الوادي وعمق الانحدار فيه.

كان راقيار قد ارتدى فروة خروف أخذها من الغار، حال  
لون البياض فيها، وهو يتقدم القطيع، وبقي سربست خلفه  
شاعرًا برطوبة الغار ما تزال في جسده، وهو يهبط في ممر  
مبلل بأمطار البارحة، وكان يقطف أوراقًا صغيرة من شجيرات

متتالية وياكلها، شاهراً عصاه على النعاج المتخلفة؛ فيما بدت قامات السرو شاخصة عند المنحدر تتدرج بالتتابع. وعند النبع المنخفض في الوادي الأصفر تجتمع القطيع، وانتشر على قوس الماء الأزرق الضارب إلى الاخضرار بسبب أشجار البلوط التي تدور المطلة والتي تنعكس ظلها الطويلة عليه.

- سقية الصباح للأغنام.

قال راقيار لصديقه:

- علينا أن نستفيد من النهار المشمس، وسنكون اليوم عند أول نقطة داعشية، لكننا لا نغامر في الدخول مساء. نبيت الليلة في مغارة الغزلان التي أعرفها، وغداً صباحاً ستبدأ رحلة المتاعب الحقيقية.

- ثم عليّ أن أخفي المسدس والساطور حتى العودة.

صاح على الأغنام بصوت خليط غير مفهوم، وارتجل نداءً غامضاً فسار القطيع وراءه متعثراً بين الصخور الناتئة، والأشجار المائلة، وبقي سربست في نهايته تعلقو عصاه وتنخفض على الأغنام المتأخرة التي بقيت مرابطة على حافات النبع، وكان يرى خط الأغنام المنحدر كأنه سلسلة طويلة تتصاغر كلما هبطت مع المنحدرات السريعة والالتفافات المفاجئة.

سحب راقيار من زيقه الشراشال الطويل، وتفحص ثقبه ثم وضعه في فمه وهو يتمهل بعدما اطمئن إلى سلامة القطيع النازل، فخرجت من بين شفثيه أشجان بطيئة أول الأمر، بدد بها

وحشة المكان، فترددت أصداؤها خفيفة كأنها رياح خضراء، ثم تصاعدت بوتيرة غريبة حتى أدركها سربست في آخر القطيع، وتمايل مع النغم وأرهف أذنيه، وحلّ شجن عظيم لم تشوش عليه حبات المطر ولا النسائم الباردة؛ هو الشجن غير المستر الذي ضرب روح سربست فأدمع عينيه، فيما ترادف صدى الشراشال بنوبة عالية، وهو يحاكي أرواحًا في نغمات بقيت تتدفق كموجات ضالّة في برية خضراء، تلقفتها الجبال والسهول والوديان والأشجار والأمطار والقرى المحشورة في بطون الصخور، فتوحدت صورة «خدر فقير<sup>(23)</sup>» من دون صوته، بصورة فيها من القسوة والأم، ما جعل عيني سربست تبتلان هو يتلقف الصدى الحزين في رأسه وقلبه وروحه.

---

23- الأشهر بين المغنين الأيزيديين الراحلين . وهو من الذين حافظوا على التراث الأيزيدي المحلي، وما يزال العامة يحفظون الكثير من أغانيه التي تتسم بطابع الحزن.

## صلاة الأعمى

أنهيتُ صلاة الظهر بعجالة، وقد شوّشت عليّ أصوات متقاطعة، لم أفهم سر لغتها في الباحة، فانقذتُ وراء الأصوات المتداخلة مستعينًا أيضًا بضوء الشمس الذي يدلّف من شبابيك الجامع. درجتُ أخبط بعصاي منصتًا بحواس كاملة لمصدر اللغظ، لا ينتابني القلق بقدر ما دفعني الفضول لمعرفة الفوضى الصغيرة التي جعلتني في عجالة من صلاتي بسبب عدم التركيز، فالأصوات الأخرى لا تجعلني ذا تركيز كامل وأنا أؤدي صلاة الظهر.

كان أكثر من عنصر في شلّة «ابن تيمية» يمسون بخناق شاب يتوسل باللغة الكردية التي أفهمها، وكان بينهم أبو المعتز؛ عرفته من صوته؛ الذي لفّ ياقة قميص الشاب على عنقه؛ أعتقد ذلك؛ كمن يريد خنقه والشاب يعده بأنه لا يكرر فعلته بقص لحيته، وأن ما حدث لم يقصده. وكان يستنجد: دخیل خودا.. دخیل محمّد..

كان يبكي ويتوسل ولاشك أن وجهه كان مذعورًا بلونٍ أصفر؛ أو تخيلته هكذا؛ غير أن أكثر من عنصر من الشلّة القاسية كان يدفعه إلى داخل الجامع بالدفع والضرب والبصاق.

جلستُ على الدُّكَّة في باب الجامع حتى هدأت الضجة التي أحدثتها بعض عناصر الشَّلَّة، ويبدو أن الحلقة التي كانت تمسك بالشاب حليق اللحية انفضت بعدما أدخلوه إلى إحدى غرف الجامع، وبقيت أستعيز بالله وأتمتم بخفوت، وفي رأسي تتناوب صور كثيرة لعقوبات شهدتها على مدار سنتين في هذا المكان لأي سبب بسيط، غير أن هذه العناصر من شلَّة ابن تيمية، وجماعات النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، لا يتهاونون في سبيل تطبيق شريعة الدين بقلوب حجرية، وطرق مبتكرة وغريبة وموجعة جدًا، لست قادرًا على أن أتذكرها فقد دربتُ ذاكرتي على النسيان، وعيني على الخيال وعصاي على الهمس، فأنا رجل مكتظ بالتفاصيل الغنية التي لا أريد لأحد أن يطلع عليها، ولا يهمني من أمري سوى أن أتزوج من جديد صبيَّة سابعة أو ثامنة، إلى ما شاء الله أن يهبني من فضله وعطفه، لأكون بمستوى سنجاري التي ضيعها هؤلاء ومسخوا أهلها، وأوهموا القلة المتبقية منهم بالسلام والأمان لمجرد إطالة اللحية ونكاح الصبايا.

يعود بعض أفراد شلَّة ابن تيمية يتخبطون، ويتضاحكون بلهجات رملية لا أستسيغها كثيرًا.

يناكدني أبو المعتز وظله يغطي وجهي:

- أمسكنا بواحدٍ من ربعمكم زِين لحيته.

بقيت صامتًا لكنني ابتسمت له ببلاهة فعاد يقول:

- تعرف يا نور الدين أن زَيَّان اللحية عقوبته الجلد.  
- أعرف.

جلس إلى جوارِي وجلس عنصران آخران لم أتبينهما بعد.  
- لا أدري لماذا لا تطبقون شريعة الله يا نور الدين.

- الحمد لله على كل حال يا أبا المعتز.. هذا شاب لا يعرف  
أصول الشريعة ويحتاج إلى تنبيه حتى يتعلم.  
- يحتاج إلى كم جلدة حتى يجي على الطريق المستقيم.  
قلت باستسلام:

- أنتم أعرف مني بالشريعة وتطبيقاتها.

- العقوبة تختصر الطريق إلى الشريعة.

قلت بمرارة لم أظهرها كثيرًا:

- لكن الشاب كان يستنجد بالله سبحانه وتعالى ورسوله  
الكريم، وأقسم أنه لن يخلق لحيته بعد الآن.  
على الفور رد أبو المعتز:

- هذا كاذب.. ثم أن الله سبحانه وتعالى خلقنا بعقل، وهذا  
الشاب بالغب، ولا يحتاج إلى توجيه، واستنجاهه بالرسول الكريم  
لا يعني شيئًا!

كنت أحاول أن أقوده إلى ما في رأسي بطريقة سرية وغامضة:

- لنترك موضوع هذا الشاب يا أبا المعتز، ففي ذهني بعض  
التساؤلات ولم أجد أخيرًا منك ومن الجماعة أن يوصلوني إلى  
بعض الحقائق.





## ۷- جبل الصقور

### شنکال مسقط القلب

قاي هه ر هه فت ده ركه هيت قودره تي كه ي  
هه رجار كليليت مه عريفه تي كه ي  
مه بخودان بكه ي: زهاري، زماري / ز تاري، ز دويشتكي، ز  
دوزي، ز ده ستي هارا، ز غافل،  
خودا نكه ي: زكوري بوختان، ز هه فتيو  
دوو ملله ت، زهرده هه زار خولياقه ت

بحق أبواب الغيب السبعة  
ومفاتيح المعرفة الأربعة  
أحمنا: من المجنون، المتهور، الحيّة، الظلام، العقرب، اللص،  
ومن المغفلين  
واحفظنا من: من الكذابين والعدال،  
وأحمنا من اثنين وسبعين ملّة وثمانية عشر ألف مخلوقاً  
من دعاء نجمة الصبح الأيزيدي

## 1

قال لي صوت من داخلي أن نمكث الليلة على سفح الجبل،  
ونترك عبور السهل إلى الغد، فهذه قمة الصقور المطلة على  
شنگال، فامتثلتُ له بشعور صريح من أنني متعب فعلاً، بعد  
عناء الأيام الستة التي مضت في صعود ونزول الجبال، وعبور  
الوديان والمبيت في الكهوف والمغارات.. لم يبق إلا السهل الأخضر  
الواسع المشبّع بالأزاهير والأوراد وشقائق النعمان والروائح الطيبة  
في اليوم السابع، لذلك تبعت الصوت الذي يأتيني بين حين  
 وآخر، وارتأيت أن نقضي الليل على السفح الأخير للجبل مع  
الأغنام، مع أن الوقت كان مبكراً، حيث بدت الغيوم التي كللت  
الجبل تنحدر باتجاه الشرق، تاركة للسماء زرقها الأليفة عصرًا.  
بررتُ لصديقي المثلثل بالتفكير:

- في السهل سنكون مكشوفين، لذا سنقضي الليلة على هذا  
السفح بين الأشجار والصخور، فالجو مريح، وبتناوب بحراسة  
الأغنام، وما تبقى هو المرصد التونسي لا غيره.

ولكي أطمئنه:

- هناك أصحاب فيه يعرفونني، بخاصة المجاهد التونسي أبو  
الخير.

ثم ملتُ عليه وأنا أضحك:

- هذا جمّع أموالاً طائلة، ويريد أن يخلص بجلده، وعلينا أن  
نستغله.

ثم قلت لسربست:

- سنضع الفائض هنا في أي شق جبلي. الحربة والساطور والموبايلات. يجب أن نظهر أمامهم راعيين لا نملك شيئاً سوى هذا القطيع.

تركنا القطيع يتجمع عند حاضنة عشبية، فيها الكثير من الماء الطافح، كوّنتها أمطار الأيام الفائتة، وكان سربست يحدق في الأفق المفتوح بعد أن انتهت رحلة الجبال الدائرية إلى شرق سنجار، وبدأ لي كأنه يشم رائحة المدينة الصغيرة، واحتراقها، ويستقطر وجه ابنته الغائبة في هذا التيه الداعشي المعقد.

جلسنا على صخرتين متقابلتين وأشرت له عبر السهل المترامي:  
- هناك المرصد الأخير الذي لا بد وأن يمر منه، وكما ترى فالأرض مفتوحة، والآن ينظرون إلينا بنواظيرهم.  
وأكمل:

- لا بد من المبيت.. أريدهم أن يرونا تمامًا، ويبلغوا أبا الخير التونسي.. الآن مجازفة اجتياز السهل من دون تصريح.

همس بصوت خائف أو متعب:

- نعم.. تلك هي قرى شنغال.

- كنْ هادئًا.. لا تنس أنك كردي، وتؤمن بدولة الخلافة الإسلامية، أحفظ هذه اللازمة السخيفة، كما أنك تؤمن بخلافة أبو عمر البغدادي خليفة للمسلمين.

- لعنه خودا في الدنيا والآخرة. سارق ابنتي.

- اش اشششششش.. نحن راعيان على باب الرب، ولا علاقة لنا بالكرد والعرب ولا بأحزابهم وطوائفهم العفنة.
- هذه الخلافة العفنة. هذا الرعب الذي سرق ابنتي واغتصبها.
- علينا أن نحاذر من الألغام. في الصباح سيكون الأمر أكثر معقولة.

هز رأسه وعيناه تغرقان في الاخضرار القريب الذي يملأ المساحات أمامه.

- لن ندخل شنغال مباشرة.. علينا أن نجوب أطرافها.
- صفرتُ للقطيع المتناثر نسبياً ولوحت لها بالعصا وجمعته عند رابية وحاصرته بين شجيرات وصخور مرتفعة، ثم اتخذت واجهة جانبية أطلُ من خلالها على السهل، وفي رأسي أكثر من فكرة، بينما بقي سربست في مكانه يراقب الجهة الشمالية، وكان المساء يتقدم ببطء حتى اسودَّ السهل أمامي.

## 2

من نقطة التفتيش الأخيرة، أو الكمين الأخير قبل الدخول إلى شنغال، كدتُ أختنق وأنا أشم رائحة الحقول والبيوت والقرى المتباعدة ورائحة نشُثمان، وأتطلع إلى أشباح المدينة غير البعيدة، وكنت مستفزاً وحذراً وخائفاً، فانا أعول على شطارة راقيار، وألمعيته وعلاقاته مع دواعش الحدود والجبل، وهو أمر لمسته فوراً من الكمين المتقدم الذي فاجأنا، يقوده

مقاتل سمين بعض الشيء، تتدلى لحيته على صدره كثيرًا، وكان  
يمسد على ظهر المرياع الذي وقف أمامه كأنه يعرفه.

قال لراقيار من دون مقدمات:

- أبلغنا بصدور أمر إلقاء القبض على شخص أيزيدي، وهو  
أستاذ جامعي اسمه رشو، متهم بحيازة كتب ممنوعة وخطيرة،  
كتب الضلالة والكفر الشيعوية والماركسية والشيعية وغيرها.  
بقي راقيار ساكتًا، وجسمه المربع ثابتًا، فيما أكمل الملتحي  
السمين:

- إن كنتما قد رأيتما مثل هذا الكائن الكافر في الجبل؟

راقيار أخبر الشرطي الذي تسلم منه كيسًا صغيرًا، لا أعرف  
محتوياته من أنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل، وأن أستاذًا  
جامعيًا سنجاريًا بهذا الوصف والاسم ربما هو خارج العراق،  
أو أن المعلومة تحتاج إلى تفصيل آخر، لكن الشرطي الملتحي  
قال هذه أوامر وعلينا متابعتها وأن الأستاذ الجامعي يتخفى  
ولا يستقر في مكان معين.

وقبل أن نلم القطيع المتناثر وننحدر إلى المدينة قال السمين:

- الواجب الشرعي يقتضي منكما أن تحضرا إعدام مكتبة  
هذا الكافر في ساحة الجامع، بعد صلاة الجمعة حتى نجلبه  
شخصيًا، ونحرقه هو وشيوعيته الكافرة.

تعانق راقيار مع السمين، ثم صافحني، وشدّ على يدي حتى  
خلته سيقطعها، لكنني هرعت إلى الأغنام التي تفرقت مع

العشب، وقلبي يخلق كما لو أنه سيخرج من صدري.  
 تلبسني المكان والرائحة والمرأى الحزين لشنگالي المغتصبة.  
 لكن رالفيار قال بحزم وهو يدخل في رأسي بشكل مفاجئ:  
 - يا أخي عليك أن تكون طبيعيًا. للحزن وقت غير هذا، نحن  
 في مهمة حساسة وأي خطأ أو شك سيحرقوننا في الجامع، انس  
 ابنتك وشنگالك وذكرياتك وكن مثلهم إلى أجل قد يطول بنا،  
 فلعلنا نجد مخرجًا ببركة خودا وطاووسي ملك.  
 تمتث بشيء كالمخدول محاولًا أن أستعيد توازني، وأقلل من  
 ارتبائي، وأنا أخطو إلى شنگال مسقط روحي وقلبي، ورأسي  
 يتصدع مغمورًا بفيوض رؤى كثيرة هاجمتني فورًا حاولت  
 حبسها فلم أستطع؛ فبكييت جالسًا تحت منخفض تظله  
 شجيرات صغيرة مزهرة، متسترًا أيضًا بوليد نعجة ظل هادئًا  
 معي وهو يمسح وجهه في صدري.

### 3

ياره بي ليك نه ما ل تاوى  
 ياره بي نه ز كه تيمه تاويمه، ت وده رمانى  
 هه م ت وده واى، ت وده رمانى  
 هه م تو طه بيبى تو حه كيمى ته م دغه ريبين  
 ياره بي تو دزالى دهر دو ده رمانى مه ل كو دى  
 يا رب أنا العليل المريض

أنت الدواء

أنت الداء والدواء أنتَ الطبيب، أنت الحكيم، ونحن الغرباء

يا رب. أنت العالمُ بدائنا ودوائنا

من دعاء طاؤوس ملك / 12

بدأ الصباح المبكر هادئًا وباردًا بروائح برية مختلطة، وكنت أعرف أن سريست لم ينم، فقد ظل في قلق دائم يجوس الليل منفردًا، وقليلًا ما تحدث معي، فمدينتنا على مرمى النظر ونشتمان هناك؛ في مكانٍ ما من شنغال ومعها كثير من الأسيرات، ومعني أمل جديد أن أشتري بعض السبايا بفدئٍ جلبها لي بعض الأهالي لأهزبهنَّ عبر الجبال والوديان بمخاطرات لا أدركها إلا عندما أخرج من عنق جنود الخلافة الدواعش، عندها أحصي كميات المخاطر، وحجم المغامرة، ونوبات الخوف والقلق التي تتابني بشكل مفاجئ؛ وحينما مللنا القطيع، ووضعناه على ممر عشبي متعرج ومسحوق، حذرت سريست من ألا يتيح المجال للأغنام أن تتسرب من السهل عبر الممر؛ فالأغنام كثيرة وعلينا أن نكون حذرين إلى آخر لحظة.

- ولا تنس أن تلوِّح براية بيضاء، أو أية قطعة باللون ذاته حينما تراني أرفع رايتي أعلى من رأسي، فرمها هناك شرطة جدد لا يعرفوننا.

تلك هي الإشارة إلى التونسي، ومن معه من شرطة حدود من

جنسيات مختلفة في آخر نقطة لدخول المدينة، وهي أول نقطة للخروج منها. وكنت أدرك بالضبط أن نواظير المرصد تابعتنا منذ أن نزلنا الجبل، ودققت بوجودنا ليلاً عبر الكمانن السرية التي تجوب السهل بلا شك، وكنت أدرك أن أكثر من ناظور تابع الأغنام المتعثرة بين الصخور في هذا الوقت، وهي تهبط إلى الرابية وتتجمع عند بُرْكة صغيرة، أو ترعى بين الأعشاب قبل أن نقودها في ممر العشب المزدان بالورود الصغيرة الحمراء والبيضاء.

لم تبقى الا الخطوة الأخيرة للدخول إلى أول قرى شنغال، عبر مرصد التونسي الذي أحمل له مبلغًا ضخماً من الدولارات، كتحويل عملة عراقية وسورية أثقلت جيوبه بعدما وثق بي لأكثر من موقف؛ بالرغم من تباعد مجيني راعيًا لأغنامي وعابرًا الحدود بأقل الخسائر كما أحمل في سريري رجاءه بأن يخلص بعض الأسيرات، مثلما فعل مرتين بطريقة ناجحة لكن بفدية كبيرة، ولم يساورني القلق بأن لا أجده في احتمالات أن يكون قد غير مكانه لأسباب تخص سلامة تنظيمهم، والتحق بمرصد آخر، أو ذهب إلى جبهة قتالية في الموصل أو بعشيقه أو تلعفر، أو أنيطت به مهمة استخبارية؛ فهؤلاء مثل الغجر الرحل ينفذون الأوامر ويرقصون على النيران أينما يتواجدوا.



عاد الربيع بي من جديد، وأنا أخطو بين الروائح، والمرياع  
يجلجل بأجراس عنقه الكبيرة؛ وفي الوقت المناسب، ونحن  
نقطع شوطاً من السهل، لُوْح أبو الخير ببندقيته لنا، فأخرجت  
من حقيتي راية بيضاء مدعوكة، وشككتها بغصن، ورفعته إلى  
الأعلى، ومثلي فعل سربست في آخر القطيع وهو يرفع يده  
عالياً من دون علامة بيضاء، وبقيت رايتي ويده ترفرفان على  
رأسينا علامة سلام أو استسلام. لكنني عرفت تلويحة أبي الخير  
ببندقيته فهدأ قلبي كثيراً وأنا أخطو إليه، مشيراً إلى سربست  
أن يبقى في آخر القطيع، وأمام هذا الكائن ذي الوجه المحنط  
في ظاهره أنزلت الراية، فعانقني كصديق حميم.. الحمد لله  
عسلامتك.. وكانت لحيته توخز صدري ورائحته غير مريحة  
كما في كل مرة ألتقيه.

ناديت على سربست وقدمته إليه، وما زال يرفع رايته على  
مستوى صدره:

- هذا أخي.. راع مثلي.

صافحه أبو الخير بعينين فيهما لمعة غريبة إلى حد ما، أو  
هي انعكاس لقلقي الذي لا أستطيع كبحه، فهذه أول مرة  
لست وحدي أجوب المكان وأغامر بالوصول إليه وأتشاطر مع  
البعض لفك الأسيرات تحت واجهة بيع الأغنام في سوق المدينة.  
ربت على كتفي شاب خليجي تتدلى لحيته السوداء على

صدره، لا ارتاح لوجوده هنا؛ فهو سخيّف وساذج ويعتقد أن البشرية كلها كفر وإلحاد، وأنهم جاؤوا ليظفروا الأرض من رجسنا؛ نحن الأيزيديين والكرد والعرب والمسلمين.

مرة قال لي:

- اشكر الله على أنك ما زلت تتنفس.

وككل مرة أتأشاه بقدر المستطاع، لكنه وجدني هذا الصباح المبكر، وقال بطريقة هازنة:

- لسه اسمك راقيار.. يا أخي سميتك طه.. كافي أسماء كافرة.

- أنا طه يا أخ.. حتى نسيت اسمي راقيار من زمن بعيد.

- وإيش معنى راقيار؟

- الصياد.

- وشنو تصيد هههههه

- هههه نصيد ما يرزقنا به الله سبحانه وتعالى.

- الحمد لله أنك ذكرت اسم الله ولم تقل خودا.

أعتقد أن ثمة منتسبًا جديدًا أضيف لهذه المجموعة، فهو ما يزال يطيل النظر بنا بعينيه الزرقاوين ووجهه المدور، حاولت ألا ارتبك مخمّنًا أنه شيشاني أو منغولي، ولكي أتفادي أي موقف أخبرت سربست بأن يقود القطيع إلى السهل المفتوح، وابتعد به لأنه جانع، غير أنني أمسكت بنعجة سمينة، وقدمتها لشرطيين كانا قريبين مني: هذه غداء لكم يا مجاهدين.

قادي التونسي المسلح ببندقية قصيرة إلى حفرة واسعة، معمولة بعناية كغرفة محمية بسقف كونكريتي متين، ومجهزة بسرير وأغطية ومكتب صغير عليه تلفونات ميدانية كثيرة العدد. أنزلت صرّتي المعلقة على كتفي، وفتحتها بهدوء وأخرجت من جيوبها الداخلية المتداخلة شدة مالية خضراء مغلّفة بكيس نايلون أسود:

- عشرة آلاف دولار وهي ما ساوت تقريبًا عملتك العراقية والسورية.. وأنا أكملت الحساب لتكون كاملة.

دفعها التونسي تحت المخدة القريبة وتساءل:

- اقتربت المعركة على ما يبدو. طائرات استطلاع أمريكية

تجوب السماء ليل نهار.

- الأجواء تشير إلى معارك قريبة كما نسمع في دهوك وأربيل.

- لا أشعر بضرورة أي شيء. أنت صديقي المؤمن ولا أقلق

منك.

- لنا نفس الأحاسيس صديقي المجاهد.

- أريد أن أرجع إلى تونس. تعرف هنا لا يسمحون. الدخول إلى

الحرب ليس كالخروج منها.

- أتفهمك.

كان وجهه لا يزال محنطًا:

- المعركة المقبلة ستكون ضخمة كما أتصور. خاصة وأن أمريكا

ستشترك فيها بكل ثقلها الحربي.

قلت بثقة:

- وجدت لك طريق العودة، وهو سالك بلا مرصد، ولا

بیشمرگة ولا قوات عراقية.

تساءل بقلق:

- والطريق إلى تركيا؟

- سالك عبر دھوك.. اعتمد عليّ ولا تقلق.. وسرّبت هو

دليلك إلى آخر نقطة.

- تقصد هذا الرجل الذي معك؟

- نعم. إنه دليلك إلى تركيا.

ثم أضفت بحذر:

- إنه أحد أقربائي. ابنته أسيرة ويبحث عنها.

- أها.. أخبرتني مرةً عن هذا.

- صبية صغيرة ویتيمة.

ولتذكيره بكلام سابق قلت له:

- أنها أجمل صبية أسيرة.

حكّ رأسه، ودارت عيناه على جدران بيضاء عليها شعار

الخلافة يتكرر لأكثر من مرة، فأعطى انطباعاً بسواد المكان.

- هذه مسألة صعبة وخطيرة يا صديقي الراعي.

- تقصد.. ربما تكون عند أحد المجاهدين الأمراء الكبار؟

- لعل هذا صحيح. لكنها ستكون في مامن عند أي أمير ما

دامت بهذه الحلاوة!

- ممكن ندفع فدية ونخلصها؟

- هذا أمر لا أفتي به. صعب.

ثم أكمل:

- الرجل غامر وجاء معي. وهو دليل جيد إلى تركيا.. أحسب

هذا الحساب يا مجاهد وهو ابن الجبل والمكان ثم أنه ابن

شنگال وكان هنا فترة طويلة، وأعلن إسلامه وشهادته أن لا إله

إلا الله ومحمد رسول الله.

ظل التونسي صامتًا فاستثمرت صمته:

- لديه مال وذهب فدية لابنته الأسيرة، وأنا الضامن له.

- دع الأمر بيننا وسأتحرى الموضوع بشكل خاص.

رفعت يدي إلى السماء بطريقة مسرحية مناسبة، وكان قلبي

يدق:

- يا رب.. هذا أمل عظيم أن تعود البنت اليتيمة مع والدها

بصحة المجاهد أبي الخير.

## الجزء الثاني

## إعدام مكتبة / مقطع عرضي - ٤

### 1

لم يكن أمامي خيار غير أن أمضي إلى الجامع في جمعة الخطبة المملة التي تزيدني خوفاً وترهق أعصابي، بعدما تركني رافيار أتجول في السوق الوحيدة قبل ساعتين، ونأى بعيداً عن المدينة بقطيعه، لكنه أخبرني أن نلتقي على أطرافها قريباً من الجبل بعد الخطبة والصلاة ومعاينة العقوبات المتوقعة في يوم كهذا، وهمس لي؛ كما لو تذكر شيئاً؛ بأن أتحاشى رجلاً أعمى يقتعد باب الجامع على مدار النهار، وأن لا أكون قريباً منه بأية حالٍ من الأحوال.

لم أفهم كثيراً هذا التحذير سوى أنه زرع بي القلق وفاقمه، وأنا أتخيل شكل الأعمى المفترض؛ فالدخول إلى شنغال لا خروج بعدها، وقد يكون الموت في أية لحظة من وشاية أو شك أو مراقبة أو خطأ أو التباس.

ربما انتبه رافيار إلى قلقي من هذا التحذير فوضح لي:  
- ذلك الأعمى لديه قدرة عجيبة على شم الغرباء.

ثم أضاف للتطمين:

- لكن لا تقلق، إنه رجل مسلم وبسيط يعيش على الصدقات وليس عدوانيًا.

كانت إشارته هوارية، لكنني كنت أثق به وكيف يفكر من أجل أن تمضي أيامنا بسلام بلا شكوك ومتاعب ومفاجآت. ومع هذا ترسخ تحذيره بي فصرتُ من لحظتي وكانني أرى الجميع عميًّا وعليّ تجنبهم.

## 2

لم أصدق أنني هنا من جديد، وأعود ثانية بعد فراق سنة في هرب كان مضيًّا حينما تاهت بي السبل إلى نشتمان بين شنغال والموصل، وضاع مشوار البحث المخيف عن صيبي التي تلتقتها السرايب والسجون، حتى يبس عودي وجفَّت روحي، وضاع الأمل إلى آخر الشوط المضي الذي كنتُ فيه. لكنّ الراعي راقيار، المغامر بحق، والذي خرج إلى حياتي وأنا في مخيم الأسيرات الناجيات، أقنعني أن المغامرة جزءٌ مبهمٌ من الحل، وأنه يمكن خداع عدوك وأنت معه تسير ظلًّا بظل، والحياة واسعة أكبر مما نتصور بمفاجأتها التي لا نحسب حسابًا لها، وخودا سيكون إلى جانبنا.

## 3

عندما أخبرته بأن خودا أرسلني قبل سنة إلى هنا، وبقيت أصرع



الحياة الصعبة مع هؤلاء، وشهدت فيها أحداثًا جسيمة، وعاشت شخصياتٍ أيزيدية خرافية؛ قال هي الحياة صراعٍ مريرٍ وفضاءٍ مخيفٍ، ولكن علينا أن نواجهها بكل شيءٍ يتيسرُ بما في ذلك الحيلة، وعندما حكيتُ له قصة حرق مجنون المدينة الوحيد عيدو في باحة الجامع قبل عام، وكيف وجدتُ القسوة التي لا نظير لها بحق البشر، قال أنه كان وقتها بين الجموع، ولكنني لا أعرفه، ورأى كيف أن صقرًا انتشله من الحريق، وطار به بمعجزة ربانية فاقت خيالاتهم، وفي ليلة كان فيها مطر نيسان غزيرًا، تذكرت بصوتٍ عالٍ المرأة الأيزيدية الحامل<sup>(24)</sup> التي ترفض الولادة بالرغم من بلوغ حملها شهرها الثالث عشر في ذلك الوقت، والتي اختفت فيما بعد، قال راقيار أنه رأى صقرًا انتشلها ذات نهار، وأخرجها من شنغال ببطنها المنتفخة وكانت ترفض الولادة حتى عبرت المدينة الأسيرة ولا يعلم بعدها بشيء.

ألمني راقيار في ليلة أخرى حينما ذكر لي مصير سالار<sup>(25)</sup> بائع الخضروات والفواكه الذي مات جميع أبنائه مجذومين في البئر الذي كان يخفيهم فيه، بعيدًا عن شرطة الجسبة لسنتين متتاليتين، وألمني ثانية وهو يعيد كل شيء جرى في المدينة: - كنت أبيع الخضار أول الأمر وأجلبه من قرية كوجو إلى

---

24- هي أيضًا من شخصيات روايتي السابقة «عذراء سنجار».

25- سالار كذلك من شخصيات رواية «عذراء سنجار»

'مدينة، وكنت أراك مهمومًا ومثقلًا، وحينما سألت عنك عرفت  
قصتك من سالار رحمه خودا.

- كيف لم أرك في ذلك الوقت؟

- كنت تراني ولم تكن تراني، كنت مشغولًا بالأمل وأنا كنت  
مشغولًا باليأس، لم ينتصر أحد في هذه المعركة، لكننا نحن  
انذين خسرنا، وعلى المهزوم أن يكتب هزيمته حتى لا ينهزم  
مرة ثانية، وليس المنتصر دائمًا على حق. هذا هو المنطق.  
في نهارٍ مشمس من رحلتنا الطويلة كنا نتغدى في باب مغارة  
لم ندخلها، تساءل على نحو ليس له مناسبة:

- الشرطي دلشاد، أو عبد الله. أظنك لم تنه بعد؟

- لا أعرف مصيره حتى الآن.

- شهدت واقعة حرقه في الجامع متهمًا بشبوت ازدواجيته بين  
الدولة الإسلامية وأيزيديته التي تخلى عنها خداعًا لهم.  
- وزوجته؟ وأطفاله؟

وجدت ملامحه قد تبدلت وشعرت أنه كتم عني شيئًا:

- لنطو كل شيء، مر فالماضي ينغص علينا الحاضر، والحاضر  
كما تراه قد حولنا إلى أنصاف بشر ومسخنا، وما بقي فينا هو  
جذوة صغيرة قد تعيننا على فعل شيء مناسب.

التفت لي ولم يستطع إخفاء ألمه:

- أولًا علينا تخليص الأسيرات بأي ثمن، وطريقة فهذا جزء من  
واجباتنا تجاه بناتنا ونسائنا.

## 4

كنت منغمراً بشعور مزدوج من الخوف والقلق والرغبة، وبشيء خافت من فرح لا استطيع إظهاره وأنا أخطو في المدينة، كأنني أولد مع كل خطوة بإحساس أنني سأجد نشئمان في الخطوة التالية، فشنغال ليست كبيرة، وقراها المتباعدة بحجم قبضة اليد، أحفظها عن ظهر قلبي أنا المدرس القديم هنا وهناك.

كنتُ أقرب من روح نقية فارقتها سنة كاملة، فتلبسني المكان من جديد كأنني لم أفارقه أبداً، وتلبستني أطياف ابنتي الوحيدة، كأنها تناديني الآن.. بابو.. تكي..

قلبي يقرأ المدينة ويقلب صفحاتها، ويتبع رائحة صغيرتي المنتشرة في شنغال كما لو سألمسها بعد قليل، بعد لحظات، بعد أقل من ساعة، لن يطول الوقت عليّ حتى أعثر عليها. فهذا وجهها الطفولي يشع في كل مكان، وتلك زرقة عينيها تفرش دربي أمامها كميّاه الخلجان الصافية.

## 5

لازمني الخوف وكنت تعباً ومرهقاً وحزيناً، وأنا أتوجه إلى الجامع حريصاً على أن أبدو متماسكاً، ومتحاشياً الاقتراب من الأعمى الذي لا أعرفه، غير أنني فوجئت بأكوام من الكتب مرمية ومبعثرة في باحة الجامع؛ عشرات ومئات مكومة على

بعضها بطريقة عشوائية، وتناثر الكثير منها بين أقدام الداخلين إلى الجامع الذين كانوا ينظرون إليها بكرامية، ويتجنبونها كأن في داخلها جراثيم مخفية.

لم أجد الأعمى وأنا أدخل مضطربًا؛ كنت مشغولًا بأن أراه ولو من بعيد؛ لكنني صرفت الفكرة مراقبًا تل الكتب المتكومة والمتناثرة التي يدوس الداخلون عليها بلا تحفظ، وأمكنتني ملاحظة مجلدات ضخمة، تباعدت وانفرطت أوراقها وأغلقت كتب معروفة تمزق معظمها من كتب دينية، وروايات، وقصص، وقصائد، وفلسفة، وسياسة، تداخلت مع بعضها بطريقة فوضوية.

قرأت بعض العناوين المقلوبة والمخلوعة، وأنا أتخذ مكانًا قريبًا منها: رأس المال لكارل ماركس، البيان الشيوعي، جيفارا، مبادئ الشيوعية، المجموعة الكاملة لمحمود درويش، ماو تسي تونغ، ألفية ابن مالك، تولستوي، دوستوفسكي، كراسات لينين الحمراء، بلبوش دنيا، مجلات الأقلام والآداب والكرمل، الأيزيدية لصديق الدمولوجي.

أسماء وكتب لم تكن غريبة عليّ ومجلدات كاملة بأجزائها المتسلسلة: ألف ليلة وليلة طبعة بولاق، سيرة عنتره بن شداد، الظاهر بيبرس، طه حسين، الفكر الشيوعي، مجلدات بحار الأنوار، محمود العقاد، نجيب محفوظ، علي الوردي، نهج البلاغة، البؤساء بأجزائها القديمة.

وكانت ذاكرتي تمضي إلى الموصل في الحياة الجامعية، وبغداد أحياناً حين كنا نزورها في مواسم مختلفة، وملتقي بأصحابنا يوم كانت الحياة سهلة وجميلة وبسيطة، وبين هذا الزحام من الكتب الضخمة، خطر في بالي الأعمى الغامض في رأسي، فخرجت من الجامع متطلباً كما لو أنني أتتفس الهواء، لكنني لم أجد أعمى متسولاً، بل كأنني أرى الجميع عمياناً يتخاطرون في الباحة، بين الكتب المرمية بفوضى، فعدت أدراجي حينما نودي على الجميع أن الأمير أبا العينين سيلقي خطبة الجمعة بعد تماثله للشفاء، فتزاحمنا بالجلوس في صحن الجامع، وتناثرت معظم الكتب والأوراق الملقاة بين الأقدام والأغلفة الممزقة.

ومع أن الخطبة مملة ومكررة ومتشابهة، كما كنتُ أسمعها سابقاً، إلا أن العقوبة كانت غريبة إلى حد ما، وهذه أول مرة يعلن فيها أبو العينين عن إعدام مكتبة للكافر الجامعي رشو، وحفز الحاضرين على ضرورة البحث عن الرجل، وإلقاء القبض عليه، كما وعد بمكافأة شخصية منه، وهي منحه أسيرة صبية في حال القبض على هذا الضال، الملحد، الشيوعي، الكافر، الزنديق، المتمرد، الأيزيدي النجس، كما كان يكرر ويعضُّ على الكلمات عَضاً، مثلما بشر المؤمنين في كل مكان من منبره العالي، بأن القاضي الشرعي لولاية الجزيرة أعطى فتوى بإعدام مكتبة الأستاذ رشو حرقاً حتى تصبح رماداً، ولم ينسَ أن يهيب بالجالسين من عناصره ومن الأيزيديين القليلين المتواجدين

كأسرى دخلوا الإسلام مرغمين، بأن يحرروا كتب الضلالة والكفر بتسليمها إلى شرطة الحسبة لحرقتها فوراً.

## 6

كنت استعيد بذاكرتي وجوه رجال شنغال المتعلمين القليلين، فخمّنت أن الرجل يقيم خارج العراق، وهذه مكتبته القديمة، أو أن هناك اسمًا مستعارًا لشخصية أجهلها لكن لا، يوجد لغزٌ كبير في الموضوع، فكان هذا الحرق الرمزي الذي نادى به الأمير الشرس مشهدًا عجيبيًا وغريبًا ومؤلمًا، ذكّرني بحرق مجنون المدينة عيدو قبل سنة، وفي المكان ذاته، حينما تناوب عناصر شرطة الحسبة بصب جرار الزيت والبنزين على جبل الكتب العملاقة، حريصين على أن يتسلل إلى قعر الكتب المتراكمة، ففاحت رائحة البنزين التي اختلطت برائحة الزيت والأوراق والأغلفة والأحبار القديمة، قبل أن يتقدم أبو العينين بهزاله الشديد ووجهه الأصفر الممصوص، ويوقد النيران من مشعلٍ يحمله في هذا الجبل الورقي المرتفع كثيرًا؛ فتعالى اللهب واستعرت النيران بطريقة سريعة، وتطاير دخان زيتي جعلنا نبتعد خطوات إلى الوراء متفرقين، وكانت فرصة للبعض أن يخرج من باحة الجامع، غير أنني لم أكتفِ بمعاينة أن أول ما احترق في قمة الجبل الورقي هو كتاب الأيام لطفه حسين، تبعته روايات دوستوفسكي وأنا كارنينا وجيفارا والجبل السحري ومجلدات مبعثرة لكتاب الأغاني وألف

ليلة وليلة وملحات اجتماعية من تاريخ العراق والشاهنامه  
وكتب كردية وفارسية وتركية.

صار جبل النار أعلى من جبل الكتب، وتطاير شرار بحجم  
كبير على شكل كرات ظل يتلوى في سماء الجامع؛ فذابت روح  
تولستوي مع ابن المقفع معًا، وتضرج وجه ميكافيلي بالنار  
لكنه لم يصد أمام هيجان اللهب، فتحجرت دموعه ثم طواها  
رماد أوفيد، واحترق فن الهوى قبل أن يلتهم روح شكسبير،  
لتمتد النار إلى ابن عربي وتحترق عمامته البيضاء التي تشظت  
إلى جيفارا، ومن ثم التهمت دين زرادشت وبقايا لينين في  
كراساته الحمراء الصغيرة، التي ذابت كقطع الشوكولاتة على  
صدر الحلاج مقطوع الكفين والساقين، قريبًا من مجلدات  
مجلة الهلال المصرية.

## 7

بقي أبو العينين النحيف كالخيارة صافئًا على أقواس وألسنة  
النيران التي أخذت تحفر في الجبل الورقي، وتذيبه بالتدرج، الأمر  
الذي اضطرنا أن نبتعد أكثر من لهيب النيران التي بدا أن لها صوتًا  
مخيفًا، يتفرقع وينفجر وينشر كرات الشرار في كل اتجاه ومكان.  
لم أفق من صدمة هذا الحريق، وبالرغم من اللغظ والهمس  
الذي أخذ يُسمع وتكرار «الله أكبر» من البعض كأنهم في يوم  
القيامة، وقد نجوا من نارها، كنت أعيد ذكرى حرق مجنون

المدينة عيدو يوم كنتُ داخلاً إلى شنغال بوحي إلهي، وكيف  
انتشله صقر عابر من جمر القيامة التي أوقدوها عليه، بعد أن  
قتل مسؤول الحسبة بعصاه التي ورثها من الشرطي دلشاد.

## 8

في باب الجامع تيقنت الآن من وجود المتسول الأعمى،  
الذي قاده رجل وهو يسعل وأجلسه على دكة حجرية، تتيح  
للدخلين والخارجين رؤيته وكان يهشُّ الدخان الذي تطاول  
كثيراً خارج الباحة.

همس رجل - كأنني أعرفه - لآخر مستغلاً فوضى النيران  
الملتهبة: «رشو أستاذ معروف كان في جامعة بغداد يدرّس  
الاقتصاد الاشتراكي، وهو من مدرسة الاتحاد السوفيتي السابق،  
وعاد شيوعياً منها فطارده سلطات البعث، وحجزته أكثر من  
مرة لكنه تمكن من الهرب عبر كردستان، وعاد إلى الاتحاد  
السوفيتي ولم نسمع عنه أخباراً إلا اليوم. واعتقد هذه مكتبته  
عثروا عليها في بيته والتي تركها منذ زمن بعيد»

كان جبل الكتب قد هوى، وظل دخان أسود يتكاثف بعمود  
غليظ، ويتجه إلى الأعلى فخرج الكثيرون بعد هذه الواقعة  
ينفضون عنهم الغبار والرماد.

ابتعدت قليلاً وأنا أديم النظر إلى الأعمى الجالس الذي كُف  
عن السعال وهذا.



## لمحات الشيطان المغامر

في سوق الغنم لم يكن هناك سوق أو غنم، بل حظيرة متروكة  
يبس القش والبرسيم والبعرور في كل مكان فيها، وبقيت رائحة  
الصوف القديمة والروث عالقة مع الهواء المحيط لها، ورُقاقات  
دم ملتصقة سوداء أشبه بقشور الخنافس على شواخص خشبية  
قصيرة متآكلة ومدفونة كانت تُستعمل لتثبيت الذبائح وسلخها.  
أوصاني رافيار أن أكون هادئًا في المكان مثل أية نعجة هنا:

- لا تُستفز من أي أحد. بـِغ بأي سعر. لم نأت هنا للأرباح  
كما تعرف. سيمر عليك شرطة الجسبة ومجاهدون عاديون،  
وشخصيات شنغالية قد تعرف بعضها، فكن طبيعيًا ولا تفكر  
بأن هذا أو ذاك خائن وضع يده بيد جنود الخلافة. فالخيانة  
ظرفية ومفتوحة في المدينة. بل هي تقية المغلوب على الغالب.  
لم أقل شيئًا.

كنت أنظر إلى صراحة رافيار، وهمته في صباح جمعنا في ساحة  
صغيرة، كانت سوقًا لبيع الغنم كما أتذكر، ولم يكن الجو غريبًا  
علي، نفس الخراب ونفس البؤس ونفس المدينة المنطوية على  
جحيمها الشخصي، كما لو لم تكن مدينة من قبل، بل قرية

مهجورة لا يطرقتها سوى مسافرين عابرين.

- سأخذ بعض النعاج وأسرح بها بين البيوت والبقية تبقى معك هنا حتى العصر. المرياع سيكون معي. جرسه يلفت الانتباه. اعتادوا عليه.

كنتُ أقرأ في عينيه لمحات شيطانية لمغامر صعب المراس، تثير بي طيفاً صغيراً من أمل مقتول، وكان لا يخفي تلك اللمحات الغامضة كثيراً حينما يكلمني، ففي عينيه وميض كدتُ أتفهمه تقريباً منذ رحلتنا الجبلية الصعبة.

- النهار طويل، وسأمرّ على الكثير من البيوت. لدي عناوين وأسماء. لعل خودا يساعدي.

تسارعت أصوات الجرس للمرياع ذي القرنين المعقوفين، وتبعته النعاج الملتخة بالأعشاب والأطيان، وتراءى لي وهو يلوح بعصاه إلى القطيع الصغير ويتعد بالتدرج، كأنه إله صغير سينشر الفضيلة هنا وهناك ويعود جائعاً.

## الروح الميتة في كل مكان

### 1

حمل القطيع وراءه غيمةً من الغبار الرطب، يتقدمه الراعي المثلث بأحماله الكثيرة، وعيناه تتخاطفان بين المازة، وفي جعبته الكثير من الوقت والأمل، كما في كل مرة يعتزم فيها المغامرة، وجرس المرياع لا يكف عن الرنين المعلق برقبته.

يلقي التحيات بين لحظة وأخرى على رجال قليلين، سحناتهم لا تبعث على الأمان، وعلى شرطة ملتحين راجلين يتفقدون الشوارع والأزقة بملل، يرطنون بلغات مختلطة ليس مهمًّا أن يفهمها كما يقول لنفسه، فيدلف بين الأزقة من دون أن يتوقف كما لو يمشي بخريطة في رأسه منقادًا، وراء ترددات الجرس.

يتبعه في أوقات متفاوتة بعض الصبيان، وهم يرونه مثقلًا بشيابه وإكسسواراته وشعره النازل على كتفيه، فيلاطفهم بود، أو يسألهم عن أسمائهم، ليكون صورة بسيطة عن هذا الزقاق أو ذاك، وعن نوع الأسر الغريبة التي اجتاحت المدينة منذ سنتين، وسكنت بعض البيوت المهجورة؛ وفي أحيان كثيرة لا يفهم لغات

الصبيان، لكنه يفهم مرجعيات سراويلهم وبيجاماتهم المنفوخة ولفافات رؤوسهم المتكورة عليها، ومن يشامخهم البيض ودشاديشهم القصيرة. ثم يمضي متحسِّسًا الروح الميتة في كل مكان، فيرى الموت فيه أكثر من السابق الذي تركه قبل أشهر قليلة، وهو يجوب في أمكنته القديمة، ويرى الأشجار ذابلة أو مقصوصة في حدائق البيوت. حتى الأرض يابسة كما لو مرت عليها حرائق جففتها عبر الفصول.

## 2

الشارع العام أكثر حركة بسيارات عسكرية متناوبة، وناس يتخاطفون ويرطنون كأنهم من أجناس أخرى، وفدوا إلى المدينة، وغيرهم يعرف ملامحهم ولغاتهم وأزياءهم فيتحاشاهم بخفة. لكنه بقي يتوجس من الجميع، حتى عندما خرج رجلٌ من دار تشقق حائطها الخارجي ونادى عليه.

كان يرتدي سروالاً عريضاً، ويشد رأسه بعمامة صغيرة، كأنها لا تريد أن تثبت على رأسه بسبب عرضها، يقود طفلاً صغيراً شاحباً كثير السعال:

- السلام عليكم يا أخ..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أطال النظر بالقطيع الصغير، وتحسس أكثر من نعجة من إلتها، حتى توقف عند واحدة بيضاء يخالطها سوادٌ داكن:

- كم سعر هذه النعجة يا أخ؟

- كما تريد. استفتاح الصباح لا سعر له.

- بما يرضي الله.. كم تريد لهذه النعجة؟

- لنقل خمسين ألف دينار.

- كثير.

- ننقصها خمسة آلاف لهذا الصغير الحلو.

أعاد ذو السروال العريض تحسس إلية النعجة، كما لو يبحث

عن شيء هناك:

- ليكن السعر بالنصف.. أعتقد سعر مناسب.

- هذا قليل يا أخي.

قال الرجل كأنه يستعطف راقيار:

- أحتاجها لأمر ما ولا أملك إلا المال الكافي.

رد راقيار بارتياح:

- ولا يهملك.. استفتاح خير إن شاء الله.

أخرج الرجل ماله وبدأ يعدّه، فيما كان راقيار ينظر إلى وجهه

المنحني لعدّ النقود فسأله:

- أنت أيزيدي؟

بهت الرجل وارتبكت أصابعه، وهو يفرد النقود بين أصابعه،

غير أن راقيار تدارك اللحظة القلقة للرجل:

- حتى لو لم يكن معك السعر الكافي لا تهتم.

- لا لا.

قاد الرجل نعجة متوسطة الحجم شاكرًا الراعي الذي أطال النظر

إليه فيما كان الأخير يتلفت مسرعًا كأنه متهم بشيء يعرفه.

## عصا عيدو

أخذت أبعد الوقت بتأمل عصا عيدو ذات الرأس المكور الغريب، الشهيد عيدو فلق بها رأس مجاهد أفغاني ذات يوم، فأحرقوه حيناً في ساحة الجامع، لكنّ خودا رحمه فأرسل له صقرًا انتشله من النيران، وطار به إلى السماء.

أحاول أن أقرأ رموز العصا الكثيرة، وخطوطها الزرقاء المتعامدة أو المتقاطعة وإشاراتنا السوداء غير المعروفة، وخرائطها الحمراء الدقيقة غير المرئية تقريبًا، وحروفها الملونة غير المترابطة بالكردية والتركمانية والعربية.

لم تكن التواريخ الناعمة تذكري بشيء، لأن أرقامها تتسرب أمامي مثل النمل، وتدور على العصا الملفوفة أكثر من دورة وربما تنتظم جملاً صحيحة أو مقطوعة، كانت مختلطة ومتداخلة، ومقشرة أتعبت عيني كثيراً. أشبه بالطلاسم السحرية التي لا يمكن أن أفتح معاليها، لكنني مستمتع بهذا الدوران الحروفي الغريب لدقة الكتابات الناعمة على عصا ليست متينة، ولا يمكن لأي كائن أن يسطر عليها مثل هذه الكتابات الإبرية، والرسوم الدقيقة جدًا.

عيدو كان مجنون المدينة الوحيد، انتشله صقر جبار في يوم  
إعدامه بمحرقة في جامع المدينة، ففاض روحًا شهيدة، وذكرى  
لا تُنسى في مدينة أسيرة بكاملها. شاهدتهُ بأمّ عيني يوم كنت  
أحمل أثقالاً من اليأس والهم والقلق، وأنا أبحث عن ابنتي  
في كل بيتٍ وشارعٍ وشبرٍ، ورائحتها تتنقل من مكانٍ إلى مكانٍ،  
وكنت أتبعها مثل المخدّر حتى أوصلتني إلى الموصل، لكنني  
فقدتها في آخر الأمر، وتبخرت رائحة طفولتها العذراء، فهربتُ  
بذات الطريقة التي دخلت فيها شنغال بعد إن ورثت عصا  
عيدو من الشرطي دلشاد، الذي لا أعرف مصيره.

عرفت أخيراً من راقيار أنهم أحرقوه في بيته مع زوجته  
وأطفاله لثبوت خيانتهم لدولة الخلافة، كجاسوس لجهات كردية  
وأيزيدية، وأن إسلامه كان تقيّةً وكذبًا.

رافقتني العصا شهورًا طويلة، ولم أتركها ولا لحظة واحدة.

يومها قال لي دلشاد والذعر مرتسم على وجهه:

- هذه العصا مخطوطة حيّة، لا تتركها ولا تعطها لأحد.

اعتبرها كتابًا مقدسًا، ففيها علوم لا يعرفها الكثيرون، وفيها  
تواريخ شنغال كلها، والفرمانات القذرة التي حاربونا فيها على  
مدار حياتنا وأجيالنا. هكذا أخبرني عيدو في لحظة غامضة ذات  
يوم، وكان يضحك بآلم.

- أنت ابن التاريخ يا دلشاد، فأنا ضائع لا أفهم منه شيئًا.

صارت ابنتي الأسيرة هي التاريخ.

- احتفظ بها لزمَن سيّاتي، فعيّدو المجنون كان أذكي وأشجع شخص في شنغال المغتصبة.

- وأين ستذهب أنت؟

- كثرت شكوكهم حولي ومن المؤكد أنهم سيقتلونني. خذ العصا واحتفظ بها حتى يحين حينها.

أربكني كثيراً، لكنني تحاملتُ على ذلك، فقد كنت أخطط للهرب إلى الموصل. وصار حديث بيننا طويل ومتوتر قد أتذكر بعضاً منه، لكنني لم أرَ دلشاد بعد ذلك اللقاء، وبقيت العصا ملتصقة بيدي أتوكاً عليها، وأقرأ بها لعلي أجد أثراً لنشتمان في هذا التاريخ الذي كتبه مجنون شنغال الوحيد. وحينما تسللت إلى دهبوك لم أترك العصا، ولم أسمح لأحد أن يمسكها حتى اليوم. أكثر من ساعة وأنا أدور بالعصا عشرات المرات، فلم تلفتني غير رسومات ناعمة متقطعة، تتكامل كلما دُورتُ العصا بين أصابعي، مثلها مثل الحروف التي تتكامل بالتدوير على نفسها، مائلة قليلاً حتى تنتهي. لا أعرف أين.

أدورها من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، فالتقي بالغموض ذاته، ولعلي وجدت أنه يمكن قراءة العصا من أي اتجاهٍ ووجه. العصا الأنبوبية لا وجه لها ولا اتجاه. أكلّم نفسي. ثم أقلبها بأن أضع رأسها المكور إلى أسفل، لأجد أن هناك عالمًا آخر محفوراً ربما برؤوس الدبابيس، والأظافر وشظايا الزجاج، يسير عكس الكتابة تمامًا، بينما بقي الرأس المكور خاليًا من



أية إشارة، وكأني أشم فيه رائحة دم الأفغاني الذي قتله عيدو. ثمّة ما يدفعني لتأمل شجرة الحروف والرسومات والجمال المتقاطعة، لا سيما الكردية والعربية منها، وأعجب كيف لهذا الرجل المجنون أن ينسخ كل هذه الفوضى بشكل دقيق، وإن كان غير مفهوم ويشي بالغرابة، لكنه كما أرى إعجاز لمجنون امتلك عقلاً كاملاً، وتصرف بحماسة ووطنية عالية، حينما قتل مسؤولاً أفغانياً صلّفاً.

تدور بي الحروف والكلمات غير التامة، وتخذلني الرسومات الناعمة جدّاً، وتتقلب العصا بيدي، تدور عرضاً وطولاً فتتعاقب الرسومات الصعبة التي تقاطعها رسومات جانبية على ما يبدو، فأرصد عيناً مطفأة. كومة حبر كأنها رأس نملة، يعلوها قليلاً حاجب رفيع، تحته دائرة انغلقت على سواد أستطيع أن أقول أنه كان واضحاً إلى حد ما. عين واحدة. ربما هكذا كنت أجد. وربما ثمّة عينٌ أخرى قد تكون في مكان آخر، لكن الحروف الكردية والتركمانية تتعاقب أيضاً وتمدد بانسيابية بلون أسود، وثم أزرق وثم لا لون واضح كأنما تركبت عليها حروف جديدة، فأغرقتها تحت أو فوق العين المطفأة كما أحسب.

## البرابرة يأكلون الحلبي

### 1

حاولتُ أن أتلمص من يوم الجمعة الكئيب، لكنني خشيتُ من رجال الحسبة المتجولين الذين يطاردون الناس قبل موعد الصلاة الجماعية في جامع المدينة، حتى راقيار أعيته الحيلة بأن يتعد عن الموعد الممل لخطبة أبي العينين المكررة، والسخيفة عن الجهاد والجنة والنار والهوريات والأيزيديين الكفرة والقتال والدم والعقوبات التي لا آخر لها، لكننا تركنا القطيع في حظيرة البيع محاطًا بمجموعة تنكات وأقفاص فاكهة قديمة، وتوجهنا إلى الجامع على مضض.

لم يقل راقيار شيئًا، بل اعتكف على صمتٍ لم أفهمه، ونحن نذرع الشارع الوحيد كما لو شغله أمر ما ظل يداوله مع نفسه، يجيل النظر بين المحال المغلقة والبيوت المهجورة حتى وصولنا عتبة الجامع.

مدّ راقيار يده في جيبه، وأخرج ورقة نقدية صغيرة مطوية أكثر من مرة، ودسها في جيب الأعمى المرابط في باب الجامع

فشكره الأخير، ودعا له بالسلامة والعمر الطويل وأن يحفظ أولاده.

## 2

كان أبو العينين مثل الخيارة الذابلة، وهو يجلس على منبره العالي، ولحيته المسترسلة حمراء يخالطها بياض خشن، فبدا كله عبارة عن لحية مرغبة، متدلّية إلى الأسفل كما لو تسحب بقاياها، لكنه بقي متشبهاً بكرسي الخطابة بيدين متمسكتين بمسند الكرسى من جانبيه.

## 3

جلسنا في الخط الأخير متربعين كالآخرين، وجلس الأعمى إلى يمين راقيار بعد أن تحسس مكانه فساعده وأجلسه إلى جانبه، لكن بقيت صورة العملة المطوية التي دسها راقيار في جيبه تعود في رأسي أكثر من مرة، ولم أحسن الانتباه إلى ما كان يقوله الأمير الخيارة، بالرغم من قوة الصوت في الميكرفون الذي شدّ الأسماع عنوة، لكنني صرفت هذه الصورة عن رأسي بعد أن علا صوت أبي العينين غاضباً أكثر مما يجب:

- اليوم ستشهدون عقوبة إعدام لجاسوسٍ على دولة الخلافة، حاول خيانتنا بطريقته الغادرة، لكنّ الله سبحانه وتعالى كان له بالمرصاد.

ران صمّت مهيب في القاعة، وبقيت الرؤوس تتطلع إلى خيارة

المنبر العالي الذي تحول إلى كائن آخر بعينيه الناريتين، وحتى  
لحيته صارت ترتعش وهو يُكمل:

- هذا الجاسوسُ أخزاهُ اللهُ جَلَّ وعلا، كانَ يَقْتُلُ جَرْحَى دولتِنَا  
الراشِدةَ بالسَّمومِ التي يَعْمَلُها في المَخْتَبِرِ، والأدويةِ الفاسِدةِ  
المميّنة، مستغلاً وظيفتَهُ كطبيبٍ، وثقننا به التي أوليناها له،  
لكنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يُهْمَلُ ولا يَهْمَلُ.

تحنطنا كلنا وبقيت الأسماع متوترة ومشدودة إلى وجه الكائن  
الخياري الذي تحول إلى نمرٍ عدائي بطريقة مخيفة:

- الواجبُ الشرعي أنْ نقتضَ منه على هذه الخيانة التي  
أودتْ بفقدانِ مجاهدينَ جرحى لا حولَ لهم ولا قوّة.

طال الصمت كثيرًا، ووجه الخيارة يزداد اصفرارًا، وهو يخرج  
ورقة من جيبه الجانبي:

- القاضي الشرعي قرّر إعدامَ هذا الخائن الكافر بالطريقة  
التي يقررها أميرُ سنجارٍ وقد خيّرنا بين ثلاثِ طرقٍ.

أطال النظر بالوجه المحنطة، وكاد قلبي يطفّر من صدري.  
أحسست بحشجة في بلعومي، ويباس كما لو تحولت حنجرتي  
إلى قارورة رمل خشن:

- إما حرقًا ليدوقَ عذابَ جهنّمَ في الدنيا قبلَ الآخرة، أو  
قطعَ الرقبة بالسيف الشرعي، أو تقطيعِ أوصاله على أنْ يشاركَ  
جميعُ المجاهدينَ المتواجدينَ في صلاةِ الجمعة، ومنَ الذين  
دخلوا رايةَ الإسلامِ بهذه الواقعة، ليكونَ عبرةً لمن تسوّل

لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَكُونَ جَاسُوسًا عَلَى دَوْلَةِ الْخِلاَفَةِ، وَيَتَّبِعَ أَهْوَاءَ  
أَسْيَادِهِ الرُّوَافِضِ وَالنُّوَاصِبِ.

خرقت الصمت المتخشب صيحات الله وأكبر المتكررة التي  
ملأت القاعة صخبًا ورعبًا، حتى انبعثت رائحة أجساد وأفواه  
كروائح جثث بدأت تتفسخ الآن، وكنت أحاول أن أتماسك، وأنا  
أردد ببلاهة ولا شعور: الله أكبر وكان صوت راقيار يتحشرج  
هو أيضًا، والأعمى يردد الله أكبر بصوت مختلج كما أسمع.  
علت وجه أبي العينين ابتسامة مصنوعة وبدا وحشًا مكشّرًا:

- بما أن القاضي الشرعي أعطانا ثلاثة خياراتٍ لإعدام هذا  
الجاسوس الوضيع، لذا أرى أن نختارَ ثالثَ الخياراتِ لنُساهمَ  
جميعنا بقتلِ المارقِ وتقطيعِ أوصاله وهو حي.

عادت الله أكبر تشلّني، وتبعث بي خوفًا مضاعفًا، وأنا أرى  
الحماسة تعصف بالجميع بصيحات مترادفة صاعقة، حتى اهتزت  
الجدران، وتطاير غبار ناعم، واهتز عرش أبي العينين نتيجة  
للتدافع الحماسي الذي كان قريبًا منه، عندها رفع يده مشيرًا:  
- سنلبي نداء الله سبحانه وتعالى، ونشارك جميعنا بإعدام  
هذا الجاسوس، فعينُ الله ترانا الآن ونحنُ ننقذُ حكمه العادلَ  
بهذا الكافرِ المجرم.

كان ينظر إلى السقف موحياً أنه يتلقى أمرًا عاجلاً من  
السقف أو ما بعده، كذلك شخصت أبصارنا إلى الأعلى، وكنت  
أحتقن وأتلوى بمكاني، وراقيار الملاصق لي متشنج لا يقوى حتى

على التنفس، وقد احتبس الكلام فيه وجسده يرتعش، وحاول  
أكثر من مرة أن يقول شيئاً لي لكنه لم يستطع، غير أن الأعمى  
تحدث معه بشيء سريع، فهز رأسه وعيناه ترفان كثيراً.

#### 4

أحسست بأن سربست سينهار، وهو يتحول من زاوية نظر  
إلى أخرى أمام مقصلة شبحية. كنت أشد على كتفه محتبس  
الكلام بريق يابس، وضباب رمادي يخترق عيني.

قال نور الدين هامساً:

- بعد الإعدام أروح لسوق الغنم.

أزاح وجهه وحشر نفسه بين الجمع المحتشد، حينها خرج  
أربعة أشخاص من باب جانبي يقتادون رجلاً مربوط اليدين  
بجبل غليظ، انكشفت صلته حمراء وبان مخذولاً محني  
الرأس يجرجر ساقه بصعوبة. في الوقت الذي خرج فيه أبو  
العينين من باب آخر تحيط به ثلة من المجاهدين الشباب،  
وبيده ساطور تلمع صفحته بريق شمسي يخطف الأبصار،  
متجهاً إلى الرجل المخذول الذي رُبط على عمود خشبي من  
بطنه وبقي جسده قلقاً، لكنه استطاع أن يرفع وجهه المرتعب  
قليلاً، ناظرًا إلى أبو العينين باستعطاف. غير أن الأخير صاح  
ووجهه يكتسي بلامح وحشية:

- يا مجاهدين.

انتظمتنا بالصمت المطبق الخائف:

- هذا هو الطبيبُ الحلبيُّ الذي ائتمناه على أرواحِ مجاهدينا، لكنه خانَ الأرواحَ المجاهدةَ في سبيلِ الله وانكشفَ بأنه جاسوسٌ يعملُ لجهةٍ تعادي خلافتنا الراشدة، وكانَ يقتلُ جرحانا بالسَّمومِ والأدويةِ الفاسدة.

ثم وجّه كلامه إلى الطبيبِ الميت - الحي:

- لا أنسى في يومٍ ما أنك سهرتَ على راحتي أيامًا وأسابيعَ، وأعطتني بعنايتك الشخصية، لكنْ كانَ هذا واجبك قبلَ أنْ يغويك الشيطانُ وتصبحَ خائنًا. أما الآنَ وأنتَ هكذا مدانٌ ومتلبسٌ بالخيانةِ، وقتلِ الأبرياء من مجاهدي الخلافةِ، فهذا واجبي وعليّ أنْ أنفذهُ أمامَ اللهِ فهوَ القاضي بيننا بالحقِّ. كانت عينا الطبيبِ تنطفئان بالتدريج، وجسده يتخاذل وصلعته تحمرّ بطريقة غريبة، كأنما سينبثق منها دم غزير بعد قليل.

- سامحك فرصةً أخيرةً لتتلوَ شهادةً أنْ لا إلهَ إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله.

كان الصمت أكثر قسوة من أي وقتٍ مضى، وأبصارنا شاخصة على الطبيبِ الحلبي المنهك، الذي لم يستطع حتى أن يحركَ شفتيه، وكان أبو العينين يحثه على الشهادة:

- قلها ولا تُحمَلنا إثمك قبلَ أنْ ترحلَ إلى ربِّ السمواتِ بعدَ قليل.

تمتت شفتا الطبيبِ بشيء لم نسمعه، وكان أبو العينين

يُدني أذنه منه ويهز رأسه، وكُنّا أنا وسربست نعاني من تلك اللحظات المميّنة، ونحن نرى الطبيب لا يقوى قول أي شيء، حتى خلناه مات على عمود الصلب، غير أن سوطاً لاذعاً من أبي العينين على وجهه أيقظه بأنين ضعيف، فسارع شابان ملتحيان لركل الحلبي على بطنه أكثر من مرة، فتحرك المصلوب قليلاً وصدر منه صوت يشبه التوسل.

أشار أبو العينين إلينا أن نجلس كلنا في الباحة المشمسة وخاطبنا:

- سناخذُ أدوارنا تَباعاً بتقطيعِ أوصالِ هذا الكافر الخائن.

تعالّت صيحات الله أكبر بهستيرياً جماعية انخلع فيها قلبي، وطار صوايي، وشعرت بألم يعتصر كل جسدي، وكان بالإمكان أن نرى الطبيب المصلوب قد بدأ بالتبول على نفسه، وهو يلهث كقط أطبقت عليه جدران حديدية بدأت تضيق كل لحظة.

- كونوا معَ الله يا قوم. قطعوا هذا الجاسوس الخائن، فحرامٌ أن يضمّه قبرٌ. هذا مصيرُ الذين يخونونَ اللهَ سبحانه وتعالى في ميدانِ الحق.

الله أكبر.. الله أكبر.. كانت الصيحات تصك الآذان، وبدأ سعار غير معقول يجتاح المصلين، وتطايرت رائحة فاسدة جداً من المكان، حينما انقضَّ الجميع على الطبيب المصلوب، وتنافسوا في نهشيمه وتقطيعه وتفكيك جسده بطريقة أجفلتنا، وجعلتنا نرى فيلماً من أفلام الغابات ذات الطقوس الدموية، وتحول



الحلبي بعد لحظات فقط إلى قطع متناثرة بين الأيدي والأفواه.  
أكلوه حيًا قبل أن يموت، وكانت الدماء تتسرب من بين  
الأفواه، وتسيل على اللحى بسعادة لا نظير لها.  
لم يعد الحلبي حليًا بعد وقت خاطف، حينما هجمت عليه  
صيحات الله أكبر المخدرة، وفرقت جسده إلى كل اتجاه، وبقي  
عمود الصلب واقفًا، ملطخًا بدم قليل متناثر، لكن من دون  
جسد الطبيب الذي كان قبل قليل يرتعش، ولم يستطع أن يقرأ  
شهادة الموت.

## رأس الخيط

أشبه بشرفة معدنية كانت زاحفة من أعلى محل مقفل،  
ألقت بظلها العريض على القطيع الهاجع تحت ظهيرة اليوم،  
وكان راقيار يتحدث مع الأعمى بهمس قبل أن يسلمه رزمة  
نقدية كبيرة، ثم طبطب على كتفه وانصرف.

لم أشأ أسأل عن هذه العلاقة الغامضة بين الرجلين، لكنها  
باتت شبه واضحة لي، فراقيار ذئب سنجاري كما بدا لي، شجاع  
وغامض وسريع البديهة؛ لكنني كنت أشعر بالرعب منذ يوم  
أمس، ولم أستطع النوم وأنا أعيد في رأسي صورة الحلبي الذي  
أكلوه نيتًا وحيًا، وتفرقت أوصال جسده في صيحات الله أكبر  
المسعورة. لذلك كنت أرى ولا أرى الأعمى، الذي جاء إلى هذه  
السوق الصغيرة تحت الشمس، وأخذ رزمة نقود حمراء.

لا أستطيع إعادة المشهد على نحو صحيح، فما حدث كان غريبًا  
وبشعًا ووحشيًا إلى أعلى درجة مفرطة من الهمجية، وهذه أول  
مرة في حياتي أرى بشرًا يتحولون بلمح البصر إلى حيوانات ضارية  
هانجة في غابة سائبة، بينما بقي أبو العينين يتفرج بدم بارد،  
وابتسامة عريضة تنفتح في وجهه، وهو يشاهد تقطيع الطبيب

الحلبي حتى أكلوه كله في وقت سريع لم أستطع أن أستوعبه، وهو ما مكّنتني من ألا أفهم شيئًا كما جرى سوى صور كبوسية جاءت سريعة، وانتهت بلعق الدم المُمال على اللحي. حتى راقيار ظل في وجهه خوف، لم يستطع إزالته بالرغم من أنه حاول أن يواسيني:

- علينا أن ننسى يا رجل. لا بد من أن تنسى كل ما ترى، فنحن في مدينة محتلة، ومحتلوها ذئاب وخنازير وضباع. هكذا علينا أن نفهم الحالة بشكل طبيعي. لم أقل شيئًا.

كنت خائفًا وجسد الحلبي الممزق بالأيدي والسكاكين والمأكول حيًا لا تبرح رأسي.

- لم تسألني عن نور الدين!

لم أفهم لذلك أعاد بصيغة أخرى:

- الأعمى.

- ما به..؟

- لم تسألني عنه!

لم أستطع تجميع مشاهدات سريعة وقصيرة كنت منتبهًا لها في الأيام الفاتحة:

- تركت الأمر لك.

- كنت أتوقع ألا تسألني عنه.

قلت بشكل سهل:

- إنه أحد المفاتيح.

ضحك راغبًا وتبدد الخوف العالق في وجهه:

- لكن حادثة أمس وتقطيع الحلبي الوحشي، نجعلنا نترس

كثيرًا، ونضبط أسرارنا بشكل أكثر دقة.

ثم أضاف:

- بالمال نحل بعض الأمور العالقة.

فزّ قلبي واتسعت عيناى كما لو أنني انتبهت إلى ما يرمى إليه:

- ونشتمان؟

دنا منى وتطلع إلى عيني وقال:

- توصلت إلى أسيرة واحدة خلال وقت قصير.

- ونشتمان؟

قلت من السؤال المضني مرة ثانية، فأجلسني على تنكة

مغروزة في المكان، وكان الظل يطبق عليها:

- علينا أن نمسك برأس الخيط مهما كان صغيرًا، وهو الذي

يقودنا إلى بقية الخيوط.

هزرت رأسي موافقًا، وعيناى تبحثان عن الأعمى الذي توارى

بين الأزقة:

- نور الدين مسلم شجاع، وهو ورقة رابحة جدًا لا يلفت

الأنظار إليه.

كانت عيناى فيهما أسئلة كثيرة أثق بقدرة راغبًا على اكتشافها:

- ساعدني كثيرًا في تخليص بعض الأسيرات في أكثر من مرة سابقة.

اعتدلت بجلوسي وأنا أوازن التنكة تحتي والتي بدأت تميل:

- نور الدين أعمى. لكنه يرى مثلي ومثلك!

فضلت أن أصمت:

- لا يوجد في شنغال غير الجامع الذي يلتقون به يوميًا. هناك

أهمية نور الدين.

وقف يتطلع إلى المكان من كل جانب. ثمة سيارتان تمرقان

بسرعة، وبعض السابلة العائدين من السوق شبه المهجورة.

- أحد مسلمي شنغال.

جلس وهو يكمل:

- كان يعمل في الموصل مدرسًا للتربية الإسلامية، وفي العطلة

الصفية يرجع إلى قريته سنويًا، حينها وقع هجوم داعش،

فبقي مع من بقي، ولا يعرف مصير أسرته.

وقبل أن أقول شيئًا بما يشبه الشك، قال راقيار وكأنه علم

ما في صدري:

- لم يكن أعمى طبعًا. لكن سُجن وعُذّب من قبلهم، فخرج

شبه أعمى أو قل أعمى!

قلت بأم:

- كان مدرسًا فصار متسولًا أعمى..!

لم يتأخر راقيار بالجواب:

- كل شيء يتغير في الحرب. الأسير لا حول له ولا قوة.

تساءلت بصوت مسموع وبشك أيضًا:

- هل هو أعمى فعلاً؟

## مهنة العميان في الحرب

### 1

يسمونني أبو النسوان هههه

تسمية ظريفة لا تخلو من حسد وإيماءات معينة، حرصت على أن أبدو مغفلاً كلما سمعتها من جماعة ابن تيمية الذين يحسدونني على أنني صاحب زيجات متعددة، لا سيما المجاهدين العراقيين الذين وفدوا من خارج شنغال، ليمرروا المعلومات عن مقاتلي جبل سنجار من الأيزيديين في مزار شرفدين الذي بقي عصياً على دولة الخلافة، ولم يستطيعوا احتلاله حتى الآن.

أكره المجاهدين العراقيين بصراحة، لأنهم خونة الأرض والمكان والتاريخ، وأفكارهم الجديدة لا رصيد لها في الواقع، لا ماضيًا ولا حاضرًا، غير أنهم ركبوا موجة الجهاديين الدواعش بطريقة إرهابية متطرفة ومخيفة، لكنني أستطيع التعامل نسبيًا، وبحذر مع المجاهدين الأجانب، من شيشانيين وأفغان ومنغوليين وبريطانيين قليلين، أحسست بوجودهم أكثر من مرة، حينما أكون في باب الجامع، وهو مكاني الذي لا أبارحه، ولو أنهم في

نهاية الأمر أجانب، ومغتصبون لمدينتي، بعدما فقدتُ بصري  
أثناء التعذيب، ولهذا لا أحبهم أيضًا في سري.

## 2

أبو النسوان.

أغلب المرات يقولها المجاهد الصحراوي الخشن أبو المعتز  
حينما يدخل إلى الجامع وحينما يخرج منه، فأستوعب مزاحه  
للحوح بمزيدٍ من القلق، مع يقيني بأنه يريد أن يشيع عني  
هذه الصفة بين رفقائه الشباب الذين أخشاهم أكثر من  
كبار القوم، ربما لتكرار زيجاتي بين فترات ليست بعيدة؛ لكن  
مثل هذا المزاح يورث بي الخوف ضمناً، ويجعل القلق آفة لا  
أستطيع الفكك منها، لا سيما وصورة الطبيب الحلبي المأكول  
تأكل رأسي، وتفتت روحي، عندما كنت أسمع التهام جسده  
المتوزع بين المصلين، وأسمع تكسير عظامه بين الفكوك الشرهة،  
وصيحات الله أكبر المختلطة بلحمه ودمه وصراخه الذي ذاب  
بين أسنانهم.

لم يكتف أبو المعتز بهذا المزاح الثقيل، بل زاده حبتين حينما  
قال لي ظهر اليوم بأنني عثين ولست فحلًا، لهذا تهربُ مني  
الصبايا بعد وقتٍ قصير.

وكان يضحك بقوة. يفتح فمه العريض ويطلق صيحاتٍ  
ضاحكة طويلة، فأحس بتفاهته أكثر من اللزوم، ولا أملك سوى

محاباته وأضحك بعمق أجوف أيضًا؛ فبالضحك تمر الكثير من الأمور الصعبة كما أتوقع.

ربت على كتفي وهو يقول:

- في الزواج المقبل قد تحتاجني أيها العجوز نورالدين

هههههههههه

ثم بصوت أعلى:

- استغفر الله استغفر الله. أنا أمزح معك يا رجل. أنت

رجل ونصف يا نور الدين.

يمضي عاصفًا؛ ومعه الفتى أبو سيّاف كما أظن؛ فيخفق الهواء من حوله، وتذهب معه رائحته الصحراوية الثقيلة، فأتحسس المكان من حولي، وأنا أرى كل شيء يمر بانتظار بعض الذين يستظرفون وجودي، ويمضون بعض الوقت معي في أحاديث تتقطع دائمًا عن الحياة والحرب والنساء والزواج والصلاة والحوريات والحلال والحرام والجنس والكفر والإلحاد والأيزيديين والكرد والشيعية والسنة والمسيحيين والصفويين وتكريت وبيجي والنفط وسنجان والموصل والعراق ودولة الخلافة الإسلامية التي تتوسع كل يوم.

### 3

وقتٌ كثير يمر في فناء الجامع، نتبادل فيه مع ثلة الشباب بعض الأحاديث بشكل طبيعي دون توجس، وكنت اسميهم



في سري «شلة ابن تيمية»، والحمد لله ما زلت أحفظ الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كوني مدرّسًا قديمًا أيام الموصل لمادة التربية الإسلامية، لهذا لن يمر عليّ الكثير من الغش وتحريف المعاني، لكنني مضطر أن أكونَ على مقربة من دينهم الجديد، ومرجعياتهم الوهابية وكتبهم القديمة، لا سيما منهاج السنة لابن تيمية الذي قرأوا لي بعض فتاواه الفظيعة، لهذا كنت أتلافى أية أخطاء محتملة في أن أتقبل منهم مطاوعًا أي تلقين جديد أسمعه منهم، حتى أكون معهم بروح الخلافة الإسلامية الصحراوية الدموية التي أنشأها محمد بن عبد الوهاب، علي أطلال معلمه ابن تيمية، لهذا أنا متحفظ جدًا.

لا أرى شيئًا وأرى كل شيء.

أسمع وأقول القليل لأبقى تلميذًا مع هؤلاء الصغار بالرغم من ما بعد أربعينيتي الزاحفة إلى الخمسين، فالمعرفة ليس لها عمرٌ معين. هكذا كنتُ أقول لهم من أجل أن أبقى صامتًا، أتلقف الكثير من معاني دينهم وما يفكرون به، وبالتالي أخطط لما أفكر به مقتنعًا بالثقة التي بيننا بوصفي رجلًا فقير الحال، وأعمى أقضي ليلي في البيوت الكثيرة المهجورة وحيدًا ومتوحدًا. أتنتقل من بيت إلى بيت محاذرًا من ألا أبتعد كثيرًا عن مكان الجامع، فالليل فيه وحشة مخيفة لبيوت تركها أصحابها فآزين ذات يوم ساخن في جحيم فوضوي، وغزوة غادرة قتلت الصغير والكبير، لكن بقيت أرواحهم تحوم حولها منذ سنتين، وكنت

اشعر بالكثير من الأرواح المجهولة تدور وتحوم في ليالٍ حالكة  
الظلام، لكنها لم تؤذني بل تعطف على وجودي الناشز التائه  
في هذا المدار الداعشي المرعب، وتطلب مني أن أكون حارسها  
المؤمن الوحيد. فكنتُ وما أزال حارس البيوت المهجورة في  
الليالي المريرة التي عشتها وأعيشها وما أكثرها.

#### 4

قد تجذبني لغة بعض العربان الشباب الفصحى، فأنصت  
إلى رنينها القديم، لكنني أنفر منها لقراءتها غير المستساغة  
حينما تلوكها ألسنٌ صغيرة متكلفة جدًّا، تنذر بالخوف وتفسر  
بطريقة الترهيب التي لم أقرأ مثلها في كتب التاريخ الإسلامي.  
فيشغلني كثيرًا هؤلاء الشباب الانغماسيون الجاهزون للانتحار  
والموت والقتال حتى آخر نَفْس، من أجل قضية مشوهة  
ممتدة عبر التاريخ. غير أنني مضطر أن أتماشى مع هذه  
المعضلة النفسية بيقين داخلي مضاد، وأعكس اليقين الآخر  
الذي يريدونه، مستسلمًا وصاغرًا من أجل نبتة صغيرة نمت  
بداخلي مع مرور الأشهر هي: ليس الوطن هو الجزء المسلوب  
مِنَّا فالأوطان تعود مهما طال بقاء الغزاة، لكن الشرف هو  
ذلك الجزء المسلوب الذي لا يعود كما كان. لذلك اعتدتُ مع  
هؤلاء أن أكون يقطًا وأهز برأسي فأنأ لا أحتاج إلى كثير من  
المعاني والتشبيهات والكلام لكي أفهم. قالها الراعي الذي يتردد

بين فترة وأخرى على الجامع ويقضي قيلولته، أو يحتمي من المطر أو يؤدي الصلاة بعيدًا عن أغنامه التي يتركها في السوق.

مرة انتابني الخوف منه في ظرفٍ ملتبس جدًّا:

- هل تعرفني سابقًا؟

- لا أعرفك يا نور الدين. لكنني أعرفك. الشنگاليون يعرفون

بعضهم أيزيديين كانوا أم مسلمين. فينا ملح شنگال. بأشكالنا ولهجاتنا وألسنتنا وملابسنا.. والآن في ضياعنا وشتاتنا هنا وهناك.

- هل صرتَ معهم؟ أ.. أعني كيف فلتتَ من الأسر حتى الآن؟

- كما فلتتَ أنت. لكل واحد ظرف ومصادفة وحظ. نعم.

حظ لا غير.

ثم همس بآلم:

- أنت الأعمى وأنا الأعرج. يعني أنا وأنت هو كل ما تبقى

من شنگال.

وقتها بكيت. وما زلت أبكي.

## 5

ينصحنني بالزواج من جديد:

- أكمل نصف دينك يا نور الدين. أنت رجل ضرير وتحتاج

إلى امرأة في حياتك قبل أن تشيخ وتموت وحدك.

يبدو جادًا لكنني أنني أجاريه وأضحك وأتمنى أن يغير

الموضوع:

- هذه المرة أعدك ألا تهرب منك مثل الباقيات.

أحاول أن أمسك كتفه الصحراوي ولا أعرف لماذا:

- ههههه هذه مشكلة العمى يا صديقي المجاهد. لا أعرف

لماذا يهربنّ مني. هل كل العميان تهرب زوجاتهم منهم؟

كنت أتساءل على مضض، وعيناى من خلف النظارة ترمشان  
مسرعتين، لكنني أرسم شبحه المتين وهيكله العضل من صوته  
ونبراته الخشنة.

- الغريب أننا لم نعثر على أية زوجة من زوجاتك الهاربات.

يدق في نبضي خطر أخشاه جدًّا، وأتذكر الطبيب الحلبي

الذي أكلوه قبل أيام:

- لا يتبخرنّ سيدي المجاهد أبو المعتز. ستعثرون عليهمنّ

فسنجدار ليست كبيرة ولا واسعة.

قبل أن يتركني يدس في جيبي ورقة نقدية:

- سنزوجهك رغماً عنك، وسنتكفل كما في كل مرة بمهرك،

فصايا سنجدار الأسيرات حلوات. لكن هذه المرة عليك أن تربط

صبيتك بحبل حتى لا تهرب هههههههه

يمضي شبح أبو المعتز كالعاصفة الترابية، وأحس بأن ريحًا

رملية تتبعه وهواءً ساخنًا يركض وراءه، لكن يبقى صدى

كلماته يقلقني ويعذبني، فأعيده على مدار الوقت وأأمل

ما وراءه مقتعدًا باب الجامع، أو يخيم الليل علي في أي بيت

مهجور.

أخشى هذا الكائن وأقلق منه كثيراً، وتطوف في رأسي أفكار غريبة عن هذا المجاهد الذي لا يقل عنهم رعوناً وهمجية، وأسمع الكثير عن أفعاله الإجرامية في الفلوجة والأنبار وتكريت والموصل كذبّاح وقاطع رؤوس، لكنه يحتاج بعض الوقت ليكون أميراً يتبعه شلة ذبّاحين، تتلقى أوامر الذبح الإسلامي منه.  
يا للعتك يا نور الدين.

كيف تتنصل من هذا الكابوس، وتهرب بجلدك قبل أن يأكلونك حيّاً كالطبيب الحلبي المسكين الذي سال دمه على اللحى الطويلة.

أبتعدُ بضعة أيام، وأعود متوكئاً على عصاي، بدريعة المرض لو صادف وأن سألني الصحراوي أبو المعتز الذي يدس كعاداته ورقة نقدية بجيبتي، وتمضي وراءه العاصفة الرملية، ولا ينسى أن يحثني على الزواج من جديد؛ فزوجاتي السابقات هاربات إلى جهات مجهولة حتى الآن. والجهات المجهولة لا يعرفها إلا رافيار الشجاع.

أنا متزوج من عدد كبير من السبايا الصبايا. لكنني غير متزوج.

هذه مهنة العميان في ظروف الغزو والحروب.

## زوجاتي الهاربات

- هذا مطر نهاية نيسان. كله خير وبركة.

دخل راقيار إلى البيت يزبح عن رأسه قطرات المطر العالقة، وييده مصباح صغير، بعد أن رفع ستارة من نايلون ليحمي قطيعه من المطر الغزير في الفناء المتروك، فتراقصت ظلال الهول وموجوداتها المبعثرة وجلس مبللاً تقريباً ثم انطفأت الظلال وعمت ظلمة ساكنة تخلصها المطر النيسانى المتدفق. أعاد إشعال المصباح، وتوجه إلى فانوس مركون عند عتبة شباك المطبخ، فعالجه وأوقد فيه قبساً من نار صغيرة كانت كافية لإنارة المكان المقفل علينا نحن الثلاثة.

هذه أول مرة أكون مع نور الدين في بيت ضمنا نحن الثلاثة، ولا أقول أنها مصادفة، ثلاثة أشخاص تائهين في مدينتهم جمعهم بيت مهجور، بل كان هذا من تخطيط راقيار الذي كتم عني الكثير من الأمور كما قال لي مرة في الجبل، ونحن نتخفى من العيون والمراصد: عندما نصل إلى شنغال لا تسألني كثيراً. أنا أتحرك ببطء مرة وبسرعة مرة. ألتقي بالكثيرين من الدواعش وأهديهم غنماً، ومالاً، فأبدو كأنني صديقهم الحميم. ستجد من تعرفهم

من الشنگالين فتصرف وكألك نسيتهم. أنت لست غربياً عن شنگال وتعرف الصغيرة والكبيرة، ولكنك سوف لا تتعرف على الكثير من المجاهدين الجدد؛ فالقدماء أيام كنت هنا قُتلوا على الأرجح في المعارك، أو نُقلوا إلى جبهات الموصل والفلوجة وتكریت. ستجد صغاراً بطول إصبعك الوسطي، فتحاشهم، فمثل هؤلاء هم القنابل التي تشتغل عليها دولة الخرافة الإسلامية. الانغماسيون كما يسمولهم. وهؤلاء عقولهم متحجرة جداً توقفت عند أعوام ما قبل الهجرة، يوم كان الأجلاف يتبولون بين أفخاذ نسالهم خوفاً من ذئاب الليل في الصحراء.

أخرجني رافيار من صمتي وقال بهدوء:

- شنگال لنا فقط. نحن الثلاثة أهل مدينة واحدة. أيزيديان ومسلم. نور الدين مسلم لكنه شنگالي أباً عن جد.. وربما هناك متخفون في القرى. لكنهم قلة. والبقية أسرى.. لذلك نحمد خودا على أننا نرى المدينة بشكل حي، ولو تتعذب ونتعذب معها. خلع نور الدين نظارته، ولم أتبين عينيه بسبب خفوت الضوء في الفانوس، كما نزع يشماغه الأسود، وأخذ يهرش شعره ولحيته النازلة، وعلى وجهه طيف لا أعرفه، فبدأ لي - نسيباً - أفتى مما أراه في الجامع كل يوم، كما لو كانت النظارة واليشماغ يضيفان عليه عمراً آخر.

- يرهقني بالحاحه المجنون أبو المعتز. لذلك أنا أكثر حذراً منه هذه الأيام.





- فقد ابنته الصغيرة الوحيدة نشتمان، وما يزال يبحث عنها منذ سنة تقريبًا. لكنها اختفت بين السبايا ولا أحد يعرف مكانها. هنا أم في الموصل أم حلب أم الرقة أم في الفلوجة.

أطال نور الدين النظر في وجهي لكنّ راقيار أكمل:

- نشتمان تتميز عن بنات شنغال بأنها أجمل صبية.

التفت نحوي كما لو يستأذني:

- عيناها زرقاوان. وجهها جذاب جدًا كأنها أنثى بالغة. وهي

بيضاء ورشيقة وصبية صغيرة. يتيمة ووحيدة هذا الرجل.

اضطرب الجو في الخارج قليلاً برعد وبرق خطف على النواقد

المغلقة، وسُمع صوت المطر يطرق السطح الواطئ ويهمي على

النواقد من خارجها.

قال نور الدين وهو يترك حبات مسبحته نازلة واحدة فوق

الأخرى، فتقطق بالتتابع بعد إن ران الصمت قليلاً:

- كأنني سمعت بهذا الاسم من قبل.. نش.. تو.. مان..!

فزرت وهو يتهجى اسم ابنتي بطريقة بطيئة:

- سبايا كثيرات للأسف يتداولونهنّ للبيع والشراء هؤلاء الحمقى.

تساءل راقيار:

- هل بقيت في شنغال سوق لبيع الأسيرات؟

قال نور الدين:

- لا. لكن فيما بينهم يتم هذا الموضوع. عملوه سوق دعارة

أولاد الزنا.. يتبادلون السبايا والنساء فيما بينهم لقاء مبالغ

رمزية أو يرسلونهن إلى الموصل والرفقة لقاء مبالغ مائة دينار.  
- ألا يحصل هذا الآن؟

- يحصل بشكل قليل.

- كيف؟

- كلهم موتورون جنسياً. شباب غير ناضجين يتدلتون.  
ويموتون من أجل وهم اسم الحوريات.

- ليذهبوا إلى جحيمهم فهناك حورياتهم.

تأفنت بلا إرادة وموردة نشتمان تداهمني بين لحظة وأخرى.

بابو وينك؟

تدخلت في الكلام وقلت لنور الدين الذي أراد الآن مفتوح  
العينين، سوى من شروخ قديمة على وجهه على ما اعتقد:

- بقيت في الموصل ثلاثة أشهر ولم أجد لها. كل مزادات البيع  
والشراء حضرتها لكن لم أعثر عليها.

كان نور الدين يعصي إلي بانتهاد:

- الأسيرات العائدات يؤكدن وجودها في أحد بيوت الأمراء،

كونها صبية جميلة، لكن هذا ليس نهائياً. لا أعرف. قد أموت  
ولا أراها بعد.

قال نور الدين:

- الأمراء يعزلون الصبايا الجميلات لهم. خنازير. لا يخافون الله.

جمع مسبحة في يده اليسرى وأشار لي بيده اليمنى:

- قد نجدها. بيوت الأمراء ليست بعيدة.

## شُلة ابن تيمية / ١

- ها قد جاء العلامة أبو سياف.

شاب بنصف عمري تقريبًا، يتردد على الجامع كثيرًا مع أصحابه، يعدّونه حفيدًا لابن تيمية، وحافظًا لفتاواه، ووجهة في الدفاع عنه، ويفخر بهذا علنًا « أنا خيرُ خلفٍ لخير سلفٍ ». كان اسمه يوحى بأنه رجل عريض، وطويل، وسيفه يتهدل على خاصرته، غير أن معاشرتي له بشكل يكاد يوميًا، أفرز لي صبيانته وطيشه وتمسكه بأوهام دينية غريبة، ومتطرفة، لم أسمع أو أقرأ عنها شيئًا من قبل. وحينما يتكلم بأمر الدين وفتاوى ابن تيمية فإنه يفخّم صوته، ويحرص على مخارج الحروف، وحركاتها، وسكناتها.

في كل مرة أتخيله منفوسًا كالديك حينما ينادونه أبو سياف، فلهذه الكنية وقعٌ خاص عليه كما يبدو، حتى خلته لا يتحرك إلا والسيف راکز في خاصرته اليسرى، مثل محارب صحراوي ألقت به القرون الهجرية إلى الحاضر الدموي، مثله مثل كائنات أخرى اختفت بالقتل والانتحار الفوضوي في الجبهات الساخنة، حينما أملت عليهم أسماؤهم المستعارة مواصفاتٍ مهيبة أخرى

على الآخرين: المنتصر بالله، أبو حذيفة، أبو عائشة اللبيبي، أبو صقر السعودي، أبو الفهد. وهؤلاء مروا في المدينة، غير أنهم فجروا أنفسهم في أماكن مختلفة من تكريت والموصل والفلوجة.

مرة تبجح أبو سيّاف بطريقة فيلمية:

- سيفي بيمينني، وإيماني بشمالي، وقلبي مترع بحب الله جلّ وعلا، فمن سينتصر عليّ؟

وكانت يشرع يده اليمنى في الهواء كالسيف، مسني رفيفها العصبي وكنت أرثي لهذا الشاب المنفعل مع اسمه كثيرا لكنني كنت أخافه.

يكرهون أسماءهم، ويحبون المستعارة منها. منشطرين على أنفسهم بطريقة فظيعة حتى صار من اليقين الثابت أنهم لا ينتمون لاسم معين، لأنها تتبدل حسب المواقع التي يشغلونها، والأماكن التي يتواجدون فيها.

- كل الأسماء لنا. كنت أبا سارة الحجازي قبل سنة، واليوم صرتُ أبا سيّاف، وغداً لا أعرف ماذا سيسميني الله سبحانه وتعالى. نحن نتصرف بوحي يأتي لساعته، ويسمينا لأننا جنود الله في كل مكان، وأعمارنا ليست لنا إنما في سبيل دولة الخلافة القائمة على الحق والعدل.

أسميهم في سري شلة ابن تيمية؛ هؤلاء الصغار والشباب، الملقنين تلقيناً لا يضاويه تلقين في عماء القلوب والضمير والفكر؛

فلا يعرفون من الشرع غير فتاوى ابن تيمية، ولا يعرفون من الحياة غير الموت، ولا يعرفون من الموت غير الحوريات، ولا يعرفون من الحوريات غير الجنس.

حتى من دون مناسبة يتحدثون ويتبارون ويتغزلون بشيخهم ابن تيمية:

« كأنني به نبي كل العصور خالد أبدًا.. إنه حالة كونية لا نظير له».

« شيخنا يرى أن كل مجاهد يستهدف الكفار، ويجد بينهم المسلمين، يجوز له قتلهم من أجل الظفر بالكفار، فالغاية إيذاء الكفار وقهرهم بالوسائل المختلفة».

« ابن تيمية قال بدار إسلام، ودار كفر التي يتوجب قتالها وسببها واغتصابها، وأما الأولى فقد أباح شن الحرب عليها، وفرض أحكام الشريعة، حتى من كان يدين بدين الإسلام فيها».

« في ظروف قتال الكفار، تُستحل دماء المسلمين لغاية عظيمة؛ هي أهم من وجودهم».

كنتُ أسمع بذهني يقط، وكنت أبكي في سري على هذا الخراب الفظيع.

## أنت تبقى مع الغنم

أخبرني رافيار بموعد عرس نور الدين يوم غد الخميس.  
كانت مفاجأة لي، وكان رافيار أكثر فرحًا مما كنتُ أتصور.  
لم أقل شيئًا يناسب الحدث غير المتوقع بالنسبة لي، لكنني  
بقيت أنظر إلى رافيار بإعجاب ودهشة ملحها الرجل في عيني  
اللتين كانتا تنظران إليه بالكثير من الغموض.

كانت ظهيرة شمس ما بعد نيسان في سوق الأغنام. لقد مر  
شهرٌ على وجودنا وبدأ القطيع بالتناقص بيعًا وهدايا يهبها  
رافيار لا أعرف لمن، ولم يخبرني بشيء. وأخذ الجو المشمس  
يبدد الشعور بالبرودة اليومية اللذيذة التي اعتدتها في المدينة.  
دخلنا في الليل المظلم الساكن بعد نهار طويل في السوق  
الفارغ، إلا من أصوات متفرقة لسيارات شرطة الجسبة  
المتسارعة في ليل شنغال، وكان نور الدين في مكانٍ آخر، وبيتٍ  
آخر معتادًا على الوحدة الثقيلة في ليل المدينة الطويل.

- الهدف الأول تحقق، عرس جديد.

قال رافيار بما يشبه الهمس لمست الفرحة الخفي فيه.

- ولشتمان؟

- اششش كل شيء يجري بصمت.

كبحثُ فورة الدهشة التي فاجأتني وبقيت أنصت:

- كلما يقل عدد القطيع، تزداد فيه إمكانية زواج الأعمى من

أسيرات شنغال لديهم. فهمتني أخي سربست؟

هزرت رأسي فقال وصوته ما يزال خافتًا:

- غدًا سأحضر زواج نور الدين، وأنت تبقى مع الأغنام

ونلتقي ليلاً.

نهض إلى المطبخ وانشغل بإعداد قوري الشاي، وبقيت على

صمتي أتأمل، لكنه نادى:

- سأهدي العريس كبشًا، وأذبحه تحت قدمي عروسته الجديدة.

وحينما عاد بالشاي جلس أمامي مباشرة كأنه يلقني:

- نور الدين الورقة السرية المهمة لنا، وأي خطأ سيأكلوننا

أحياء كالطبيب الحلبي.

أخرج من كيس صوفي معلق على الشباك خبزاً يابسًا:

- هناك حلقات متصلة بيني وبين نور الدين، وآخرين لا

تعرفهم للوصول إلى الأسيرات.

فتحتُ عيني، كما لو أن الإنصات في هذه اللحظة هو إنصات

العيون:

- البحثُ يجري عن نشثمان بالمال والذهب. فهمت؟

اتسعت عيناى أكثر مما يجب:

- وسيتزوجها فيما بعد نور الدين.. وستهرب منه كما هربت

زوجاته السابقات على التوالي، وهذا السر العظيم بيننا!

كنت أنظر بقلق ممزوجاً بدهشة، وطار خيالي بعيداً:

- زوجات نور الدين الهاربات الآن يتمتعن بالحرية. فهمت؟

طار رأسي إلى يوم الاحتفال بنات لالش الأسيرات العائدات،  
إلى ساعة التعميد في العين البيضاء. الفرح والرقص والبياض.  
جبل عرفات. رافيار المخلص الأمين.

صبّ المزيد من الشاي:

- نحتاج إلى وقت إضافي لنخرج بزوجتين في الأقل من زوجات

الأعمى هههههه

لم أضحك ولم أبتسم.

- رنّدة. هي الأسيرة التي اشتريتها. أووه. وهبها المجاهد أبو

المعتز، لتكون زوجة لنور الدين..!

بقيت مشدوهاً وخائفاً:

- سنبيع بعض الخراف. أبو المعتز طلب واحداً، وأبو سيف

أيضاً.. سنتخفف من عدد القطيع لكي يكون الرجوع أخف علينا.

ظل جسدي يختض، وغمرتني ارتعاشة باردة، سرعان ما

تحولت إلى حمى مع الوقت، وكان الليل أطول مما يجب

عليّ في هذه الليلة التي سخنتُ فيها كثيراً وتصدّع رأسي، وقد

تقاذفتني الخيالات يميناً وشمالاً، وصورة نشثمان لا تفارقني

بكل أشكالها الطفولية التي أستدرجها كل ليلة إلى رأسي وذاكرتي

وأبوتي الجريحة.. بابو.. نشثمان..

لا أعرف لماذا غمرتني كراهية مفاجئة للأعمى نور الدين.

هل هي كراهية بالفعل أم شيء آخر..!



## سأعلقك على هذه الشجرة

مع أول الصباح فوجئ أبو الخير التونسي بعجلة مكسوة بالطين، تجاهد بصعودها البطيء على السفح، وهي تشخر بقوة نافثة وراءها خرطومًا من الدخان والغبار، وبدت له كدبابة عجوز تنوء بالصعود، وحينما رصدها بناظوره أشار إلى حاشيته من الجنود والحرس أن يرتبوا المكان، ويأخذوا مراصدهم المعتادة على التلال القريبة؛ فهو يعرف مراقبة المجاهد الكبير أبي العينين للمناطق الحدودية المتاخمة لقوات شرفدين التي تشاغل المكان في بعض الأحيان بأسلحة خفيفة، أو ترسل كمائن تتخفى بين الأشجار والصخور.

مثل هذه الزيارات تتكرر بأوقات مختلفة، وربما يكون فيها بعض الملاحظات والتوجيهات، ووجوب الحذر من المباغئات العسكرية؛ لكنه لم يكن يشعر بالارتياح كلما زاره هذا المجاهد النحيل. فالرجل قاسٍ وفي رأسه غرائب ليس من السهل استيعابها، كأن ينتظر نبوته التي طال عليه لكنه يتوقعها، أو يتغذى على نهود الصبايا بوصفه طباً نبويًا قاله له الرسول في أكثر من رؤيا!

شخرت العجلة، ووقفت مخلفة وراءها غيمة دخان أبيض،  
فنزل منها أربعة مسلحين بأزيائهم السود، ثم خرج أبو  
العنين بطوله العجوز ولحيته الطويلة.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أنصار الله ومجاهديه.  
اللهم اجعل صباحهم أملاً ويسراً وانصرهم على القوم الكافرين.  
عانقه التونسي محتفياً به، وقاده إلى غرفة محصنة تقع أسفل  
صخرة قريبة، وبقي جنود الحماية الأربعة على مدخلها.

- وددت أن أنبهكم إلى ضرورة حماية حدود دولة خلافتنا من  
المتسربين والفارين أيضاً، ولا نريد أية ثغرة ينفذ منها أعداء  
الله من الأيزيديين الكفرة والكرد المارقين.

كان التونسي ينظر إلى عينيه البارقتين بوميض غريب:

- كل شيء تمام شيخنا الفاضل. لا تقلقوا من هذه الجبهة.  
ردّ بصرامة:

- نقلق كثيراً من هذه الجبهة يا أبا الخير.

ازداد الوميض في عينيه، وهو يرمق التونسي بعينين شرستين:

- لا دالة على المجاهدين هنا، ولا شهادة تتمكن منها لثبوت  
تقصيركم لكن أشير إلى أن أسيرات أيزيديات هربن من هنا  
بأوقات مختلفة خلال فترة متقاربة.

اضطرب التونسي قليلاً لكنه تماسك بينما واصل أبو العنين:

- ليس عندي دليل ضدك. لكنك مجاهد في سبيل الله، ومن  
أنصاره، وقد تركت ديارك ومالك وحلالك حتى تنصر المجاهدين

على أرض الرافدين، لنوطد راية الإسلام في كل مكان.  
وقبل أن ينطق أبا الخير بشيء واصل العجوز وعيناه  
مخنزرتان:

- تعرف أن طلائع مجاهدينا على مشارف بغداد الآن؟

هزّ التونسي رأسه وفتح ابتسامة رضا على وجهه:

- لا نسمح بأيّ خرقٍ من هنا، ومَن يُحاول الهرب اذبحوه، أو

احرقوه حيًّا، حتى من دون الرجوع إلينا. هذه أوامرنا.

تمكن أبو الخير من أن يقول:

- إن شاء الله هذه الجبهة تبقى أمينةً، وشبابنا يحرسونها

ليلاً نهاراً. وليس هناك ما يُقلقنا.

نهض أبو العينين وعيناه غامضتان فتبعه التونسي إلى باب

الصخرة:

- أكثر من ست عرائس هربن.. يا تونسي..!

ثم التفت إليه وقال بلهجة غير معتادة:

- أيُّ هروبٍ لأسيرة سنجارية من هذا المكان، سأعلّقك على

هذه الشجرة وأحرقك حيًّا.

وأشار إلى شجرة حور عالية تفتحت الشمس عليها قبل قليل.

لم يقل شيئاً آخر.

ترك كلامه صريحاً ومباشراً، تردد صداه طويلاً في رأس التونسي

الذي بقي واقفاً، مسمرّاً في مكانه، يراقب بخوف سيارة الأمير

الكبير التي يسمع شخيرها، ويرى دخانها عاليًا.

## رندة.. ابنتي

### 1

كان عليّ أن أخفي الكثير من القلق بين شلّة ابن تيمية الذين يرفعوا في جعل الزفاف جميلاً ومتواضعا، ومع توصيات أبي المعتز تائهة: لا تهرب عروسك هذه المرة. كن فحلاً يا أعمى.

كنت في وضع لا أحسد عليه، بين عرس إسلامي غريب عروبي لم أرها، لكن قيل أن اسمها رندة وعمرها 21 سنة، حنقة خمس مرات، اشتراها لي.. راق. لأبو المعتز، هو الذي اشتراها لي من صديقه المزواج حذيفة الحجازي، القريب من جداعة أبي العينين؛ وكان المهر المقدم نسخة من القرآن الكريم، وكبشاً صار وليمة محترمة للجماعة في ليلة الزفاف، والمهر المؤخر دينار فضي من العملة الجديدة لدولة الخلافة. لكن في واقع الأمر دُفِع مبلغ آخر لم يُكتب في العقد، وهذا متفق عنيد مع.. مع مَنْ؟ لا أدري والله.

عقد لنا قاضي سنجار الشرعي، عقد الزواج وتركنا نوقّع ونبصم على اسمينا، وهنأني متمنياً لي الخير والحياة الرغيدة في

ظل دواء الخليفة الإسلامية، في ولاية الجزيرة، وسلمني عقدًا  
أصوليًا كما في كل مرة.

لم يطل الحفل ولم يستغرق وقتًا طويلاً سوى العشاء الذي  
حضره شلة ابن تيمية، وبعض الأصحاب من الأفغان والسعوديين  
والعراقيين، الذين باركوا لي الزيجة الجديدة، وهنأوني بصدق.  
كنت قلقًا وخائفًا بدشداشة العرس البيضاء؛ وهي ذاتها التي  
ارتديها في كل عرس بمشاعر مضطربة، لكن يقابله شعور آخر  
بالفرح الآخر، وأنا أقود عروستي الصغيرة الجديدة إلى داري  
المظلمة التي أوقدها رافيار بالشموع والفوانيس، وهيأ فيها  
الكثير من الطعام والأفرشة النظيفة التي جلبها من بعض  
البيوت المهجورة.

## 2

كانت رندة تبكي، وكانت عيناى تدمعان خلف النظارة. لكن  
قلبي مضطرب بعض الشيء.

قلت للعروس الصغيرة المكلفة بعباءة إسلامية تخفي فستانًا  
أبيض يغطيها من أعلى إلى أسفل، فبدت كأنها قالب ثلج:  
- الآن أنت في أمان.

نشجت قليلاً، وكنت يقظاً أتحمس اللحظة الحرجة لها،  
بضمير مسؤول اعتدته في زيجاتي السابقت، وكانت المسافة  
بيننا كافية لأن نتحدث بهدوء.

- أنت كابنتي رندة!

تحرك عمود الثلج، وانزاح البياض قليلاً عن وجهه صغير،  
أمكنني أن أراه بصعوبة حتى قبل أن ينحسر النقاب كله.  
بهتت وتوسعت عيناها الحزینتان، واكتسى وجهها باضطراب  
أفهمته، لأنه ببساطة مرّ بي بست زوجات سابقات في مثل  
عمرها.

- لا تخافي، أنا لستُ زوجًا لك. أهلك بخير وينتظرونك.

انزاح النقاب الأبيض كله فخرج وجه صغير يبكي بصمت،  
وبللتة دموع كثيرة، لكنني كنت أقطر لها المفاجآت بالتدرج  
لكي تكون على تمام الحالة الجديدة التي هي فيها:  
- عليك أن تكوني هادئة. أنا بمنزلة أخيك الكبير. لنقل أنا  
مثل والدك لهذا عليك بكتمان السر.

كان وجهها بحيرة صغيرة من دموع تنسكب، ولا تتوقف، وكانت  
عيناها تتسعان في كل لحظة، لكنهما بقيتا ثابتتين على وجهي.  
- لا أفهم.

كان صوتها متحرجًا، وخائفًا، وفيه الكثير من الرعب.

قلتُ محاولاً أن أعرفها بنفسي بشكل بسيط:

- أنا الأعمى نور الدين ابن سنجار المسلم. قد لا تعرفيني

لكن والدك يعرفني ووالدتك!

- أعمى؟

تساءلتُ وتمتمتُ بدهشة واستغراب، وهي تنظر إلى وجهي

بشك، وكنت نسيت نفسي في الموقف المضطرب، والمتناقض  
كوني عريسًا جديدًا لها، هههه، فحاولت أن أضع النظارة على  
عيني لأبدو أعمى من جديد.

كنتُ هادئًا.

أتحدث بهدوء.

وأصرف بهدوء لزرع اليقين في هذه الصبية التي أخرجناها  
من تلك الظلمات.

رُكِبْتُ العوينات السوداء على وجهي، وقلت لها وأنا أضحك:

- الآن أصبحتُ أعمى هههه.

لم تضحك لكنني لمحت طيف ابتسامة ضعيفًا على وجهها،  
حاولتُ ألا يظهر، وبقيةً منحسرة على نفسها ومحشورة في  
بدلة عرسها.

- أهلك بخير.. كلهم في مخيم شاريا.

بهتت الفتاة وهي تديم النظر لي كأنني عفريت أمامها.

- هذه غرفتك وهذا فراشك وأنا بمثابة أبيك. لا تخافي. أنت

الآن حرة. لكن عليك كتمان السر حتى تعرفي كل شيء.

تطلعت لي بعينين مذهولتين، ما تزالان غارقتين بالدموع،  
وأطرافها ترتعش. كانت ملاكًا صغيرًا حزينًا كأنها في حلم أبيض  
تغرق فيه الآن.

- يعني. أنتَ لستَ زوجي؟

تساءلت بصعوبة وكان صوتها يرتعش.

- لا. أنا أبوك أو أخوك الأكبر. أنا سنجاري مثلك. لا تخافي.  
اعتبري نفسك الآن حرة غير مقيدة كالسابق.  
- وأنت لست أعمى؟  
- أعمى. ولستُ أعمى ههههه.  
تشجعتُ قليلاً، وتوسع الطيف الصغير في وجهها، وما تزال  
عينها تبكيان.  
اقتربت مني وأزاحت النظارة عن عيني بيدين مرتعشتين:  
- هل هذا صحيح؟  
نهضت من مكاني وأنا أتصرف بتلقائية لزراع المزيد من الثقة  
بيننا.  
- صحيح. خذي راحتك واستبدلي ملابسك. أنت ابنتي في  
النهاية.  
تساءلت بصوت غالبةُ الشيخ المتقطع:  
- هل يحدث هذا في شنغال، وفي مثل هذه الظروف؟  
قلت لها بحب، وكنت أرى وجهها وقد استقرت ملامحه قليلاً:  
- في الحرب يحدث كل شيء. وعلينا أن نحتال عليها بالطرق  
كلها.



## يخرج من الحفلة الوحشية بدماء أقل

سهلٌ أخضر منبسط على مد البصر، توزع القطيع يرعى عليه تحت شمس بيضاء في صباح ساكن إلى حد كبير. لم يقل راقيار شيئاً، فقد كان منهكاً بقطف أزهار البلبيل الناعمة، وتجميعها في حضنه ليصنع منها كمشة صغيرة، أخذ يفركها ويستنشقها بعمق، وكان يكرر الأمر أكثر من مرة ويستطيب عصارة أزهار البلبيل الملساء، بينما مددتُ جسدي ناظراً إلى السماء البعيدة حيث نشُتُمان تترأى لي كوردة بيضاء وزرقاء، يحيطها قوسٌ من الشوك المدبب، ثم تتحول بين لحظة وأخرى إلى فراشة محاصرة باللهب، ثم إلى عصفورة في قفص، ثم إلى صورة غائمة تضيع فيها ملامحها، كما لو تبدلت كثيراً، واكتسبت أنوثة مغتصبة، ومغدورة، كانت فيها لا تنظر لي بل تعطيني ظهرها بمواجهة قطيع من الذئاب المنتشر حولها. يأتيني وجه نور الدين الأعمى، بنظارته السوداء. يهبط من السماء البعيدة كوجه سينمائي شاهدته كثيراً في أفلام الأسود والأبيض، لا سيما أفلام الجاسوسية والمغامرات. أرحتُ عنه النظارة الملازمة لوجهه، فتكشفت لي الكثير من

ملامحه السرية المخيفة، وبدأ لي كأننا آخر لا يمكن فهمه بسهولة، مكتسبًا كل يوم بحلّة تزيده غموضًا، وكنت أحسده على هذه الجرأة والشجاعة التي لا يعرفها غير راقبنا، كوجه مجهول لا يعرفه الشنكاليون.

في ليلة زواجه الماضية حلمتُ به حلمًا سيئًا. تبدّل وجه الطبيب الحلبي المصلوب به فأكله المجاهدون حيًا، بناءً على قرار القاضي الشرعي الذي عدّ فيه الحلبي جاسوسًا على دولة الخلافة، لكنّ نور الدين وهو في صلبه كان يضحك، ويقول أشياء غريبة لم أستطع فهمها، فيثيرهم غيظًا ويُمعنون بأكله، لكنه لم يمّت حيث كان جسده يتعافى، وأطرافه المقطوعة تعود إليه، وجلده المسلوخ يتحول إلى دسداشة بيضاء تغطي جسده النحيل.

أفزّ عطشانًا كأنني خارج من حريق، ألهث ونار صغيرة تشبّ في أطرافنا؛ ولم أخبر راقبنا بحلم سيء كهذا، تكرر عليّ مرتين بالصيغة ذاتها، لكن نور الدين كان يخرج من الحفلة الوحشية بدماء أقل، تكشفها دسداشته البيضاء كلطخات عابرة، سرعان ما تتمسح فتنفضُ عنه شلّة ابن تيمية من الشباب الجائعين إلى الدماء، بينما تتنابه نوبة ضحك لا نهاية لها.

أعيد ترتيب الكثير من المشاهدات خلال أكثر من شهر. أعيد الشريط كله، ورحلة الجبال السبعة حتى دخولنا إلى المدينة، فأتوقف هنا وهناك. المغارات الطامسة في بطون

الجبال، والكهوف غير المسكونة، والتاريخ الضائع هناك، والقري التي تحفظ الراعي راقيار ويحفظها، والدواعش الذين مدّ معهم أواصر صداقة غريبة من نوعها، لا تخطر على بال أحد.

«صادقٌ عدوٌّ كلما وجدتَ فرصة لذلك»

كان يقول لي هذا ولم أفهم جيدًا.

«في الحرب لا يوجد عدو أبدي، ولا صديق دائم. إنها علاقة

مصالح مشتركة»

كان على حق على ما يبدو.

«الإنسان مهما كان منتصرًا، فإنه يبقى ضعيفًا، ولن تملأ

غريزته إلا الحرية والسلام، لهذا تجد أن المنتصر يستعجل

انتهاء الحرب، لأنه لن يقوى على الحفاظ بنصره إلى الأبد.

علينا أن نفكر هكذا لكي نهزم عدونا، لا من أجل أن نتصر،

لكن من أجل ألا ننهزم مرة ثانية، ونضيع في الوديان والسهول

والمخيمات كما يحصل الآن»

بفطرة عجيبة يقنعني بأن الانتصار ممكن في بعض الأحيان

حتى، ولو كان فرديًا.

«السوط يستسلم إذا كان الجسد صامدًا. والرصاص لا تقتل

الشجاع، بل تحيي فيه جينات البقاء والخلود»

كان راقيار حقيقيًا ومذهلاً، لكنني بروح الفرد اليأس الذي

ينظر إلى فرديته المطلقة، كنت أقابله بلعنات لا تنتهي عن

الذين سرقوا ابنتي، واغتصبوها عندما نكون في الغار الموحش،

وفي الخارج أصوات ذئاب وكواسر، ومعنا نعاج وخراف تغري  
الضواري بالتقرب منا، وكان يرد ببساطة:

«لا تلعن إلهًا لا تعبده، فإنك تُحيي فيه غريزة الدفاع عن

نفسه»

يوضح لي كجاهل لا أقوى على الفرز والتفكير:

«لا تلعن الدواعش، فإنهم عبارة عن آلهة جدد، ودماء  
رقابهم مسفوكة أمامهم بلا تردد، وأجسادهم ملغومة بالموت،  
وأسنانهم مهياة لتأكل الصخر والحجر والأخضر واليابس.  
تعامل معهم كآلهة عادوا من التاريخ الأسود، وأنهم على  
حق، وأنا حيوانات كافرة نهرع إليهم لنتوب أمامهم كهذا  
القطيع. واترك فكرة خودا القديم فإنه لا ينفع الآن. الدين  
تغير يا صديقي والحياة تغيرت كثيرًا».

## عرائس في طريق الألغام

منذ ليلة الزواج وهي تبكي.

لا تمر لحظة إلا وهي تنشج وتتأم.

أسبوع صعب لا تستطيع أن تستوعبه، فتبدو كأنها خارجة

من كابوس، ودخلت في غيره.

لا تريد أن تصدق أن الحياة منحتها في لحظة مناسبة، أو غير

مناسبة، فرصة النجاة بالرغم من هذه الزيجة الجديدة، لكنها

أدركت أنها فرصة محفوفة بالخطر والموت حرقاً، فتشظت

من داخلها ولم تستطع التوازن كثيراً، وكانت في أوقات كثيرة

ترى أهلها خلف جبل سنجار الشاخص، تقيس المسافة بينها

وبينهم، كما تقيس قلبها ونبضه الخافق فتجد الأمر صعباً

ومستحيلاً.

زوجاتي قبلها كنَّ يبكين وينشجن على طريقتها، وربما أكثر.

واحدة فقط خافت وارتبكت وانشطرت روحها لأنها شهدت

ذبح قريبتها أمامها، فانعقد فيها خوف كبير، وهربت في لحظة

حساسة كما روى لي راقيار فيما بعد، حينما اصطادتها ألغام

دولة الخلافة المجنونة، ومزقتها، وكاد السر ينكشف لولا أنها

ماتت ومات معها السر، وكان موتها نجاتنا جميعًا.

نجوت من الشك فعلاً.

وأحاطتني شلة ابن تيمية بالرعاية اللازمة، ووعدوني بتعويض العروسة، وهذا ما فعلوه لاحقًا بعروسة أخرى هربت أيضًا، لكن طريقها كان سليمًا بلا ألغام.

- لا ترهقي نفسك بالبكاء يا ابنتي.

ترفع وجهها الصغير وتعتزف بطفولة:

- أشعر وكأنني في اختبار. أنا خائفة.

- لسيتِ الوحيدة التي أخذناها بهذه الطريقة.

تساءل بالبراءة ذاتها:

- أين الباقيات؟

- في شيخان ولالِش ودهوك وسرسنك.

فتحت عينيها بوسعهما متشككة:

- صحيح؟

- هناك يتمتعن بالحرية والسلام. فما مضى قد مضى.

- كانت شيلان معي في الأسر سنة كاملة.

- شيلان كانت خائفة مثلك حين تزوجتها بنفس الطريقة،

وبقيت شهرًا حزينًا، ومتوحدة، حتى استوعبت الفكرة.

- واين ژيان؟

- في مخيم شاريا. عادت إلى حياتها والتحقت بدراستها.

- آخر مرة سمعت أنهم باعوها للمرة الرابعة.

- أنا اشتريتها بالمرة الرابعة، سهوها.

- معقولة؟

جلست أمامها وخطبتها بهدوء، بعدما وجدت أنها بدأت تستوعب حالتها:

- عليك أن تهدأي يا رلدة ولا تفضحييا. ستنتهي الأمور بالراحة. استوعبي أنك الآن شبه أسيرة مثالي، وسنعيذك إلى أهلك.. لا يوجد بيع وشراء بعد.

عادت إلى الشك:

- من أنتم؟

تفاديتُ شكها:

- روژين وداستان وچار كنّ هنا. في هذه الغرفة الصغيرة.

- أكاد لا أصدق.

- كوني هادئة وفكري بمصيرنا لو انكشفت أمرنا.

- وهل أرى أهلي؟

- إن شاء الله. فقط استوعبي أنك معي ولو كزوجة شكلية.

أنا بمثابة أخيك الأكبر أو أبيك. لا تقلقي.

- أكاد لا أصدق. لا أصدق.

وعادت تجهش ذابلة العينين، وتشبثت بي بطريقة طفولية.

## الله - الدين

منذ يومين أخذ خمس نعاج، وتركني في السوق ولم يعد.  
قال لي لا تقلق لو تأخرت عليك بضعة أيام، فالعمل يقتضي  
أن أجوب القرى في أطراف شنغال. قطيعي قليل ويمكن  
السيطرة عليه.

أوصاني ألا أتحدث مع نور الدين في الجامع، مثلما أوصاني  
أن أواظب على الصلاة في الجامع بمواقيتها الخمسة، فهؤلاء  
يفتقدوننا وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شذاذ  
وشرسون، وواحدهم إله تام يبحث عن عرش وسما.  
شلة ابن تيمية اليومية التي تزيد من عدد أفرادها أو تقل؛  
أتحاشاها قدر الإمكان كما أتحاشى لغتهم الصحراوية الفصيحة  
التي تخيفني فعلاً، وتجعلني غريباً لا أقوى على الاندماج  
في مجتمع يطوي الكلام بين لسانه وشفثيه، ويفتعل الحركات  
بطريقة سمجة، لكن أشد ما تخيفني الآيات القرآنية التي تبعث  
على الرهبة، حينما يتكلمونها بالضممة والفتحة والكسرة والشدة  
والإدغام، فتنقبض روحي وأشعر أن الإله ليس هو الذي أعرفه،  
وتمرنتُ عليه كل طفولتي وشبابي حتى كبرتُ، وأنجبت نشتمانتي



الوحيدة التي علمتها أن تتكل على خودا العالي في السماء في كل صغيرة وكبيرة، فذلك الإله هو خودا العظيم ذو القلب الطفولي الأبيض، وإله هذه الشلّة جعلوه قاسيًا ومتوحشًا وذباحًا، لا يفرّق بين الفقير والطفل والمرأة والشيخ المريض، جعلوه سفاخًا، يذكّرني بالمتوحشين البرييين الذين يأكلون الغرباء.

توصلت عبر كل هذه العلاقة المفروضة بيني وبينهم أن الله ليس هو دينهم، ولا الدين عندهم هو الله، إنما هما اثنان لا يتشابهان إطلاقًا؛ كالصحراء والبحر؛ لكن أهل تيمية يحاولون ملء الخوابي بخمرة الدين، ثم يصنعون خمرة الله كيفما يريدون، ويحولون الله إلى ذبّاح ومتوحش ويملأون جراننا بهذه السُّكرة الغريبة، أو نموت باسم أحدها.

أترك الغنم محصورًا في السوق بين أقفاص من الجريد، والتنك، بعد أن أملاً حوض الماء وأنثر بقايا البرسيم والقش وأمضي بين الأزقة التي يصفر فيها الفراغ، لأعيد الماضي القريب وذكريات المدينة التي غرّبتني فيها أكثر من مرة، متذكرًا عيدو المجنون الذي أحمل عصاه التاريخية، المحيّرة بشفراتها ورموزها؛ وليالي الحامل الرائعة التي لا تريد أن تلد.

أمرُّ على ضريح الشهيد الخال عفدال الذي نشأ في ظروف غامضة، لكنه الآن مهجور وتراءى لي أن شجرة التين التي ارتوت من دمائه ذات يوم قد تيبست إلى حد ما، وأن البيوت مشرعة الأبواب تشي بعزلتها عن العالم الكبير.

## أخاف خودا وشيخادي

هدأت رندة كثيرًا خلال اليومين الماضيين، وتيقنْتُ من مغامرة الزواج بطريقة الشراء المتبعة بين القوم. لكنها بقيت تنشج بين وقت وآخر حتى اطمأنت لفكرة الخلاص المرتقبة من دون أن تعرف التفاصيل، وإن بقي فيها شك ما وخوف وقلق لا تستطيع أن تتجاوزه في يومياتها معي.

أكثر من مرة حاولت أن تعرف كيف يمكن تخليصها من المكان. لكنني بقيت أعمى وأصم لا أقوى على الوشاية الآن.

- أنت مسلم أم أيزيدي يا عم نور الدين؟

تسألني بحذر.

- أنا كما أنا.. اسمي نور الدين لكنني أعمى.

تعاود السؤال بطفولة:

- ودينك؟

- ديني الإنسان والجمال والسلام والحرية.

- لا أعرف أتكلم هكذا يا عم نور الدين.

- لا يهم.. اسمعي فقط.

تفرك بيديها وكأنها تلتمس مني شيئًا:

- ولكنك لست أيزيديًا كما أشعر.
- وهل هناك علامة لدى الأيزيدي؟
- تقول ببراءة جميلة:
- أسمعك تصلي في آخر الليل والفجر صلاة المسلمين.
- كلها صلاة.. الله واحد. وهو خودا العظيم كما تسمونه.
- تتساءل أيضًا:
- أنت لست أعمى. صح؟
- أرى قليلًا.
- تطمئن كثيرًا وتسال:
- أنت متدين؟
- لا. لكنني مؤمن.
- وشنو الفرق بين هذا وذاك؟
- المتدين مجنون. والمؤمن عاقل.
- هههههه
- ضحكة حزينة لكنها معقولة في جو ملبد بالأسى الكثير.
- وماذا عنك أنت؟
- أخاف خودا وشيخادي، وأحب معبد لالِش، وعيد الأربعانية،  
والسنجق.
- هل تصلين؟
- لا
- كم عمرك؟

- الآن دخلت في سنتي الثالثة والعشرين.

لا يوجد شيء في الخارج سوى السيارات القليلة التي تتناوب في الشارع العام، وسوى هواء خفيف يحرك الأشجار.  
- أعمل شيئاً.

تنهض بخفة وتترك أسنلتها تمور في داخلي، وأسمع حركتها في المطبخ، ويعكس ظلالها نور شمعة بطيئة النور، وأحاول أن أبقى على قيد الصلة الأبوية بهذه الصبية التي فقدت الكثير من روحها ونضجها وجمال روحها.

- كيف كانت حياتك معهم؟

وضعت صينية صغيرة بيننا، وهي تلف جسدها ببطانية مخططة.

- جحيم.

خرجت الكلمة منها بلوعة وأضافت بشكوى طفلة:

- كل يوم تموت ألف مرة. لا يمكن أن يكون هؤلاء بشرًا يا عم. مستحيل. حيوانات شرسة.

كنت أدلل مثل هذه الهواجس المعرشة فيها على قدر الإمكان:

- انسي كل شيء. الحياة هي ما سيأتي في المستقبل القريب. نحن بشر ضعفاء لكن قوتنا في أرواحنا مسلمين أو أيزيديين. أنت الأيزيدية عذوبك وأنا المسلم وضعوا الجمر في عيني.. لا فرق بيننا في العذاب يا ابنتي.

نشجت بصمت، وكنت أعرف أن الكثير في رأسها لا يغادرها،  
فما زالت في أرض مستباحة ومن حولها تلك الوجوه الصفراء،  
والسحنات المخيفة، والأشهر العصبية التي مرت عليها.

- كم مرة زوجوك؟

انكمشت وخجلت كأنها فاحت فيها رائحة أخرى لا تريدني  
أن أشمها.

- أربع مرات!

- هل تعرفين أزواجك؟

- اي.. لا..

صفت قليلاً ثم قالت:

- كلهم قتلوا في الفلوجة وتكرت.

سكتت قليلاً، وظلت عيناها ثابتتين على البخار الصاعد من  
قدح الشاي:

- واحد سعودي جايف بعمر والدي وهو الذي اغتصبني.

وواحد فلسطيني ينام وهو يرتدي الحزام الناسف. والآخر

أفغاني كبير السن أيضاً. و..

توقف الكلام في فمها وأظنها شعرت بالخجل، متيقناً من أن

الصبايا أكثر حياةً من غيرهن فيما يتعلق بأجسادهن.

- هذا قدر غريب. المهم أنت بصحة جيدة الآن، وستعودين

إلى أهلِكَ بإرادة الله العظيم.

قالت من بين دموعها:

- أهلي؟ هذا حلم أن أعود إليهم حتى لو يقتلونني.  
طمأنتها:

- بقيت الخطوة الأخيرة، وتكوني بين أهلك وتعودي إلى  
دراستك.

كان بيننا ضوء خافت ورائحة ليل وتوجسات كثيرة، وهذه  
الصبية التي معي دَيْنٌ ثقيل، أمّني نفسي أن أكون على قدر  
هذا الحمل الباهظ، مثل الصبايا اللواتي تزوجتهنّ وانتشلهنّ  
الراعي راقيار بطرقه المغامرة العجيبة.

- أسألك عن صبايا كثيرات لو كنت تعرفينهنّ.

- الشنگاليات كلهنّ أعرفهنّ تقريبًا.

أنصتُ إليها بحاسة استثنائية وأنا أسألها:

- هل مرّت عليكِ صبية اسمها نشْتُمان؟

- نشْتُمان.. نعم.. صبية حلوة شنگالية وصغيرة.. عيونها زرق.

تنفست قليلًا وتساءلت من جديد:

- وأين هي الآن؟

صمتت لحظة:

- آخر معرفتي بها كانت عند الأمير الحقيير والمكروه الي

يسمونه أبا العينين.

قلت باستنتاج سريع:

- يسمونه الراضوع؟

انتابها خجل وهي تهز رأسها:

- هههه.. اي.. أكبر نذل وحقير.

ثم أضافت:

- هذا الحيوان هوايته جمع صبايا صغيرات السن، ويرضع

بهن، وما يأكل مثل البشر!

تركها تستذكر:

- نشثمان هناك حتى وقت قريب. اعرفها زين. بنت حلوة

وأمورة. بس تبكي هواي!

نظرت لي وكان صوتها المتسائل الهامس قريباً من وجهي:

- هل تعرفها يا عم؟

- لا.. اي..

سكتت لكنني استدركتُ:

- أبو العينين عجوز ساقط أخلاقياً.

وافقتني وتنهدت قليلاً:

- نحن البنات نخاف حتى من ذكر اسمه. نسمع عنه

حكايات وقصصاً لا يصدقها العقل.

- كم زوجة عنده حسب ما تسمعون؟

- على القاعدة الإسلامية يعتبروننا سبايا بلا عدد، وهو كبير

الأمراء. عنده عدد كبير من الصبايا مخصصات لرضاعته..

ونساء كثيرات لخدمته.

عادت تسأل باهتمام:

- هل تريد تخليص نشثمان يا عم؟

## بصمة الجاسوس

### 1

تنتشر القمصان السود الخفاقة مع هواء الصباح، فيتعكر لون الفضاء في عيني رافيار، وهو يحث الخطى منذ يومين مع قطيعه الصغير لمقابلة المجاهد العراقي أبو فرات. أخبره أبو المعتز بأن استخبارات الدولة تطلبه، وعليه أن يذهب إلى كوجو، فهناك فرع لهذه المديرية يقوده أبو فرات، ومع أن قطيعه صغير، إلا أنه اضطر أن يتخلى عن خروف ضخم وهو يعبر قرية عرضية لمجموعة مجاهدين يشكلون بؤرة عبور إلى كوجو: هذا غداؤكم اليوم. الحمد لله على نعمته. لدي خير وفير. اذكرونا بخير يا شباب الجهاد العظيم.

### 2

في بيت بدا صغيراً من إطلالته الأولى، لكنه يتسع من الداخل، ويبدو أكثر ترتيباً بأثاث جديد، ورائحة جورى تتضوع في الحديقة الأمامية، فتنشر في أرجاء البيت. ترك أغنامه القليلة في الخارج، وكلم أحدهم الذي تواری



- داخل البيت، ثم خرج ودعاه للدخول.
- كان أبو فرات قصيرًا، وأطول من قزم، كما قال رافيار لنفسه  
محاوّلًا أن لا يُظهر ارتباكّه.
- كيف هي الأمور يا غنّام.
- بخير.. الحمد لله. نحمدّه تعالى على كل حال.
- غبتّ طويلًا.
- الطريق طويل إلى هنا و البيشمرگة يمسون رؤوس الجبال.
- جلس أبو فرات وبقي رافيار واقفًا:
- وكيف هي النتائج؟
- رد الراعي بثقة:
- البيشمرگة ينتشرون في كل مكان من حافات قمم الجبال.
- لديهم ربايا كثيرة.
- أشار إليه بالجلوس ووقف هو بقامته المتقلصة:
- ألا تعتقد أننا نستطيع توسيع انتشارنا أبعد مما نحن عليه  
الآن؟
- حرك رافيار يديه وهو يرسم له شيئًا وهميًا:
- أنتم مجاهدون يا سيدي ولن يقف عائق أمامكم. و.. والناس  
تريد دولة الخلافة في كل مكان من كردستان. أنا واثق من هذا!
- زَمَ شفّتيه وقال وما يزال واقفًا:
- في المرة السابقة حدثتكَ عن بعض النقاط. كيف هو  
تصورك عنها؟

أعاد الراعي تأكيد ما قاله في وقت ما مضٍ:

- كما أخبرتك في أكثر من مرة، فإن الأيزيديين الشباب بسبب العطالة وعدم توفر الأشغال، اضطروا أن يتطوعوا في مجموعات قتالية لمسك الحدود مع دهوك، مقابل مردود مادي بسيط توزعه الأحزاب الكردية عليهم.

- يعني الأكراد اشتروا الأيزيديين!

أكد راقبار:

- ضخّوا فيهم شعورًا بأن مدنها مغتصبة ومحتلة وعليهم واجب القتال.

- أعدادهم كبيرة؟

- كبيرة إلى حد ما.

- وأين مواقعهم؟

- في كل مكان سيدي المجاهد.

تحرك قليلاً وهو ينظر من النافذة:

- وكيف عبرت إلى هنا؟

- اتخذت طرقًا وعرة بين الوديان والسهول وبلغت سنجار في سبعة أيام.

- أتعتقد أنها صعبة على المجاهدين؟

- لا.. لكنها ليست مناطق قتال.. وعرة بجبالها وعميقة

بوديانها والمراصد والربايا كثيرة مثلما رأيت. لكنني راعٍ أتنقل

حيثما يوجد العشب والماء، ولا يهمني الوقت كما تعرف.

عاد من النافذة وجلس أمامه:

- أريدك أن تحدد لي مواقع البيشمرجة والأيزيديين، وأعدادهم  
التقريبية، وأي المناطق الفارغة التي لا توجد فيها ربايا ولا  
مراصد.

حاول ألا ينظر أبو فرات إلى عينيه، فسارع إلى أن ينظر إلى  
الجدران المزينة بشعارات دولة الخلافة الإسلامية:

- هذا شيء بسيط. سأهين لكم خريطة ببعض الأمكنة  
الطبيعية، ولو أنها وعرة جدًا لكن يمكن أن تنفذ منها دوريات  
دولة الخلافة لمحاصرة عناصر البيشمرجة لقتلها أو أسرها.

- ستكون معنا دليلًا لو صار القرار التوسع لدولة الخلافة.

- حاضر. سأكون دليلكم أينما تريدون.

- ابصم لي هنا.

مدّ أمامه ورقة وبصم على الزاوية السفلى من دون أن يقرأها  
فقد اعتادها في كل مرة.

## موت الراضوع

على نحوٍ مفاجئ، نادى المنادي في ميكرفون الصلاة منذ الفجر بصوت عالٍ ومتكرر ومفجوع؛ معلناً وفاة أمير الأمراء المجاهد الكبير أبي العينين، ودعا الأهالي والمجاهدين لحضور صلاة الميit و جنازة التشيع في جامع سنجار.

كنتُ بين اليقظة والمنام في الفجر البارد، وكان العم نور الدين يصلي، وأسمع صوت تهجداته المرنة التي تضي على روعي الكثير من الطمأنينة.

ظل الصوت يعيد الخبر: توفي إلى رحمة الله تعالى المجاهد الكبير الشيخ أبو العينين رضوان الله عليه، إثر مرضٍ عضال. أنا لله وأنا إليه راجعون. ندعوكم يا أهل سنجار ومجاهديها المهاجرين والأنصار أن تحضروا صلاة الميit، والدعاء لشيخنا بالمغفرة ورضا الله سبحانه وتعالى، وحضور التشيع الذي سيكون من جامع سنجار حتى مقبرة المجاهدين.

فتحت رأسي كله وعيني وقلبي، وأنا أهبُّ من الفراش بعدما انتهى العم نور الدين من صلاته:

- مات الوحش أبو العينين!

لعلي لم أكن متوازنة، وأنا أعلن مثل الخبر بفرح، لم أستطع  
أن أخفيه، ولم يكن العم نور الدين فرحًا مثلي لكنه نبهني:  
- كلنا نموت يا ردة. الحمد لله على كل حال. لا ينبغي أن  
تفرحي لموت أحدهم حتى لو كان عدوكِ.

- لكنه.. أبو العينين!

- ولو. الله هو الحق والعدل وسيقتص منه.

شعرت بالخجل، وأنا أتمم فانسحبت إلى الغرفة، ولففت  
نفسي من جديد تحت الغطاء، وبالرغم من خجلي من العم  
نور الدين إلا أنني كنت أشعر بالانتصار، وأردد مع نفسي:  
مات كلبهم الكبير.. إلى جهنم يا ابن الخنزير.

لم أستطع إكمال نومي وبقيت أكثر من ساعة أتقلب بفراشي  
متأرقة، بل فرحة إلى حد كبير بإزهاق روح هذا الخنزير الذي  
لوث الصبايا، واغتصب أرواحهن بالرضاعة المميتة، واستدرار  
وهم الحليب الرباني، حتى امتص دماءهن، وثقب حلمتهن  
بأسنانه الوسخة.

ماتت أكثر من صبية تحت فمه الشره، ورائحته الكريهة،  
وأسنانه الذئبية، وكنا نسمع عن هذا في السجون أول الأمر، حتى  
بيعنا وشرائنا للزواج بالإكراه، وكانت معظم البنات والصبايا  
يتمنين أن لا يقعن بيد هذا الشيخ الخنزير، ويمص دماءهن.  
كنا وما أن تأتي سيرته القذرة حتى نتحسس صدورنا الصغيرة،  
فتنكمش حلمتنا وتتصاغر أجسادنا، وتسري فيها قشعريرة

خوف، خاصة حينما يستعرضوننا بين فترة وأخرى، ويأخذون  
الجميلات الصغيرات، لكننا مع الوقت أخذنا نفهم هذه  
الشفرة، ونعرف يوم الاستعراض للبيع والشراء، فنكش شعورنا  
ونلطح وجوهنا بالرماد أو التراب، حتى لا نبود جميلات.

مرة انتبهت لنا المجاهدة العضاضة أم الزين- هكذا يسمونها -  
فأرعدت وأزبدت وعضت بكلأبتها الحديدية معاصم بعض البنات  
اللواتي بالغن بتشويه وجوههن، فتركت فيهن آلامًا وأثارًا كبيرة، بل  
تمادت أكثر فباعتهن إلى أرذل القوم من كبار السن، ومعاقبي الحرب  
بأبخس ثمن، فانتحرت شيرين وكاميليا وتمارا على أيام متفرقة.

ظل النداء في مكبر الصوت مستمرًا، حتى الساعة الثامنة  
صباحًا، فأخذ نور الدين عكازته، ووضع نظارته السوداء على  
عينيه، وخرج من دون أن يقول شيئًا، فأغلقت الباب وراءه  
بإحكام، فما زلت خائفة من كل شيء، غير قادرة على أن  
أصدق أنني تخلصت من إهانة البيع والشراء في أسواق الزواج  
التي أذلتني كلنا.

أبقى طيلة النهار أبكي.

أتذكر أهلي كلهم.

أعيد وجوههم الأليفة، فأشعر أنهم ابتعدوا عني كثيرًا.

أعود ليوم الفجيعة الأسود، فيصيبني خوف جديد، ويقشعر

جسمي.

أعيد وجوه الذين اغتصبوني فأشمئز، ويعتورني الخوف المركب

من جديد لشعوري أنني أحمل عازًا لن يسامحني عليه أحد.  
مرة قالت جيان: أتمنى أن لا أعود إلى شنغال. سيقتلني أهلي  
لأنني أصبحت عازًا. ولم تعد جيان إلى شنغال لأنها ببساطة انتحرت.  
علقت رقبتها على مروحة الهول، وأنهت حياتها بسلام.  
العار الذي لا أنساه يشوّش عليّ كل شيء، ولا يتركني أمضي أيامي  
مع العم نور الدين بهدوء، ريثما نرى النهاية كيف تحدث.  
العم نور الدين قال لي أكثر من مرة:

- رجال دينكم أصدروا فتاوى بحق الأيزيديات المغتصابات  
اللواتي أُجبرنَ على الزواج من أفراد داعش باعتبارهنّ طاهرات  
وقديسات، ولا ضير من استئناف الحياة معهنّ فهنّ ضحايا  
مغلوبات على أمرهنّ.

أحبك يا عم نور الدين.

هل صحيح سأعود إلى أهلي؟

هل أرى معبد لالِش النوراني من جديد؟

لكنك لم تخبرني يا عم كيف ستهرّبني إلى أهلي وأنت الأعمى

الضير؟

## جنازة الوحش

### 1

يومٌ ولا كل يوم.

عدتُ مسرعًا من كوجو بعدما سمعتُ نبأ وفاة المجاهد الشيخ أبي العينين، حتى أنني أهديتُ نعجة لمجاهد شاب استوقفته في الشارع العام الذي كنت أسلكه، وأوصلني بسيارته البيك أب إلى سنجار مع أغنامي القليلة. قلت له هذه النعجة لوجه الله.

استكثرها المجاهد لكنني طمأنته بأنني يجب أن أحضر تشييع جنازة الشيخ أبي العينين، فوصلنا إلى شارع المدينة الرئيسي، وكانت السيارات كثيرة جدًا أغلقت الشارع تمامًا. أنزلت أغنامي مسرعًا إلى السوق، حيث وجدتُ سربست يبدد الوقت بقراءة عصا عيدو.

- كنت قلقًا عليك.

- علينا أن نكون في موكب التشييع حالًا، فالمدينة غصت بالمجاهدين والأشراف والشيوخ والأمراء من كل سنجار وما



حولها، حتى أمراء الجزيرة وتكريت والموصل سيصلون.  
تركنا الغنم في السوق، وأحطناها بالتتك والكارتونات والحبال  
المتيسرة، وذهبنا راجلين إلى الجامع وخطواتنا مسرعة بعض  
الشيء.

## 2

كانت البيوت والأزقة قد أخرجت الكثيرين من الرجال لهذا  
اليوم المشهود الذي امتلأ به الجامع، حتى فاضت حشود  
الرجال إلى خارجه، بينما اكتظت الأرصفة والفروع والشوارع  
بأنواع السيارات الرسمية والأهلية، ونزل منها كثيرون لا أعرفهم،  
لكن من الواضح أن العجوز أمير الأمراء يتمتع بنفوذ واسع  
بين المقاتلين العرب والأجانب، وله حظوة كبيرة عند الخليفة  
أبو بكر البغدادي، الذي سمعنا أنه أوفد كبار مساعديه من  
الموصل لحضور التشييع المهيب.

## 3

كانت الأجواء حزينة، وصوت القرآن يهز الجامع عبر مكبرات  
الصوت التي زُرعت في كل اتجاه، حتى بات من الصعب أن يتكلم  
المرء حتى مع نفسه، فيما اتسعت المساحات أكثر بالسواد القادم  
من كل مكان، وتوزعت فرق الحماية المتكاثرة على مفارق الطرق  
بضمنها رشاشات أحادية شرعت فوهاتنا نحو السماء، واستقرت  
معظم السيارات المظلمة على الأرصفة العالية نسبياً.

وحيثما خرجت الجنازة من الجامع تلاقفتها الأيدي بصوت واحد هادر: لا إله إلا الله.. محمد رسول الله.. وامتد الشريط الصوتي إلى كل البشر المتراصين لوداع الأمير الكبير، فتحرّكت الجموع وراء الجنازة، وشكّلت طابورًا طويلًا متعرجًا، حتى استقام على الشارع العام، متبوعًا بعشرات السيارات متعددة الأنواع في موكب مهيب، لم أشاهد مثله في حياتي، حتى بلوغ مقبرة المجاهدين الشهداء التي عملوها في سهل واسع. فرأيت شواهد قبورها الكثيرة، وأسماء القتلى منهم، بعد ساعتين من الأصوات الهادرة بنغم واحد يبعث على الرهبة كثيرًا.

تأملت المشهد بيقظة، وهالني العدد الكبير للمقاتلين المجاهدين المصطفين بلون أسود وراء الجنازة التي تلاقفتها الأيدي والأصابع والقبضات، كأنهم طوابير غربان مفترسة ذاهبة لتتقضى على حملٍ كبير.

لم نتحدث أنا وسربست بشيء في هذه الضجة المريعة، لكنني ملحت في وجهه طيفًا غامضًا أكثر من مرة، وهو يمشي صامتًا منحنى الرأس، كما لو كان مسحوبًا من ياقته، بين هذه الجموع السوداء. فيما وضع أبو الخير التونسي يده على كتفي؛ كأنه ينبهني لوجوده ومشي معنا منحنى الرأس حتى المقبرة.

## فكرت أن أنهى حياتي

غاب العم نور الدين عني ليلتين من دون أن يخبرني، فبقيت حتى الفجر قلقة أبكي من دون إرادتي بعد إن أحكمتُ غلق الباب الخارجي، والأبواب الداخلية، وغرقت في الظلام خائفة ومضطربة.

انتابنتي هواجس كثيرة ومريرة، وبقيت في حالة توجس لا آخر لها، وأكثر من احتمال يراودني، ويُسرّع من نبضي، كأن يكونوا قد اكتشفوا لعبة الأعمى فيه، أو عرفوا أن زواجه مني صوري، وأن زواجه السابق لم يهربنّ منه، بل هربهنّ بطريقة أو بأخرى، وأن لعبته انكشفت.

ترأى لي أنهم يسلخون جلده وجلدي في باحة الجامع، وأنهم يحرقونه ثم يحرقونني، أو يقطعون أوصاله كالطبيب الحلبي الذي جاءتنا أخباره باليوم ذاته، ولعلمهم يقشرون جلده كما تُقشّر جلدة التفاحة بالأظافر.

أصوات الليل تفزعني، وطرقات وهمية على الباب الخارجي تستثيرني، وسيارات مارقة في الشوارع والأزقة تبعث بي الرهبة، متخيلة بأنهم سيأتونني بالعم نور الدين مكثف اليدين، وفي

عنقه حبل طويل يربطوني به من الطرف الآخر، ثم يضعوننا  
في محرقة وسط المدينة.

لم أنم.

بقيتُ أبكي، ووساوس لا حصر لها ترؤعني، وخيالات تضي  
قلبي حتى يبس وجهي، وجفت عيناي، واختلج جسدي، وشله  
التفكير.

كنت أرى أمي وأبي وأخوتي الصغار في ظلامي المخيف، تتناوب  
وجوههم في غرفتي المظلمة فأنهض متعثرة، أعيد غلق الباب  
بإحكام وأعود مصطدمة بكل شيء، وأتحسس قلبي الذي وصل  
إلى حنجرتي، كأنه يريد أن يقفز من صدري.

تمنيت الموت كما لم أتمنه من قبل، فالحياة بهذه الطريقة  
حرق على نار داعشية، لا نهاية له، وأنا التي خضت الموت  
مراتٍ كثيرة وتمنيته وسعيت إليه، لكنهم يعيدونني إلى الحياة  
بكل طريقة ووسيلة، بالإفراج المؤقت، وبالزواج المتكرر من  
بشر لم يكونوا بشرًا، وأعجب أن يكون المجاهدون في سبيل الله  
على مثل هذه الوحشية والقسوة واللاإنسانية؛ وعندما أستعيد  
صور المدينة، وأعيد صور المسلمين فيها، لا أجد الأمر كهذه  
الصورة، فعائدة صديقتي المسلمة القريبة مني (أين هي  
الآن؟) كانت لا تفارقني كثيرًا، وأهلها بسطاء، وفقراء، عاشوا  
بيننا عمرًا طويلًا، ولم يكونوا كهؤلاء الأنجاس الخارجين من  
التاريخ الأسود المزيف.

طرَّ الفجر، وكنت ذائبة على السرير أتنفس بصعوبة متعرقة  
الوجه، متشنجة الأعصاب، حتى فاحت مني رائحة أكرهها،  
وسالت مني قطرات دماء قليلة، أشعرتني باللزوجة والقرف  
والبلل.

كنت أبيض وأرتعش وأنشج وأختنق وأتلوى، ودمي يسيل  
كأنني أغتصب من جديد، فعاد لي شعور الكراهية لنفسى،  
وشعرت أنني أكثر من ذليلة وبائسة ومحطمة ومذنبه برائحة  
كريهة وجسد مخذول.

فكرت أن أنهي حياتي بأية طريقة متاحة أمامي، إن لم يعد  
العم نور الدين.

## حارس الحدود

انتحى بي أبو الخير التونسي جانبًا في زخم فوضى التشيع.  
بدا شكله مرتبًا إلى حد واضح، وكانت لحيته مصبوغة  
بالحناء، فاكتسبت لونًا أحمر خفيفًا، يلمع تحت الشمس. وكان  
شاربه مخلوقًا فبانّت شفته العليا عريضةً، وعيناه مكسوتين  
بغلالة من ضباب، كأنها دمع متحجر لا يسقط.  
طلب أن أزره إلى مرصده المتقدم بأسرع وقت، فموت أبي  
العينين كما يبدو لي فتح أسرهُ النفسي، ووطد رغبته بالهرب.  
- تعال بقطيعك من دون الراعي الآخر. لدي ما أقوله لك  
وجدته ضعيفًا أكثر مما كنت أتصور؛ بوجهٍ مرتبك يفضح  
كبرياءه المزيفة، لكنني كنت أعني الدور الذي يجب عليّ  
إجادته بشطارة، من دون إشعاره بضعفه، وأبقى أنظر إليه كما  
هو أبو الخير التونسي قبل موت أبي العينين، حارس الحدود  
الشنغالية مع دهوك، الحارس الصارم الذي لا يتساهل مع  
حدود دولة الخلافة الإسلامية.  
- تحت أمرك. خلال يومين إن شاء الله أكون عندك.  
- توقيت مناسب.

كانت مراسيم الدفن في السهل الأخضر قد انتهت تقريبًا، ورجع المشيِّعون الكثيرون وتفرقوا كأنهم بقايا عسكر مهزومين، وخفتت الضوضاء كثيرًا، وابتلع السهل الأخضر صيحات الله أكبر المدويَّة قبل قليل.

## شلة ابن تيمية / ٢

### 1

لم أكن راغبًا بالبقاء في الجامع بعد صلاة الظهر، لولا راقبنا الذي قال أن لديه أشغالًا عاجلة، وأن شلة ابن تيمية ستفتقدنا إن لم يكن أحدنا موجودًا، ونبهني إلى عدم مخالطة نور الدين كثيرًا، الذي سيكون مستمعًا جيدًا يوافقهم على كل شيء: كن مثله تريد أن تتعلم قواعد إسلامهم وفتاواهم والحلال والحرام عندهم، ومعنى الجهاد لديهم، ولو اضطررت أن تشتم كل الأديان أمامهم فهذا طبيعي. بل العن الأيزيدية إلى سابع جد ليطمثنوا، لكن أنبهك إلى أن واحدًا سيعرف أنك جاسوس بهيئة راعي غنم، تجوب الأمكنة بلا رقابة صارمة، وأنتك جديتد على الشلة، وحاول أن لا تعرفه. تصرف بتلقائية وكرس روح الحقد فيهم على كل دين غير إسلامهم، فإنهم أصلا وحوش حاقدون بلا إسلام، ولو شتموا عدي بن مسافر ألف مرة اشتمه أنت ألقى مرة، وكذلك لو قالوا أن علي بن أبي طالب طامع للسلطة، وهو مخرب الدين بسيفه، ومفرق المسلمين، وافقهم بلا تردد، وإذا رجحوا



كفة معاوية عليه؛ قل لهم معاوية الحكيم النبيه الولي الوجيه  
الشاعر الفقيه، لكي يطمئن الرقيب الذي لا تعرفه بأنك جاسوس  
أيزيدي على مستوى جيد من الوعي والإدراك والأريحية. ولكن لا  
تقلق على أية حال. دع الأمور تجري كما هي.  
ملاً راقئار رأسي وحشاه بكل صغيرة وكبيرة حتى أخافني،  
لكنه حجل بقدمه العرجاء مسرعاً إلى سيارة حديثة كانت قد  
توقفت أمام الجامع.

## 2

لم يكن هناك شيء مهم سوى مداولات عن احتمالات معارك  
قريبة على جبهات متعددة، وصار أكثر الكلام عن الفلوجة  
الحصينة والروافض الكفرة والصفويين الإيرانيين، غير أن مجيء  
أبو المعتز غير مجريات الحديث حينما قال بفرح من أنه  
سيتزوج قريباً للمرة الرابعة هههههه: صبية أيزيدية سبجان  
من خلقها.

وكان الزهو يملأ وجهه الملتحي، أشعرتني بقرف مفاجئ، من  
دون سبب أستطيع تحديده في لحظتي المتشنجة.

لم يجلس بعد كأنما يكلم آخرين غيرنا:

- اشتريتها اليوم بسعر غير قليل، وانتظر عودة القاضي  
الشرعي للعقد والتسجيل في المحكمة الإسلامية.

هناها بهذه الزيجة الجديدة، وتمنينا له السعادة، لكن قلبي

كان يقرصني، وأنا أرى طيف الفرح الذي يشبه الانتصار على كل المدينة الأسيرة، وصباياها الأسيرات والمغتصبات.

مال علي قليلاً وما يزال واقفاً فتقصدني:

- والأخ.. ألا تكمل نصف دينك؟

- أنا؟

فزرت متسائلاً كما لو أنه فعل شيئاً استفزني.

ربما كنتُ شاردًا، ورأسي في مكانٍ آخر:

- أراك لستَ على ما يرام يا أخ الإسلام؟

- لا لا.. أنا طبيعي والحمد لله. أنا سعيد معكم فأنتم أخوتي

ورفاق الجهاد.

قال كأنه حكيم:

- إكمال نصف الدين مرضاة عند الله سبحانه وتعالى.

- الحمد لله على كل حال.

قال بود:

- نحن أخوتك والصبايا كثيرات هنا.

قلت بحيادية:

- إن شاء الله أفعل ذلك حينما تتوفر فرصة وزوجة مناسبة.

ردّ بإصرار:

- سنجد لك الزوجة. اترك هذا الأمر علي. صبايا جميلات

يجددن فيك الخصوبة من جديد. اسأل نور الدين. كل أسبوع

زوجة وتهرب ههههه

ضحكنا كلنا لهذه النكتة البايخة. ولا أعرف إن كان نور الدين  
شعر بأنني محرج وغير منسجم مع هذه الشلة اليومية  
المزوجة، لكنه تدخل وهو يتشبث بعصاه:  
- يا أخي مشكلتي في بَصري.  
- لا لا أنت مش فحل ههههههه  
طالت ضحكته كثيرًا ثم قال إلى نور الدين:  
- نور الدين. خلي بصيرتك تغلب مش بصرك ههههه، هذه  
الأمور لا تحتاج إلى عين وبصر. ههههه.

## أكلم أمي في تونس فتبكي

أعرف أن هذه القرية قليلة البيوت، وتمتد المساحات الخضراء أمامها حتى الجبل البعيد، وقد اختار أبو الخير التونسي بيتًا مثاليًا على ربوة تطل على السهل الأخضر، المترع بالزرع والأزهار وأشجار التبغ والتين والأزهار والزيتون والورود. حملتني السيارة المغلقة بتظليل أسود إلى هذا المكان بسرعة فائقة، وكان التونسي يسقي شجيرة صغيرة نامية على حافات بيته، وفي داخل البيت تضيّع عبق السهل بكثافة عالية، لا تغيب عن ذاكرتي القديمة التي أخذت تتجدد، ولتفتح كزجسة هذا الربيع.

- كلفني أبو فرات بالتنسيق معك!

بادرني وهو لا يخفي قلقه:

- هذه فرصة مثالية للتسلل إلى الجبال.

فوجئتُ وخفتُ كما لو ألقى القبض عليّ حالاً:

· وكيف يكون التنسيق سيدي أبو الخير؟

كنت أختلج قليلاً، وحاولت أن لا تظهر بصوتي أية ارتعاشة

من شأنها أن تسبب لي قلقاً لا أحتمله في موقف كهذا:

- أحيل لي ملف الحدود، وأنت بوصفك عنصرًا عميلًا للدولة الإسلامية فلا بد أن أنسق معك!

أرعبتني فكرة كوني عميلًا لدولة الخرافة المتوحشة، لكنني تماسكت، فهذه هي الشفرة بيننا منذ أكثر من سنة، أزودهم بخرائط وهمية، لا يستطيعون التحقق منها، ومعلومات عامة يعرفون أغلبيتها، غير أنني أبالغ دائمًا بنفخ صورة البيشمركة الذين يمسون الحدود، وأعداد الأيزيديين المتطوعين المتزايدة بسبب بطالتهم واستغلال ظروفهم.

- الآن وقد مات أبو العينين تحررت من مراقبته الصارمة.

- يرحمه الله برحمته الواسعة.

- وتحررت نفسيًا.

- الحمد لله.

جلس بمواجهتي تمامًا:

- ترك الراحل أبو العينين رصيدًا كبيرًا من الصبايا مترملات.

كان وجهه مثقلًا بأشياء لا يمكن لي أن أكتشفها بسهولة، سوى أنه يفكر منذ وقتٍ طويل بالعودة إلى بلده، محملاً بآلاف الدولارات، لكنني أرى في عينيه حزنًا يحاول إخفاءه. ربما هو قلق، أو تأنيب ضمير، أو شعور قريب بالموت، أو هموم غير مفهومة بالنسبة لي.

- قبل هذا. لقد ضقت ذرعًا بنفسني ومن المكان. بل والحالة

كلها .

تطوعت كما في كل مرة:

- أنا حاضر لكل شيء.

تحولت عيناه إلى النافذة قليلاً، كأنها يرى بعدها أحداً:

- أكلّم أمي في تونس فتبكي، وتقول لي عُدْ قبل أن أموت. يا

أخي ضميري يعذبني. رضاء الله من رضاء الوالدين. وليس

من رضاء أبي العينين.

لمست فيه الخوف واضحاً ممتزجاً بإصرار عجيب على

الخلاص، ولا أعرف كيف احتمال كل هذا الوقت مع أبي العينين.

قال بوضوح:

- أصبْتُ مرتين في الحرب، ولن أنجو من الثالثة. أمي تناديني.

لم أقلق كثيراً، فأنا أعرف هذا التونسي منذ أن أودع عندي

ملايين الدنانير العراقية، والليرات السورية بغرض تحويلها إلى

دولارات.

- سأوصلك بسلام إلى الحدود التركية. يمكنك أن تثق بي يا أبا

الخير صديقي المجاهد.

قال كمن يفشي سراً:

- هناك أتدبر أمري. الأتراك سيخلونني إلى تونس. بيننا خيوط

وصل قوية مع جهاز المخابرات الوطنية التركي MIT

طمأنته بقوة:

- ستتيسر الأمور إن شاء الله، وتعود إلى والدتك، ولها العمر

الطويل.

وجدت في عينيه ما يريد أن يحكيه، وكنت عند تصوري:

- لا جدوى يا أخي. إلى أين نريد أن نصل؟

-.....

- اسمع.

كنت قريبًا جدًا منه وأنا أسمع:

- أرامل الراحل أبي العينين سيُعرضن في سوق النخاسة للبيع.

-.....

- حريم كثيرات لا ولي لهنّ الآن، وقد تكون صبيتكم بينهنّ.

- اسمها نشتمان.

- أكثر من 90% أنها بين الأرامل الصغيرات، فأبي العينين

رحمه الله كان يجمع تلك الإماء- والجواري الصغيرات ليرضع

بصدورهنّ. طب نبوي كما يقول هههه.

- سامحه الله.

قلت بقلق فقال يطمئنني:

- سأبعث من تتأكد من وجودها.

- تفعل خيرًا. والدها سيموت من أجلها.

- ليطمئن.

تساءلتُ:

- ومن سيمتلكهن بعد وفاة أبي العينين؟

- لا وارث له في هذا. ولأنهنّ سبايا فسيؤول مآلهنّ إلى المحكمة

الشرعية، التي ستعرضهن بالمزاد. حتى جنسيته غير معروفة.

مجاهد في سبيل الله في أي أرض تدعوه للجهاد. كما يردد دائماً  
أحسست أنه يريد أن ينهي الحديث:  
- سأتيك بالخبر اليقين غداً.

نهضت:

- تصرف بسرعة قبل أن يخرج أبو العينين من قبره!



## سأُنقلك إلى بيت مهجور

في أول الصباح طُرق الباب طرقتان، فهرعتُ متسائلة من وراء حجاب .

- أنا نور الدين.

فتحْتُ الباب، وقد صرت كتلة عصبية، وقذفت نفسي عليه.

- كدتُ أموت من الخوف. ما قلتلي يا عم أنك ستغيب

يومين. كدت أنتحر من الخوف، وأنا وحدي.

- صار عندي شغل، وكان من الصعب إبلاغك. الآن جئت لا تقلقي.

لم يمهلي أن أحكي له خوفي البارحة، وسهري إلى الصباح:

- تعالي. لدينا عمل مهم ويجب أن تعرفي.

دقُّ قلبي، وكاد يخرج من صدري، وبدأ القلق يساورني وأنا

أرى نور الدين، وقد تهيأ إلى كائن آخر بعد الليلة الماضية

التي افتقدته فيها:

- لم تبقى إلا الليلة!

انفتحت عيناي هلعًا لكنه أكمل:

- صباحًا ستغادرين هذا المكان إلى غيره.

انعقد لساني، وكأنني أشعر بفتحة مقبلة، وربطت غيابه

لليومين الماضيين بهذه التوجيهات المخيفة.

- لا تخافي. ستمر الخطوات بهدوء، ولكن عليك أن تتحملي بعض الوقت، وبعض الجهد من أجل سلامة وصولك إلى أهلك.

- أهلي؟

ندت مني صيحة عفوية، واختلطت رموشي بدموعي، وأنا أنظر إلى هذا الرجل الأعمى المخلص العجيب.

- اشششش

قادني إلى غرفة جانبية صغيرة، وأجلسني أمامه:

- اسمعي بنتي. هناك رجل ستجدينه مع أغنامه فلا تخافي منه. امثلي لأوامره ونفذي كل ما يطلب منك. وإن شاء الله ستصلي إلى دهوك بأمان معه.

- معقولة؟

- سأنقلك إلى بيت مهجور، لا توجد فيه سوى أغنام قليلة، وتبقين هناك بضعة أيام ريثما نخلص إحدى البنات لترافقك إلى دهوك.

- مم. إذا أفعل..؟

كنت مرتبكة وخائفة، لا أعرف كيف أسيطر على مشاعري لهذه المفاجأة، وأنا أنظر الآن إلى العم نور الدين بطريقة أخرى، فأراه إلهاً أو نبياً بهيئة أعمى.

- يا خودا العظيم خلصني.

- الأمر فيه سرية كبيرة يا رندة، وأي خطأ سيسلخون جلودنا.

ارتعبت لكنني هزرت رأسي ممثلة:

- وعليك أن تكوني متماسكة، وتحملي مشقة الطريق الجبلي  
لبضعة أيام.

بكيّت بصمت وأنا أتخيل أمي وأبي وأخوتي يقفون على سفح  
الجبيل ينتظرون عودتي. يا خودا العظيم هل يتحقق كل هذا؟  
- أنا سأترك هذا البيت من هذه الليلة، وأكون في بيت آخر،  
فاليوت فارغة كما تعرفين، وحتى هذه اللحظة أنا معك،  
لكن بعدها انسي شخصاً أعمى اسمه نور الدين.  
كنت أحاول أن أفيق من الصدمة، وأنا أهز رأسي، وأنظر إلى  
هذا المخلص الرحيم.

- حتى عندما تصلي إلى أهلك في دهوك بسلام؛ لا تذكرني  
اسمي، ولا تقولي كيف تمّ تخليصك، ولا تذكرني أن راعيًا هربك.  
هذه أمور في منتهى السرية لنتمكن من تخليص بقية الأسيرات  
مع الوقت.

رأى الصدمة على وجهي، أو هكذا كنت أعتقد، فالعم نور  
الدين لم يخلع نظارته السوداء عن عينيه بعد.  
- لما تصلي إن شاء الله. أخبرني أهلك وجيرانك وصديقاتك  
أنك هربتِ لوحده عبر الجبال منذ بضعة أيام، واختلقتي  
الصعوبات المتوقعة في مثل هذا الهروب.

بكيّت بحرقّة، وكان العم نور الدين يكتّم صوتي، ويحتني  
على أن ألم ما أحجّاه في صرة صغيرة أخبئها تحت عباءتي.

## مرضعات أرامل

لم أعرف بيوم المزاد، ووقته، لولا شلة ابن تيمية التي استعدت ليوم الجمعة بعد صلاة الظهر، لشراء بعض الأرامل الشنگاليات الصغيرات، زوجات أبي العينين المتوفى قبل إرسالهن إلى ولاية الموصل؛ فهناك سوق السبايا أكثر جدوى ونفعًا وعائدية مالية لخزينة دولة الخلافة؛ غير أن معظم الشلة يبدو وكأنهم ادّخروا رواتبهم، واستعدوا لهذا المناسبة بعد مرور العدة الشرعية للسبايا الصغيرات، مثلما يبدو أن لديهم أخبارًا أكيدة على جمال الصبايا المرضعات، ففي قلوبهم حسد أخذ ينكشف على الأمير المتوفى الشرس الذي جمع صبايا المدينة في بيته الكبير، وعاش على أئذانهن الصغيرة كراضوع ومصاص بطب نبوي لم يسمع به أحد.

قال أحدهم:

- ما زلن أبكارًا، فالأمير لم يكن يقدر على مضاجعة هذا الجمع الوافر من الصبايا.

قال أبو حذيفة الذي يحمل سلاحه على ظهره، وكأنه مستعد للقتال في أية لحظة:

- كان يتطبب بهنّ طبّاً نبويّاً صحيحاً.

تساءل أحد رفاق الشّلة:

- كيف يدر الحليب في صدور الصغيرات، وهن غير متزوجات،

وربما بعضهن غير بالغات أصلاً؟

تدخل أبو حذيفة:

- سمعته أكثر من مرة يقول من على المنبر، وهو يوصي

الصحابة والمجاهدين بحليب العذارى، فإن فيه الدواء والغذاء

والشفاء. وقال أنه حلم بأن الرسول محمد عليه أفضل الصلاة

والسلام، حضر منامه وأوصاه بهذه الوصفة الربانية.

زكى أبو عبيدة الغزاوي ما قاله رفيقه وأضاف:

- لم يكن المجاهد الراحل أبا العينين يهमे الجنس، لكنه يطبّق

وصية رسول الأمة في الدواء والغذاء والشفاء. لهذا لم يُطل

المكوث في المستشفى آخر مرة فخرج على مسؤوليته.

هز أحدهم رأسه مضيئاً:

- كان لا يثق بالأدوية، ويعدها بدعة من الكفّار.

- إذن موعدنا الجمعة المقبلة بعد صلاة الظهر.

السبت:

بدا وجه رندة أكثر تورداً هذا الصباح، حينما أخبرتها أن

تهيئ نفسها، فظلت تروح وتأتي في الحوش غير قادرة على

ضبط نفسها، وأطياف من دموعٍ تترقرق في عينيها الصغيرتين،

ولم تستطع إخفاء القلق الذي يعصف بها.

تصل إلى الطارمة تطقطق بأصابعها وتعود لي:

- صحيح يا عم سارى أهلي؟

- صحيح.

- وهل هم أحياء؟

- أحياء.

- في أي مخيم هم؟

- شاريا. مخيم على أطراف دهوك.

- وهل أمي بصحة جيدة؟

- أمك وأبوك وأخوتك كلهم بخير.

ثم تعود للسؤال المرير الذي يشغلها:

- وهل يتذكرونني؟

- أنتِ رندتهم الوحيدة، كيف لا يتذكرونك يا ابنتي.

تقضم أظافرها بقلق، وكنت أرى جسدها يرتعش، وفي عينيها

أسئلة أكاد أعرفها:

- أنا خائفة.

- لا داعي للخوف. أنتِ أسيرة ويتفهمون كل شيء.

تنشج قليلاً وتقول بآلم:

- أنا بنظرهم زانية!

- لا لا. لا تفكري بهذا. أنت أسيرة فقط ولا حرج على الأسير.

- يتفهمون ذلك؟

- حتى الأمير أصدر فتوى واضحة بهذا الموضوع.

- وماذا فيها؟

- أن تُعامل الأسيرات الأيزيديات باحترام وحب، وأن ما حدث

لهنَّ كان إجباريًا واغتصابًا، ولا حول لهنَّ ولا قوة.

تتقدم نحوي وتُسال:

- أنت مسلم يا عم. ما الذي يدعوك إلى كل هذه المخاطرة

بحياتك؟

- أنا سنجاري قبل أن أكون مسلمًا، وهذه مدينتي، وأنتن بناتي.

**الأحد:**

بدا متوترًا على غير عادته.

يحك لحيته الثخينة صاعدًا ونازلًا عليها بأظافره التي طالت،

ويتطلع إلى أكثر من مكان، وأنا الصامت دائمًا المشغول بطيف

نشتمان، تحدثت معه أكثر من مرة لكنه بقي صامتًا، يجول

رأسه في فضاء غامض لا أدريه.

- خبيء ما تبقى من الأغنام في البيت.

- بقيت ستة رؤوس فقط.

- العودة صعبة من دونهنَّ. نحن رعاة، ولا بد أن لدينا أغنامًا.

- بقي الوقت القليل.

- رأسي سينفجر من التفكير.

- أفهمك.

. ولشثمان كما لو أنها غير موجودة في المدينة.

. اصبر.. سيأتينا التولسي بالخبر اليقين.

أتساءل بمرارة:

- وماذا سيحصل في المزاد؟

ببرود يرد رافيار:

- بيع وشراء الصبايا الأرامل.

- ولشثمان معهن؟

يلتفت نحوي ويقول بصرامة:

- إن كانت معهن فنشترينها.. لكن بطريقة الزواج وعليك أن

تفهم هذا!

ضربت على رأسي:

- يا ويالي.. ابنتي تباع وتُشترى؟!

- هذا قدر بناتنا. تضرعُ إلى خودا أن تكون في المزاد.

يؤلمني رافيار كثيراً من دون أن يدري وأعود أتساءل بقلق:

- وكيف سنتعامل مع الحالة؟

- سيشترينها أحدنا!

- أشتري ابنتي؟

يدور المكان بي ورأسي يدور ورافيار يمعن في إيدائي:

- ويكتب لك القاضي الشرعي عقد زواج!

- أتزوج ابنتي؟؟

- تتزوجها شرعاً.. أنت الوحيد الذي سيرسو المزاد عليك!



هل يعرفون النبي أبوها؟

- لا، سيرسو الأبرار عليك لأنك ستعادلها بالذهب وليس بالمال  
أبقى صامتًا، ولا أستطيع تصور تلك اللحظات المراقبة التي  
سأقدم بها للزواج من ابنتي هههه، كم أنا بانس وسمين  
ومحطم.. أينك يا حودا؟

أدور في مكاني شاطئًا، وأطلق السؤال الممض:

- ولكن هل ستعرفني لشثمان بعد كل هذا الوقت؟

اللاتين:

خرجت من غرفتي تحت الصخرة الثقيلة. لنقل من سرداب  
الأمان الذي أمارس منه عملي مع فصيل كامل من المجاهدين  
لمراقبة الحدود، وكان رأسي متفتحًا كمحارة مفلوقة. انتزعوا منها  
الطين والكلس والشوانب.

أظن أن مسؤول فصيل الألغام الحاج أبو عفراء كان يرى ذلك،  
وهو يصغي لي عندما استدعيته لأمرٍ عاجل قبل وقت قصير.

- يا حاج. همة أمرٍ سري عاجل.

أصغى الرجل، ووجهه ينصت لي بكل هدوء:

- وردتنا معلومات استخبارية تفيد بأن مجموعة غير قليلة

من البيشمركة الأكراد ستسلم نفسها لنا.

ابتسم وجه الحاج كثيرًا:

- هذا خبر عظيم. ما شاء الله.

- وسيعلمون ولاءهم لدولتنا الإسلامية.

ازداد فرحه وهو يرفع يديه إلى أعلى:

- الحمد لله على نصره. الحمد لله على نصره.

أكدتُ على أهمية مثل هذا الانتصار المعنوي:

- تعرف يا حاج أن هذا سيشكل ضربة قوية إلى الحزبين

الكرديين.

كل لحظة يزداد الفرح فيه:

- بلا شك. هذا نصر من الله. وهؤلاء البيشمركة يعني

ولاؤهم فيما يعنيه سخطهم على أحزابهم العلمانية الكافرة،

وسيوفر القناعة لعامة الناس بأن دولتنا الراشدة ماضية في

التوسع على بركة الله.

- وهو كذلك. الحمد لله أن نصرنا يتوسع، وستكون كردستان

في طاعتنا.

استثمرتُ فيض الفرح فيه وأحطته علمًا:

- ألفت انتباهك يا حاج إلى أن هناك أغملاً متوزعة بعشوائية

في السهل الذي أمامنا.

- صحيح.

هز رأسه ونظر لي يتلقى التعليمات الواجبة:

- علينا أن نزيلها مؤقتًا لحين استسلام المجموعات الكردية

الكثيرة. لأنهم سيأتون من أكثر من مكان من الجبل.

قال الحاج بجديّة:

- لدي خريطة كاملة بتوزيع الألغام، ولا توجد عشوائيات يا  
أبا الخير.

أصدرت له الأوامر السريعة:

- باشر أنت ومجموعتك بفتح أكثر من طريق، لأن المجموعات  
الكرديّة متوزعة على الجبل، وسأشرف بنفسني على جلب  
البيشمرگة المستسلمين إلى هنا.

- الله يبارك فيك. إنه النصر الرياني الأكيد. الله أكبر.

بقيت صافئًا للحظات، والحاج يركض باتجاه مجموعة الألغام  
يشرهم بالنصر المقبل، بينما كانت روعي تتفتح أكثر، وكنت  
أنتظر كل شيء يجري بهدوء لكن بسرعة، وأنا أعرف راقيار  
الرهيب بدقته في تنفيذ ما يزمع القيام به.

فكرت أنه قد يغدر بي حينما نبتعد كثيرًا، وتلقفنا سلسلة  
الجبال العالية، وأدخل في المصير المجهول، لكنني فكرت أيضًا  
بأنه سيكون عند وعده كرجل صاحب قضية، عندما ساعدته  
بأكثر من طاقتي، وصلت فيها إلى حد الخيانة، لهذا لا أريد أن  
أبقى خائئًا في قضية لا ناقة لي بها ولا جمل، فأمني لم تفارق  
منامي ولا ذاكرتي، وتأتيني بوجهها الوضاء باكية ومعابنة  
وحزينة، وتحذرنني من مصير أسود.

فكرت أن أرتدي حزامًا ناسفًا من دون أن أخبر الراعي حتى  
أعبر الحدود التركية.

فقط هي فكرة تراودني الآن حتى تنفتح ممرات الألغام.

### الثلاثة:

لم يحدد والي الموصل أميراً جديداً لسنجار بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة أشهر على وفاته، غير أن إشاعاتٍ تتناقلها شاة ابن تيمية بأن الفلوجي أبو المقداد سيكون هو والي ولاية الجزيرة كلها، كوند ذباًحاً معروفاً بين المجاهدين، وذاع صيته بين الناس فاكتسب درجة المقبولية عند أولي الأمر.  
قلت لسريست:

- الأمور تمشي سريعة جداً، وعلينا أن نلحق بها.  
كان وجهه يشفُّ عن قلق واضح لا أريده أن يستشري كثيراً.  
- أنا تحت تصرفك وعندك الأخبار الأكيدة.  
قلت له بحرص:

- قبل أن يُعيّن أمير الأمراء الجديد علينا أن ننتشل نشتمان من المزاد بأي سعر، ونهرب بها مع رندة.  
أبدى استعداداً استثنائياً وتحفرت فيه روح الأبوة العظيمة:  
- أنا جاهز لو قطعوا رقبتى من أجلها.

### الأربعاء:

- أنا متهياة يا عم.  
كان على وجهها الصغير ارتباك واضح، وجسدها يرتعش تحت العباءة الطويلة.  
- لا بأس أن تكوني ليلة كاملة في زريبة الأغنام. تحملي يا

ابنتي، فمن هناك سينطلق بك راقبيار برعاية الله إلى الجبل.  
تضرعت بأم:

- يا خودا. يا طاووسي ملك.

أوضحت لها بشكل واضح:

- لا بأس أن تكوني محشورة بين الأغنام القليلة حتى تعبري  
أكثر من مكان، وفجر السبت سيكون الطريق إلى الجبل سالماً  
بإذن الله.

كانت عيناها تدوران في محجريها، كأنها تنتظر عقاباً وليس  
خلاصاً:

- ستكون معك سيبة صبية أزيدية. لكن عليّ إخلاؤك من  
هذا البيت وأنا سأغير مكاني أيضاً.

تساءلت بفضول:

- من ستكون معي؟

قلتُ بفرح لا أعرف مصدره في تلك اللحظة:

- نشتمان.

- واو.. أجمل أسيرة في سنجار. بل في العالم كله. هل عثرتم  
عليها؟

قلت من دون تفاصيل:

- الجمعة بعد الظهر سيحسم كل شيء. لا تقلقي.

الخميس:

لم يتأخر الحاج أبو عفراء في تنفيذ المهمة التي أوكلتها إليه.  
- أزلنا الألغام كلها والسهل سالك من وسطه، حسب الرايات  
البيض الصغيرة التي وضعناها وهي واضحة يا أبا الخير.  
من دون الحاجة إلى الناظور كنت أرى أعلامًا بيضًا صغيرة  
ترفرف مع شمس الغروب الذهبية، فباركت الحاج على سرعة  
تنفيذه الواجب.

- متى إن شاء الله يسلمون أنفسهم هؤلاء الكفرة؟  
- يريدون الأمان حسب ما أرسلوا لنا من رسائل، وسأتفاوض  
معهم خلال وقت قريب. لكن لا تعلن الأمر الآن لمجموعتك  
فالأمر في طوره السري.

باركت الرجل وقلبي يدق بقوة:

- بنفسى سأذهب للجبل، وأجلب الأكراد المستسلمين.

- الله أكبر الله أكبر.

- سأذهب إلى عمق الجبل يا حاج، وبينى وبينك اتصال  
مباشر في اللاسلكي، وليكن فصيلك متأهبًا وعلى استعداد كامل،  
تحسبًا لأية مفاجأة غير متوقعة.

- الله أكبر الله أكبر.

الجمعة - فجرًا:

لن يلحظ أحدُ الأعمى نور الدين بعد صلاة الفجر، يقود

صبية متلغفة بعباءة سوداء طويلة، عبر أزقة داخلية ما تزال بيوتها مهجورة، أو نائمة تحت سحابة الفجر المظلل بالظلام حتى الآن.

أكثر من زقاق خفقت به أقدامهما المسرعة، وعباءتها الطويلة تلم التراب والأعواد وراءها.

لم يتكلما في هذا المشوار الملقى الذي يسابقان الوقت فيه، وكانت الصبية منقادة بكلها إلى الرجل الذي حاذر من عصاه أن تضرب إسفلت الشوارع الداخلية، وكان يغالب الضوء الشحيح في عينيه، ويفتح فيهما أفقاً أوسع للوصول إلى بيت ناءٍ في أطراف المدينة، حيث تفقده قبل بضعة أيام مع راقبان، واتفقا على أن يكون هو رأس البداية إلى الجبل.

الجمعة - ضحى:

تلبد وجهه بكل أطياف القلق وكنث أعذره، فالوقت أخذ يُسرَع ويدهمنا بشكل عنيف.

- هل جهزت صرة الذهب؟

أشار إلى خاصرته بوجهٍ ملبّد بالكثير من الغضب والخوف والأمل واليأس.

كان وجهه مزيجاً غريباً من بشرٍ اختلطت فيه كل الألوان، وامتزجت على نحوٍ غريب. وتمددت وتقلصت فيه الانفعالات على نحو يدعو إلى الخوف.

- تصرف بهدوء يا صديقي.

- أكاد أموت من الانتظار.

- لم يبق وقتٌ كثير، وكل شيء جاهز، ونور الدين سينتق بنا هنا.

### الجمعة - قبل صلاة الظهر:

حضر التونسي مرتديًا طاقمه الأسود، وقد زاد من حف شاربه وبقيت عيناه قلقتين تدوران في أكثر من مكان، فيما كانت ثلثة ابن تيمية تتكاثر على نحوٍ غير مسبوق من القرى المجاورة، تحت نداء انتشر سريعًا بعرض السبايا لأرامل أبي العينين نبيح والشراء، ورأى سريست وجوهًا كثيرة لم يرها سابقًا، ولم يأنثها في الجامع، كذلك كان راقيار يدور في باحة الجامع، يتطلع نحو الوجوه الغريبة التي حلت قبل صلاة الجمعة، حتى امتلأ صحن الجامع وباحته بالكثيرين ممن لم يسبق له أن رآهم، لكنه تمكن من معرفة بعض القواد وعجائز المتعة بحكم دورانه اليومي في القرى القريبة والبعيدة، وعرفه البعض.

وصل الأعمى نور الدين لاهنًا بعد أن ترك الصبية في البيت المجهول مع الأغنام، وشجعها على البقاء، وأوصاها أن تتحمل رائحة النعاج، وبعرورها، والمكان غير النظيف الذي أبتاها فيه. تحسّر سريست صرة الذهب أكثر من مرة، وكلمه راقيار أكثر من مرة، ودار نور الدين في فناء وباحة الجامع أكثر من



دورة، تاركًا مكانه اليومي على عتبة باب الجامع، وهو يشعر بالكثير من القلق.

قال التونسي لرافيار بصوت منخفض:

- نشئمان موجودة مع الأرامل. لكنّ اسمها تغير إلى اسم

إسلامي.

- ما هو؟

- عائشة.

وقبل أن ينسحب أعاد الهمس بشكل سريع:

- سأخرج قبلكم. ستجدونني في بداية حقل الألغام بين

الرايات البيض.

انسحب بين اكتظاظ الجمهور المتزايد تاركًا الاسم الجديد

يدور في رأس الراعي المتحفز في يومه الأخير هنا، مثلما ترك

حقلًا واسعًا من الألغام يدور في فلك رافيار، وهو يتخيل

السهل المفتوح المزروع بالرايات البيض الكثيرة.

الجمعة - خطبة الجمعة:

لم يتعرف كثيرٌ من المصلين على شخص الخطيب الجديد عندما

اعتلى المنبر، بسواد ثيابه الفاقع، لكنهم انتظموا بالجلوس على

شكل خطوط متوازية داخل القاعة الصامتة، واصطف البقية

في الباحة الخارجية بالصفوف ذاتها تحت الشمس، وهدأت

الفوضى، حتى نور الدين وجد له مكانًا قريبًا من رافيار الذي

دحس نفسه في الخطوط الأربعة الأولى، وبقي سربست منقبض  
النفس شاعرًا بمرارة لحظاته المتسارعة، وصورة لشثمان تتخاطر  
في رأسه بهيات متعددة، واسمها الجديد الذي أخبره به رهايار  
لا يستطيع ابتلاعه بسهولة.

وضع عصا عيدو في حوضه يتأملها، فتطلعت إليه الإشارات  
والرموز والحروف والتواريخ المتقاطعة والمتعامدة، ولمعت  
أضواء القاعة الثلجية على أسطوانتها المدورة، فكشفت قشرة  
صلبة تحتها مفردات تركمانية غير واضحة. ثم طالعه العين  
الصغيرة حينما دَوَّرَ العصا بأصابعه.

انتبه إلى الخطيب الجديد:

- بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على نبينا  
المُصطفى خير المرسلين. إن الحمد لله نحمده ونستعين به،  
ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا  
وذنوبنا. لقد تغير الحال وتغير الدين وتغيرت العقيدة، وتغير  
المنهج مع هؤلاء الروافض الصفويين، الأنجاس عبدة الأوثان،  
والقبور والأصنام، ومعهم أهل السنة العبيد الموتورون الذين  
عاثوا في أرض المسلمين فسادًا وضعةً وفسوقًا.

كانت صورة نشثمان تكبر في رأسه، وتنفرش أمام عينيه  
كما تركها منذ سنتين، صغيرة وناعمة وشقراء وحلوة بعينيها  
الزرقاوين، وقد أخذت من أمها الراحلة الكثير من سمات  
الجمال، وحلاوة المنظر ورقتها.

كانت نشْثمان تخرج من نيران الخطيب الجديد، وجحيمه الذي يصلية على الجالسين، كأنه إلهُ يوم الحساب، ولم تعد نبرة الخوف التي يطلقها مفيدة لسرست، الذي انغمر بأطراف صبيته الوحيدة، وكان يحسب الوقت المتبقي لمزاد الأرامل، الذي طال مع صياح هذا الديك الأسود مبشراً الجميع بعذاب أليم، ما لم يقتلوا السنّة والشيعّة والأيزيديين والأكراد وسواهم من الجماعات الأخرى. حتى تطاير زبد فمه على الخط الأمامي، وهو يستغيث بالسماء ويستغفر الرب كثيراً، كما لو أنه ارتكب معاصي البشرية كلها.

تنفس الجميع الصعداء، وهم يخرجون من فوهة نار كبيرة، رأسها الخطيب الجديد الذي لم ينس أن يعدهم بالجنة والحدوريات، بعدما أحكم عليهم نيران جهنم من كل جانب. كانت الطوابير البشرية صامتة، وهي تتلقى سيلاً من اللغة المداهمة، حتى هدأ وأفرغ ما في جعبته من لغة شائطة، وروح عدوانية، يتلمسها الكثيرون الصامتون، فتقشعر أبدانهم، وتنقبض قلوبهم لهول الخيال الذي يرسمه الخطيب الجديد. شرب ماءً من قدح نحاسي أمامه ثم قال:

- يا معشر المسلمين من المجاهدين والأنصار، والداخلين إلى دين الله. كما تعلمون فقد فارقنا إلى السموات العُلى مجاهدنا وأمير أمرائنا الشيخ أبو العينين رحمه الله برحمته الواسعة، ولم يأخذ معه من هذه الدنيا الفانية سوى أعماله الطيبة،

وخدمته الجهادية في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان، وبقي ذكره الطيب على ألسنتنا جميعًا والحمد لله على كل حال.

صمت قليلًا وتفرد بالوجوه المحنطة:

- ترك أمير الأمراء الراحل المجاهد أبو العينين بعض الأرامل اللواتي لازمته حتى وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى، وفي شرعنا لا يجوز ترك الأرامل مشرعات للفتنة، لهذا سيوضح لكم القاضي الشرعي بعض ما أشكّل عليكم في هذه المسألة قبل أن يُفتح باب المزاد الشرعي لهذه السبايا.

تنحى الخطيب ونزل درجات المنبر بهدوء، وجلس أمام الخط الأول على مخدة طويلة أعدت له، وصعد القاضي الشرعي بعمامة ملفوفة كاليشماغ الأسود على رأسه، معتليًا المنبر:

- بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وصحبه أجمعين. أما بعد فنلفت انتباه الأخوة المؤمنين والمجاهدين، أنه قد وهبنا الله من الأيزيديات الكافرات أعدادًا كبيرةً كنّ على ضلالة من الدين، لكن الله هداهن بعد غزوة الجزيرة، وتحرير سنجار بؤرة الشياطين الكفرة، وغنم الحرائر منهم. وتعلموا أنه تعالى قد أوصانا بالحلال والزواج مثنى وثلاث ورباع، وما أحله من إماء وجوارٍ وما ملكت أيماننا. أقول هذا وقد كان الراحل المجاهد الكبير الشيخ أبو العينين، يطبق هذه الوصايا الإلهية، ولم يتجاوز عليها رحمه الله برحمته الواسعة؛ فكان الستر والحائط للكثير

من البنات السنجاريات الكافرات والمسيحيات اللواتي اختلط  
إيمانهن بالكفر الصريح، وحينما توفاه الله ترك تركة عظيمة  
من الإماء قوامها ثلاثون بنتًا وصبية سهر على راحتهن، وزرع  
الإيمان فيهن، لكن لله حكمةٌ بوفاته فعاجله وهو يبلغ من  
العمر الرابعة والسبعين سنة.

تطلع إلى الوجوه التي تنظر إليه وقال:

- سنعرض عليكم هاته الإماء وبعضهن أبنكار لم يمسهنَّ  
الشيخ الراحل، بل كان يكتفي برضاعتهن كطبِّ نبوي داوم عليه  
سنتين، تجنبًا لأمراض العصر الكثيرة، لكي يبقى وصول في ميدان  
الجهاد حتى وفاته، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

كانت القاعة صامتة كما لو حطَّت الطيور على رؤوس  
الجالسين فيها، وانتظمت أنفاسهم بل وصمتت ببطء كبير.  
- شرعًا نشير إلى أن علماءنا الأجلاء أباحوا سبِّي جميع الكافرات  
كُفْرًا أصليًا، ولا خلاف بذلك، وواضح أنه يجوز وطء السبيَّة بعد  
المُلك إن كانت يكرًا، ومن كانت ثيبًا فلا بد من استبراء رحمها،  
ولهذا يجوز بيع السبايا أو إهداؤهن لأنهن محضُ مال. كما  
أنه يجوز وطء السبية والأمة الصغيرة، لو كانت سالحةً للوطء،  
حتى لو لم تبلغ الحُلْمَ. أما إذا كانت غير سالحةٍ للوطء فيجوز  
الاستمتاع بها وحسب بالطريقة التي تريح مالکها.

سكت قليلًا يقلب ناظره بين الجموع:

- قد تسألون؛ إذا مات الرجل وترك سبايا في ملكه فما هو

حكمهن؟ والجواب الشرعي هو أن تقسم السبايا ضمن تركته  
كتقسيم الإرث غير أنهن يكن في الخدمة فقط ولا يجوز وطأهن  
إذا وطأهن أب أو ابن من قبل. وفي حالة الراحل المجاهد أمير  
الأمرء أبي العينين أفرزنا حوالي ثلاثين صبيةً لم يطأهن الراحل  
بل كان يستمتع بهن فأغلبهن دون الوطاء وبعضهن لم يبلغن  
الحلم. لذا كان يكتفي برضاعتهن للغذاء والشفاء.

صمت قليلاً وعيناه تطوفان بين الجموع الصامتة:

- في حالة أبي العينين، أسكنه الله فسيح جناته، اختلف الأمر  
قليلاً. فالرجل لا وارث ولا ورثة له. ولا ذرية ترثه لا من بعيدٍ ولا  
من قريب، بل هو مجاهد في سبيل الله جاء من أقصى الأرض  
إلى أقصى الأرض دفاعاً عن كلمة الله الحق ومات فيها. حتى  
أنه في تسجيل اسمه في السجلات الشرعية رفض أن يقول من  
أين جاء، وإلى أي بلدٍ ينتمي، وفضل أن يكون مجهولاً، فوحده  
الله سبحانه وتعالى يعرف نشأته وسيرته وقوميته ومصدره  
وجذره. لذلك ارتأى القضاء الشرعي أن يرث صبايا أبي العينين  
شرعاً لأنه لا وارث يرثهن، لذا فقد أصبحن مآلاً حلالاً لدولة  
الخلافة الإسلامية، التي تتصرف بهذا المال بما تستفيد منه،  
وتعزز إمكاناتها المادية في مواجهة أعداء الله.

تنحنح قليلاً ودارت عيناه على الجموع المستسلمة:

- توفيراً للوقت والجهد، وحتى تكونوا على بينة، فإننا  
سنعرض عليكم البنات والصبايا بمجموعاتٍ. بمعنى سنعرض

ثلاث مجموعات مع أسمائهن وأعمارهن بواقع عشر صبايا في كل مجموعة، وتبقى ثلاث بناتٍ مفردات.. ولنا في هذا شأن سنقوله فيما بعد.

علت هممة في القاعة كأنما انفكت عُقد الألسنة المحبوسة.

نادى القاضي الشرعي:

- أم المجاهدين.. تفضلي.

من باب جانبي دخلت امرأة منقبة وملفعة بالسواد كأنها

غراب منفوخ:

- أم المجاهدين ستكون عينا لمن يشتري هاته الصبايا،

وستكشف لكم وجوه الصبايا بالتسلسل، لكن من حق المشتري

أن يرى سبيته في غرفةٍ جاتيةٍ، ويتأكد أن لا عورة فيها، ولا

جنون، وستكون أم المجاهدين معه حتى نسهل الأمر عليكم

جميعًا، ومن الله التوفيق.

همس شيئًا لأم المجاهدين بعيدًا عن فم الميكرفون، فهزت

رأسها موحية أن كل شيء جاهز الآن.

عاد القاضي يقول:

- ستدخل أول عشر فتياتٍ وسنذيع أسماءهن وأعمارهن

وأسعارهن، وسيكون الشراء علنيًا رحمكم الله، والدفع المالي

فوريًا لدى أم المجاهدين، وفي آخر العرض سنسلم الذين رسا

البيع عليهم أوراق العقود الشرعية للزواج.

ثم أوضح:

- سنعرض جداول بأسماء الصبايا وأعمارهن وأسعارهن على شاشة المسرح لتكونوا على بينة من الأسماء والأعمار والأسعار.. وعلى بركة الله نبدأ ونرجو أن تبقوا جالسين في أماكنكم بانتظار عرض السبايا الأرامل.

قبل أن يعلن أسماء الوجبة الأولى مالت عليه أم المجاهدين، فاستدرك:

- السبية التي يطلبها أكثر من مجاهد سيكون أمانا حلان، الأول هو أن يتنازل أحدهما إذا كانا اثنين تنازلاً حبيماً وأخوياً، وإذا لم يحصل هذا أو وجود أكثر من اثنين فنفتح باب المزايده بينهم والذي يدفع السعر الأعلى ستكون السبية من نصيبه.

### الجمعة - العرض الأول:

من غير شعور زاحمتُ الأكتاف، وعبرت الرؤوس بخطوات عشوائية، دسْتُ فيها على أقدام وأيدي الكثيرين، وكنتُ أبدي أسفي لهذا وذاك، مختزلاً الصفوف بلا وعي، وأنا أبحث عن راقيار الذي ظل يغير مكانه بقلق حتى وجدته، فدحست نفسي إلى جانبه وأنا أتلفت معتذراً، فطريقتي لفتت الأنظار التي قابلتني بالسخرية والاستهزاء، وعدّني البعض بالمتهور وغير المهذب، فكنت أبتلع الإهانات حتى اصفر وجهي، ونشف الدم بي، ولولا مسارعة القاضي لقراءة الأسماء لبقيت وقتاً أطول أشعر بالذنب والخزي، لهذه العشوائية التي مارستها.



- الوجبة الأولى للسبيات.

نادى القاضي الشرعي فدخلت عشر فتيات ملفعات بالسواد، كأنهن بطاريق يحجلن بارتباك ووقفن أمامه، فوجهتهن أم المجاهدين بصف واحد عرضي أمام الحاضرين. ثم التمعت شاشة فضية في بطن المسرح خلف الفتيات أنارت وجودهن، وكان القاضي يقرأ والعيون الشرهة تتطلع إلى الشاشة الفضية:

السعر	العمر	اسم السبية	
\$700	22 سنة	نورهان - أيزيدية	1
\$700	22 سنة	إخلاص - أيزيدية	2
\$700	22 سنة	حنان - أيزيدية	3
\$ 700	22 سنة	بهار- أيزيدية	4
\$ 700	22 سنة	أفين - أيزيدية	5
\$ 700	22 سنة	ايتار- أيزيدية	6
\$ 700	22 سنة	تمارا - أيزيدية	7
\$ 700	22 سنة	روزهات - أيزيدية	8
\$ 700	22 سنة	سوز - أيزيدية	9
\$ 700	22 سنة	جولي - مسيحية / لم تدفع الجزية	10

كشفت أم المجاهدين وجوه الفتيات بالتتابع بإزاحة النقاب عن وجوههن؛ فبدون كطيور مذعورات أمام شبكة صيادين مفاجئة. تخاطفت عيونهن بخجل على الجمع الذي ملأ قاعة

الجامع، فتدافع بعض الجالسين رافعين قائلاتهم متطلعين إلى الفتيات المصطفات على نسق واحد، ولون واحد بالعباءات المنسدلة التي غطت أقدامهن.

نادى أكثر من شخص بأسماء الفتيات.. جولي.. سوز.. إيشار.. روزهات.. إخلص.. أفين.. وخلال وقت لم يطل كثيراً تمكنت أم المجاهدين من إدخال المزايدين إلى الغرفة الشرعية، ولم يحدث ارتباك سوى مرة واحدة، حينما تقدم اثنان على السببية جولي، غير أن أحدهما تنازل بود للآخر وعانقه متمنياً له التوفيق، ولم تبق إلا نورهان التي لم يطلبها أحد فأعادتها أم المجاهدين إلى غرفة جانبية، بينما نادى القاضي على العرض الثاني.

كنت أشعر بالذل والخوف واليأس حتى خلت نفسي بأني سأنفجر داخل القاعة.

### الجمعة - العرض الثاني:

ضبط سربست أعصابه بعد أن وبخته ورجوته أن يهدأ كثيراً، لكن بقيت عيناه مشدودتين إلى مكان العرض الثاني الذي جاء بعشر فتيات أخريات.

كان جسده يرتعش كسعفة، ويداه ترتجفان لا يستطيع ضبطهما. وكنت أرتجف مثله لهول الرؤية في هذا العرض المذل.

- اهدأ.. لا تلفت الأنظار إلينا.

كنت أضغط على يده بقوة وعصبية وخوف، وكان صوت

القاضي الشرعي في الميكروفون كافيًا لأن يسمع حتى من بقي  
في باحة الجامع والشاشة تضاء من جديد:

الاسم	العمر	السعر	
1	جورين - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
2	عفاف - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
3	سولاف - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
4	هيفار - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
5	كلستان - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
6	يارا - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
7	جنان - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
8	بيرهات - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
9	نجاهة - أيزيدية	21 سنة	\$ 800
10	مزيكين - أيزيدية	21 سنة	\$ 800

كشفت أم المجاهدين وجوه الفتيات المخطوفة أمام الجميع كما فعلت في المرة السابقة، وتقدم أكثر من عشرين شخصًا يتأملون الفتيات المملفات بالسواد، وفي الوقت الذي انسحب فيه الأغلبية رسا البيع على سبع فتيات، اثنتان منهما كانتا من نصيب شيخ لا يعرفه أحد، ويبدو أنه قديم من إحدى القرى المتاخمة لسنجار، وأرجعت أم المجاهدين الثلاث الباقيات إلى الغرفة الجانبية. كانت قاعة الجامع هادئة تقريبًا، وكنت أسمع أنفاس سربست المتسارعة، وأشعر بنبضه السريع وجسده الذي يرتعش كثيرًا.

### الجمعة - العرض الثالث:

زاد سربست من قلقي، وهو لا يستطيع أن يثبت في مكانه، فاقد التركيز والأعصاب إلى حد جعلني خائفًا ومضطربًا وعصبيًا، فزدتُ من ضغطي عليه هامسًا بحق، وأنا أراه يتحول إلى كائن آخر، ليس هو سربست الصامت الذي عرفته. فأجبرته على أن يمثل لهذه اللحظات الخطيرة التي ستأتي بنشثمان أو عائشة، أو نضيع كلنا في هذه الفوضى التي يثيرها، ولم ينتبه إليه أحد بسبب انهماك الجميع بترقب السبايا في العرض الثالث. هدأت القاعة حينما نادى القاضي الشرعي بأسماء الوجبة الثالثة والأخيرة. فبزغت أسماء الفتيات مع صوت القاضي:

	اسم السبيّة	العمر	السعر
1	إكرام - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
2	نازك - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
3	إيفين - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
4	لينا - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
5	إشراق - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
6	افتخار - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
7	لجين - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
8	نجمة - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
9	تالين - أيزيدية	20 سنة	\$ 900
10	أشين - أيزيدية	20 سنة	\$ 900

تم شراء ثماني صبايا على الفور، واختلف أربعة شباب على الصبية تالين التي شغرت شقرتها حين كشفت وجهها أم المجاهدين، وبينما تنازل أحدهم وانسحب، بقي ثلاثة رجال متقاربين في الأعمار معاندين، ومصرين على المزاد. أحدهم زنجي بهلامح أفريقية لم يره أحد في الجامع إلا هذا اليوم، وكان غاضبًا على نفسه على ما يبدو.

غليظ الكلام، غير منضبط كليًا، لكنه استطاع أن يُرسي المزاد عليه بـ 1752 دولارا، فتحول وجهه إلى كتلة من الفرخ الصباني، وهو يتلقى تهنئة رفاقه الحاسدين، وبقي الرجلان اللذان فشلا في تقديم السعر المطلوب ينظران إليه بكرهية.

### الجمعة - العرض الخاص:

دخلت مجموعة من الذين كانوا في الباحة الخارجية، بعدما توفرت بعض الأماكن التي غادرتها مجموعات صغيرة، وانتظمت الصفوف من جديد، وساد اللغط قليلاً، وظل سربست يجيل نظره إلى الورا والأمام، وقلبه يضطرب ماسكاً خاصرته كأنه سيُخرج منها سيقاً، ويكاد النبض يتوقف في صدره حينما انتهت العروض الثلاثة من دون أن تكون بينهما نشتمان أو عائشة.

تدخل القاضي الشرعي قائلاً:

- الآن أنهينا ثلاث مجموعاتٍ من السبايا الأيزيديات، ونهنئ

المجاهدين الذين رسا البيع عليهم بالحياة الرغيدة، في عهد دولة الخلافة الإسلامية القائمة على مبدأ الإسلام الحنيف، وشرعيته في الحياة العامة. أما اللواتي لم يحالفهن الحظ في البيع فسنزلهن إلى ولاية الموصل.

أشار لبعض الشباب في آخر القاعة أن يمثلوا للهدوء.

التفت سريست وراءه فرأى القاعة مكتظة، تصطف فيها وجوه غريبة فقدت الكثير من سماتها وملامحها البشرية. مما زاد من وجيب قلبه، فانتابه القلق بريقٍ جاف، وشفتين تشققتا من الجفاف.

ضرب القاضي الشرعي يده على الطاولة، ليلفت الانتباه، ويقطع اللغط:

- الآن بقيت لدينا ثلاث صبايا، وهن آخر أرامل المحروم بإذن الله، الشيخ المجاهد أمير الأمراء أبو العينين، وهنّ من الصبايا الباكرات قطعاً، وقد تم فرزهن من قبل لجنة شرعية وطببية مختصة. وهاته الصبايا لم يخضعن إلى سعر ثابت، بل نترك تقديرات المزاد لمن يزيد عليهن باعتبارهن مألأ عانداً إلى دولة الخلافة. مدّ عينيه إلى آخر القاعة، وعاد يستكمل التوضيح:

- الأسباب الشرعية التي تدعونا إلى ذلك، هي أن الصبايا الثلاث أعمارهن صغيرة وهن أجمل الأسيرات برأي لجنة من المجاهدات، وكنّ مقرباتٍ إلى الشيخ المجاهد أبي العينين وما زلن باكرات بشهادة الطببية الشرعية، وصالحات للزرع والحرث

كونهن بلغن سن الأنوثة؛ لهذا رأت اللجنة أن من يدفع أكثر سيكون صاحب النصيب الأول.

### العرض الخاص - الأول:

أدخلت أم المجاهدين البنات الثلاث، ونظمت وقوفهن متباعدات قليلاً، وكن يرتدين السواد من أعلى الرأس حتى القدمين، وبدت أطوالهن متقاربة كأنهن في عرض مسرحي شبحي.

- والآن على بركة الله نقرأ الأسماء ونفتح باب المزايمة على

السبية الأولى:

1	جلنار - أيزيدية	16 سنة	مزاد مفتوح	يبدأ من 1000 \$
---	-----------------	--------	------------	-----------------

- السبية الأيزيدية جلنار.

العمر 16 سنة

السعر غير محدد لكن يبدأ مزادها من 1000 دولار فمن

يشترى؟

كشفت أم المجاهدين وجه جلنار الصغير، فتخاطفت عيناها الواسعتان بوميض غريب، أطار صواب سربست الجامد في مكانه. وجه صغير برّاق بالطفولة، وعينان واسعتان من الجمال أو الخوف.

قال شيئاً لم يتبينه راقبها في لجة احتدامات الرجل، لكنه وضع يده على كتفه:

- أرجوك اهدأ. ليست هي.

تقدم أكثر من مجاهد يرتدي السواد، عُرف عن أحدهم أنه مجاهد شرس، جاء من أقصى قرية لحضور المزاد، ووقف أمام البنت، وتطلع إليها ثم التفت إلى القاضي:  
- أدفع 1200 دولارًا.

أعاد القاضي السعر الجديد للمجاهد المنتصب كالرمح عبر ميكرفون؛ غير أن مسنًا آخر كان يتطلع إلى السبية الصغيرة لكنه لم يرفع نظره عنها وهو يقول:

- أزيد 200 دولارًا يا شيخ.

أعاد القاضي الرقم الجديد:

- 1400 دولارًا

صاح الرجل الرمح:

- أزيد 100 دولار أخري.

تدخل عجوز من أقصى القاعة:

- أزيد 200 دولارًا.

صاح الرمح:

- وأزيد أنا أيضا 200 دولارًا.

كان القاضي يدون الأرقام في ورقة أمامه.

استقتل الرجل الرمح، ونادى بصوت أعلى:

- 2000 دولارًا وهذه السبية من حصتي فضيلة القاضي.



## العرض الخاص - الثاني:

كان ثمة لخط في القاعة بعد أن ربح الرجل الرمح سبيته، وصعد مع أم المجاهدين إلى الغرفة الجانبية، غير أن القاضي ضرب بمطرقته على المنضدة، وصاح بتعب، وكانت الشاشة الفضية تقرب قليلاً الاسم الأخير في المستطيل الضوئي:

1	أرجوان- أيزيدية	16 سنة	مزاد مفتوح	\$ 1500
---	-----------------	--------	------------	---------

- السبية الأيزيدية أرجوان. العمر 16 سنة. السعر غير محدد لكن يبدأ مزادها 1500 دولار فمن يشتري.

كشفت أم المجاهدين وجه الصبية الثانية، فانفتح بياض جميل، وعلت أصوات خفيفة تستحسن تلك الطلة الملهمة، فسارع أكثر من شخص، وعلا أكثر من صوت بما أحدث جلبه نسبية في القاعة.

رجل في الخط الأمامي أشعث الشعر بوجه ذابل، وجه كلامه إلى القاضي:

- فضيلة القاضي أنا أدفع مباشرة 2000 دولار لهذه الصبية والاتكال على الله.

عابه شخص من وسط الجموع وكان على رأسه يشماغ أبيض:

- يا أخ الإسلام. عليك أن لا تحرق السعر بهذه الطريقة السريعة.

التفت الأشعث إلى مصدر الصوت فردّ على الرجل:

- يا اخ الإسلام هذا مالي، وأنا حر به، أختار من أشاء.  
وبطريقة غير متوقعة، قال الرجل الملعون وهدو يعلل من  
يشماغه الأبيض:  
- أنا أدفع 2500 دولارًا فضيلة القاضي.  
تبسم الأشعث ولفوره قال للقاضي بعناد:  
- عليّ بثلاثة آلاف دولار فضيلة القاضي. هذه السببية لسمتي  
ونصيبي.

سكت الجميع وانسحب المضاربون على مضض، أولهم صاحب  
الغرة البيضاء، وكاد قلبه سربست يتوقف حينما انسحبت  
البنيت الثانية مع أم المجاهدين في الغرفة الجانبية، ولحق بهما  
الأشعث الذي توسع الفرح في وجهه الذابل، وبقيت السببية  
الثالثة وحدها منتصبة كشبح أسود.

### العرض الخاص - الثالث:

شدّ رافيار كتف صديقه وهمس:

- اهدأ.. لعلها نشتمان الأخيرة، ولا تزايد أول الأمر. اترك الأمر  
يجري بسلاسة، فلدينا مال كثير وأكثر من ثلاثة كيلوغرامات  
من الذهب. لن يزايد علينا أحد. اصبر ولا تفضحنا أرجوك.  
انتبه إلى الاسم.. اسمها الإسلامي عائشة.

أوقف القاضي الضجيج المتعالي في القاعة بإشارة من يده،  
ثم طرق على المنضدة أمامه حتى ران سكون جديد. بينما

اشتعلت الشاشة الفضية، وهي تقرب الاسم الأخير في المزاد:

1	عائشة - أيزيدية	15 سنة	مزاد مفتوح	يبدأ من 2000 \$
---	-----------------	--------	------------	-----------------

السبية الثالثة والأخيرة في مزاد اليوم:

- الأيزيدية عائشة. العمر 15 سنة. السعر غير محدد لكننا

نبدأ من 2000 دولار.

قبل أن تكشف أم المجاهدين وجه الصبية الأخيرة، اختلج سربست، وتفاقم نبضه إلى حد تشبث بيد راقيار المنفعل مثله، وحينما انكشف وجهها شخّ بياض غريب ضارب إلى الشقرة، وبرقت عينان زرقاوان ظللت إحداهما خصلة شقراء صغيرة نافرة، فشطرت العينين إلى ساحلين صغيرين، رفر فيهما جمال لا يمكن لأحد أن يُخطئه، فتدافع بعض الشباب والرجال لرؤية أصغر صبية في العرض.. سبحان الله الخالق الجميل.. سبحانك يا ربّي.

حاول سربست أن ينهض إلا أن راقيار تمسك به بقوة:

- أرجوك اهدأ.

- إنها ابنتي.

أمسكه راقيار، ولجم فمه مستغلاً بعض الحركات، والفوضى داخل القاعة، فأحس برفيف جسده المتوتر، كما لو أن مروحة بداخله تدور بلا هوادة.

اقترب كثيرون من الحافة الفاصلة بين الصبية ذات الوجه الأشقر البارق، والخط الأول من الجمهور الذي سادت بينه

لفوضى نسبياً، ووقف الكثيرون يتأملون فلقة الجمال السماوي  
الصغيرة الجامدة بمكانها.

- هنيئاً لمن يحصل عليها.

تكررت هذه الأمنية بين الكثيرين، وبأصواتٍ مسموعة طرق  
بعضها أذني سربست الجامد هو أيضاً، ينظر إلى ابنته الواقفة  
بذل ورعب، فانتشله أول صوت لرجل ستيني ما يزال الغبار  
على وجهه، وكأنه جاء من الصحراء على حصان يطير أسرع  
من الريح:

- أدفع 2500 دولارًا فضيلة القاضي.

وحينما حاول سربست أن يصرخ ويقول سعراً أعلى، شدّه  
راقيار بقوة وعصبية.. اش اش لا تفضحنا يا أخي.. سيحرقونك  
ويحرقونها.. اهدأ أرجوك.

- عليّ بـ 2700 دولارًا فضيلة القاضي.

وكان هذا صوت عجوز على يسار المكان، قريباً من السيّنة  
الحائرة، وهي ثابتة العينين كأنما ماتت للحظتها، فيما كان  
سربست يجبس أنفاسه، ويحاول أن يخفف من نبضه المتزايد،  
لا سيما بعض العجائز أخذوا يصعدون من السعر بأصوات  
متعاقبة، فيها إصرار على شراء السببية الشبح.

- فضيلة القاضي أدفع 3000 دولار

- أشتريها بـ 3500 دولارا

- عليّ بـ 4000 دولار

- حق هذي السبيّة 4100 دولارًا

- لا.. حقها 4500 دولارا

انتبه سربست إلى رجل متشح بالسواد، تتدلى صفائره على صدره، وهو يشق الصفوف ويقف أمام السبية الصامتة، وينظر إليها بشكل مباشر، ثم التفت إلى القاضي:

- سبحان من خلق هذا الجمال. سبحانك يا ربي. أنا أدفع

6000 دولار، وأظن أنها من نصيبي.

خفق قلب راقيار وهو يتطلع إلى هذا الكائن الغريب

بصفائره المتدلّية فلم يتمالك أعصابه فرفع يده:

- فضيلة القاضي. أنا أدفع 6500 دولارًا.

التفت رجل الضفيرة إلى راقيار بحنق، ومن دون أن يلتفت

إلى القاضي قال:

- أنا أدفع 7000 دولارًا.

انشدّت أعصاب راقيار أكثر من سربست المهالك، وهو ينظر

إلى صبيته التي فارقها منذ سنتين، وبقي الآخرون يتطلعون إلى

هذا النزال مع رجل الصفائر المتدلّية.

صاح راقيار:

- 8000 دولار فضيلة القاضي.

فهمهم البعض ممن يعرف راقيار: تصوروا. الراعي لديه مثل

هذا المبلغ.

عاد الرجل الأول وهو يقترب من القاضي:

- 9000 آلاف دولار. لعلها تكون من قسمتي.

تتسع الابتسامة في وجه القاضي، وهو يرى الجو المشحون  
لآخر صبية استحوذت على القوم، فرفع سربست نفسه  
بصعوبة، وحاول أن يستدير قليلاً ليعطي جزءاً من ظهره  
لصبيته الجامدة في مكانها، وعيناها الزرقاوان ترفرفان بين  
المتساومين بهلع لم تستطع إخفاءه.

قال بصوت ضعيف:

- عشرة آلاف دولار فضيلة القاضي.

بدا الانفعال على رجل الضفائر، وهو يقترب من سربست  
قليلاً ليرى وجهه الذي اكتسى باصفرار غريب، وقبل أن يقول  
شيئاً دقَّ القاضي بمطرقته على الطاولة وقال:  
- عشرة آلاف دولار لهذا الرجل.. من يدفع أكثر؟  
-.. ونصف..

قال ذو الضفائر بنوع من التحدي العدواني، فيما صمت  
البقية الذين ظلوا مشدودين إلى المساومات المثيرة.  
شعر سربست بأنه في طريقه ليخطف ابنته بأعلى سعر،  
فمدّ يده إلى زيقه واقترب من منصة العرض، وجهاً لوجه أمام  
الصبية، بطريقة بطيئة، لكن مرتعشة، يدبُّ وراءه راقبان بقلق  
وخوف، ويراقبه نور الدين برعب من آخر القاعة، وينظر إلى  
اللعبة المتوحشة، وقلبه يكاد يطفر من صدره.  
سحب سربست كيس الذهب المدفون في خاصرته تحت دشدشته،

ورفعه من عنقه كأنه يخنق حمامة صغيرة ويريد تحريرها، فيما كانت عينا الصبية تتسعان فتفيض فيهما الزرقة المألحة، ويختلط معهما الدمع وتتحجر شفتاهما، كما لو أدركت بحس فطري اللحظة العظيمة والخطيرة، وهي ترى والدها بطوله الفارع، يتقدم بكيس لم يفصح عنه، غير أن الجميع سمعوا خرخشته وهو يرفعه إلى الأعلى، ماسكاً عنق الحمامة بقوة. فران صمّت مهيب في القاعة المكتظة بالأنفاس، وكان الرجل يتقدم بخطى ترتعش حتى صار أمام القاضي الشرعي، وقال بارتياح وانتصار:

- هذه ثلاثة كيلوغرامات ذهب سعر هذه السببية.. أنا أتزوجها!

تمت

بغداد

2018 - 2016

## سيرة الرواية

- الجزء الأول.....9
- أميرات المعبد.....11
- إنها أجمل أسيرة يا عم.....25
- سنمضي الليل على جبل عرفات.....35
- الراضوع / 1.....42
- لستُ حيواناً ولا إنساناً.....50
- قطعة أرض في الجنة / مقطع عرضي.....57
- من دعاء السفر الأيزيدي.....64
- جبل الغزلان / 1.....65
- الأربعاء الأحمر.....65
- إله النار الغريب.....83
- جبل الذئاب/2.....87
- مرارة النسر.....87
- 2- الكبد النبوي / مقطع عرضي.....92
- 3 - جبل الضباع.....96
- عندما تزوجتُ دبةً بيضاء.....96
- 3- مقشّر الجلود / مقطع عرضي.....109
- 4- جبل الدببة.....115



115.....	الآخر الذي فينا
121.....	نور الدين.....
125.....	5- جبل السباع.....
125.....	عجائز استحوذوا على الدين .....
131.....	الراضوع / 2.....
138.....	6- جبل الخفافيش .....
138.....	كانها رياح خضراء.....
142.....	صلاة الأعمى.....
146.....	7- جبل الصقور.....
146.....	شنگال مسقط القلب .....
159.....	الجزء الثاني .....
160.....	إعدام مكتبة / مقطع عرضي - 4 .....
170.....	لمحات الشيطان المغامر.....
172.....	الروح الميتة في كل مكان .....
175.....	عصا عيدو .....
179.....	البرابرة يأكلون الحلبي.....
187.....	رأس الخيط .....
191.....	مهنة العميان في الحرب .....
199.....	زوجاتي الهاربات .....
204.....	شُلة ابن تيمية / 1 .....
207.....	أنتَ تبقى مع الغنم.....

- 210 .....سأعَلِّقُكَ عَلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ.....
- 213 .....رِنْدَةٌ.. ابْنَتِي .....
- 218 .....يُخْرِجُ مِنَ الْحَفْلَةِ الْوَحْشِيَّةَ بِدِمَاءِ أَقْلٍ.....
- 222 .....عِرَائِسُ فِي طَرِيقِ الْأَنْغَامِ.....
- 225 .....اللَّهُ - الدِّينِ.....
- 227 .....أَخَافُ خُودًا وَشَيْخَادِي .....
- 233 .....بِصْمَةِ الْجَاسُوسِ .....
- 237 .....مُوتِ الرَّاضُوعِ .....
- 241 .....جِنَازَةُ الْوَحْشِ.....
- 244 .....فَكَّرْتُ أَنْ أَنْهِيَ حَيَاتِي .....
- 247 .....حَارِسُ الْحُدُودِ .....
- 249 .....شَلَّةُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ/2.....
- 253 .....أَكْلَمُ أُمِّي فِي تُونِسَ فَتَبْكِي .....
- 258 .....سَأَنْقِلُكَ إِلَى بَيْتِ مَهْجُورٍ.....
- 261 .....مَرَضَعَاتُ أَرَامِلٍ.....



## إصدارات المؤلف الروائية،

- 1- شظية في مكان حساس - مؤسسة نائر العصامي - بغداد - 2019
- 2- امرأة بنقطة واحدة - دار نينوى - دمشق - 2018
- 3- الحلوة - دار نينوى - دمشق - 2017  
دار سطور - بغداد - 2017
- 4- جمهورية مريم - إيطاليا- منشورات المتوسط - 2017  
طبعة كردية من دار فيربوون 2019
- 5- عذراء سنجار- دار ضفاف - بيروت - 2016  
الطبعة الثانية - دار شنكال - دهوك - 2016  
الطبعة الثالثة - مؤسسة نائر العصامي - بغداد - 2018  
الطبعة الكردية - 2018 - السليمانية
- 6- شبيه الخنزير - الطبعة الثالثة - دار سطور - بغداد 2015  
الطبعة الثانية 2009 - دار فضاءات - عمان -  
الطبعة الأولى 2004 - دار الحضارة العربية - مصر
- 7- تجميع الأسد - الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - 2014

- الطبعة الثانية - مؤسسة نالر العصامي - 2018
- ٨- مجالب بغداد - الدار العربية للعلوم - ناشرون - بيروت - 2012
- الطبعة الثانية - مؤسسة نالر العصامي - 2018
- ٩- مولد هراب - (رواية) دار الحضارة العربية - القاهرة - 200٤
- ط 2 ط 1 ط ١- بغداد (سطور)
- 10- طيور الغاق - ( رواية) دار الشؤون الثقافية - بغداد - 2000



# وارد بدر السالم

# بنات للش

(اكتشاف عذراء سنجان)

هذا العالم الذي قرأنا عنه كثيراً من الأخبار، يتجسد هنا برعبه وجبروته وخروجه عن كل ما جاءت به الديانات السماوية، وعلى رأسها الإسلام الكريم. عالم داعش وما فعلته في بلد حضارته من أقدم الحضارات التي عرفها التاريخ، أعني به العراق الذي وجدت فيه داعش مكانها منذ وقت قريب. هنا تتجسد أبشع جرائمها وهي الاتجار بالنساء، ومن خلال رحلة بحث للأب الأيزيدي عن ابنته نعرف ماذا جرى، وكيف أساءت داعش لكل ما نعرفه عن الله الرؤوف الرحيم، وعن الرسول الكريم نبي العالمين من محبة للناس وصلاح بينهم. يفعل الدواعش ذلك ليسوغوا لأنفسهم المتعة الخبيثة بالفتيات، ناهيك عن قتل من يرونهم خصوماً بأبشع الطرق، ومتعتهم في التمثيل بجثثهم.

الرحلة تنتقل من المدن إلى الصحارى إلى الجبال، ومعها الروح المكلومة تبحث عن مهرّب وملاذئ لابنة ممثلة للجميع. تبحث عن الوطن. يستخدم وارد كعادته لغة صورية تجسد لك كل المشاعر الإنسانية جادة وهائلة، والقلق والرعب يمشي بها في سرعة، فما تكاد تبدأ في الرواية حتى تنتهي منها، وتصبح على رغم شجاعتها فناً بين يديك، وليس هذا غريباً عليه، هو صاحب الأعمال الجميلة من الروايات مثل "امرأة بنقطة واحدة" و"جمهورية مريم" و"الحلوة" و"عذراء سنجان" و"عجائب بغداد" و"طيور الغاق" وأخيراً "شظية في مكان حساس - انفجار آخر مفخخة في بغداد" مما نشر في أكثر من دار عربية شهيرة.

إبراهيم عبد المجيد



ISBN 978-9-77817-196-9



9 789778 171969 >